

أنتى العفرب

{حين تقر الانثى أن تلغ}

رواية

محمود مدين

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧

Beyond.dbh@gmail.com

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعادته إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال أو تدواله الكترونيا نسخا
أو تخزينا دون إذن خطي من الدار

الكتاب: أنثى العقرب

المؤلف: محمود مدين

الطبعة: الأولى

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: إسلام مجاهد

التدقيق اللغوي: سكون لخدمات الكتب

الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي

رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ٢١٢٨٦

الترقيم الدولي: ٩-٢١-٥٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها. ولا تعبر بالضرورة عن
رأي دار النشر

(الحياة ما هي إلا رقعة شطرنج أرواحنا بها
البيادق وشهواتنا هي الأنامل التي تحركها،
فإذا ما سقط بيدق الخوف انتهت اللعبة)

محمود مدين

• إهداء....

إلى تلك الروح التي تقبع خلف قضبان الجسد، ألم يحن وقت
الفرار؟

١ وكانت الحية أحيـل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟

٢ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل.

٣ وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا.

٤ فقالت الحية للمرأة: لن تموتا.

٥ بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر.

٦ فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضا معها فأكل.

سفر التكوين... الإصحاح الأخير.

{الأنثى هي كائن يبدو من الخارج رقيقا هشاً سهل الانكسار، لكنها من الداخل تملك الكثير من اللعنات، فاحذر منها لأنها إن قررت أن تكشف عن إحداها فاعلم أن مصيرك أصبح على المحك}.

منذ بداية الخليقة والنفس البشرية تملك الكثير من اللعنات الواحدة منها كفيلة بجلب طوفان من الجحيم.

لعنة التكبر دفعت إبليس أن يترفع عن السجود لأدم بأمر من الرب.
لعنة الغيرة دفعت أبناء يعقوب لأن يلقوا أخيه يوسف بغيابات الجب وافترؤا عليه باطلا بدم كذب.

لعنة التملك دفعت قابيل أن يريق دماء أخيه هابيل.

لعنة النفس دفعت آدم وحواء لأن يستطعما من الشجرة الملعونة.

لعنة الشهوة دفعت امرأة العزيز أن تراود فتاها عن نفسه.

لعنة المال دفعت قارون أن يمتلك من مفاتيح مخازنه ما تنوء بحمله العسبة أولي القوة.

جميعها لعنات كانت في ظاهرها حق ولصاحبها شرع لكن باطنها كان باطلا.

الزمان: عام ٢١٨١ قبل الميلاد.

المكان: طيبة عاصمة الدولة الفرعونية القديمة.

بفترة من فترات التاريخ الفرعوني المطموس الذي لا نعلم عنه الكثير لأسباب سرية جدا.

داخل غرفة واسعة شقت طريقها نحو باطن الأرض جدرانها العالية نحنت من أحجار البازلت الصلب فرشت أرضيتها ببلاطات من المرمر الناعم تستطيع أن ترى انعكاس صورتك به، تقف العمدان الحجرية التي نقش عليها عبارات فرعونية تسجل أحداث تلك الفترة الغامضة من التاريخ الفرعوني المطموس على جانبيها ترينها زهرة اللوتس البرية من الأعلى، محفور فوق جدرانها رسوم خطت بيد فنان بارع تمثل سيدة تجلس على كرسي العرش يسجد أمامها العديد من الكائنات بينما ترفرف فوق رأسها حمامة بيضاء تحمل تاج الملك الذي تتوسطه رأس أفعى منتصب، بمنتصف الحجرة تستقر مائدة طعام من الرخام الأبيض يقبع فوقها كل ما لذ وطاب من صنوف الطعام المختلفة، على جانبيها كراس خشبية يجلس عليها ما يفوق المائة فرد، جميعهم من كبار القوم والوزراء والجيش، أعينهم تدور بمحجريها تلقي بالتساؤلات الكثيرة عن سبب ذلك الاجتماع المفاجئ، لكن ألسنتهم تخشى البوح بذلك بحضرة ذلك الجمع من الحراس الذين يملئون أركان الحجرة، الجميع ساكن سكون الموتى كأن على رؤوسهم الطير، لحظات وفتحت بوابة الحجرة ليدلف منها رجل عملاق عريض المنكبين ضخم الجثة يرتدي الزي الفرعوني القصير الخاص بحرس الملكة، من قطعة واحدة تغطي ما تحت البطن حتى الركبة وغطاء للرأس ينسدل على كتفيه، صاح بأعلى صوته:

- مولاتي ومليكتي وملكة مصر العليا والسفلى التي تسجد الشمس لبهاء وجهها وتشهد الأرض بحكمتها وعظمتها الملكة نيت إقرت.

قالها بصوت أجش ثم انحنى واضعا ذراعا فوق بطنه والآخر خلف ظهرها مفسحا طريقا للملكة نيت إقرت ملكة مصر بتلك الفترة، قام الجميع بمجرد سماعهم اسم الملكة لتتحنى الرؤوس جميعها احتراما لها، بينما دلفت الملكة نيت إقرت تلك الفتاة الشابة ذات العشرين ربيعا إلى داخل الحجرة تسير بخطوات ممشوقة ثابتة تميزها العظمة والشموخ ترتدي ثوبا حريريا أبيض اللون يضيق عند الخصر فضفاضا من الأسفل، تزين عنقها الطويلة قلادة ضخمة مشغولة بحجر الزمرد على هيئة الخنفساء المصرية يتدلى من شحمه أذنفا قرط ذهبي على هيئة نسر محلق، تعقص خصلات شعرها الحريري الأسود الفاحم للخلف بينما يستقر فوق رأسها تاج الملك المكون من اللونين الأبيض والأحمر الذي تعلوه رأس أفعى ذهبية، بشرتها السمراء تميزها تلك الشامة السوداء التي تعلو شفتيها عيناها المكحلتان تتألأ باللون الأزرق وأنف مدبب، سارت بخطى واثقة إلى الأمام حتى توقفت أمام رأس الطاولة خلف كرسيها، قبضت عليه بكلتا يديها ثم أشارت بيدها للجميع بالجلوس قائلة:

- ليتفضل الجميع بالجلوس.

قالتها بصوت هادئ.

أسرع الحارس يزيح لها الكرسي للخلف حتى تجلس عليه، جلس الجميع عيونهم معلقة بها بتأهب لما سوف تقوله، صمتت برهة ثم قالت:

- أعلم أن جميعكم الآن يحدث نفسه عن سبب ذلك الاجتماع المفاجئ وعن سبب طلبي لحضوركم اليوم، وأنا لن أخفيكم سرا لقد اجتمعت بكم اليوم لأمر هام كثيرا ما شغل تفكيري وأرق مضجعي، جميعكم تعلمون أنه منذ وفاة زوجي الحبيب واعتلائي عرش مصر حملت الكثير من المهام والمسئوليات على عاتقي، ولم أصدر قرارا أو طلبا إلا بعد استشارتكم جميعا به وموافقتكم عليه وأنا اليوم أود أن أخبركم بأن الحمل قد ثقل على كتفي ولن أستطيع تحمل كافة متطلبات الحكم وحدي لذلك

قررت أن أتنازل عن عرشي لابني الوحيد، الملك عنخ إرم وأظنه الوقت المناسب لذلك.

- لكن مولاتي الملك عنخ إرم مازال طفلا حديث العهد، لن يستطيع تحمل كافة مهام حكم بلد عظيم كمصر، أظن أنه يجب إعادة التفكير مليا بذلك القرار.

قالها أحد الرجال الجلوس، نظرت له الملكة نيت إقرت بغضب ثم حادت بنظرها عنه تستند بذقنها على كلتا يديها.

- لقد فكرت مليا يا رئيس الجيش، وذلك ما ألهمني به عقلي بعد الكثير من التفكير وبعد موافقة رئيس كهنة آمون، لقد قضي الأمر، والآن أدعوكم لتناول مأدبة العشاء فالطعام إن برد أصبح سخياف المذاق.

قالتها الملكة نيت إقرت بنفس نبرة الصوت الهادئة وعلى شفيتها ترتسم ابتسامة.

بدأ الجميع بتناول الطعام بصمت يختلسون النظر لبعضهم البعض تحيك عقولهم الكثير من الخطط، دقائق مرت لم تضع الملكة قطعه خبز واحدة بجوفها فقط تنتظر إليهم وهم يلتهمون الطعام بجشع، لحظات ونهضت من على كرسيها، وقف الجميع احتراماً لها فأشارت لهم بالجلوس، توجهت خارج الحجرة، ما إن وقفت بالخارج حتى اقترب منها رئيس الحرس، همست بأذنه:

- الآن.

ثم غادرت المكان متوجهة إلى الأعلى.

أشار رئيس الحرس إلى باقي الحراس بأن يغلقوا كافة مداخل الحجرة، أسرع الحرس بإغلاق البوابة الرئيسية للحجرة وكافة البوابات، ثم أمسك

كل واحد منهم مقبضا حديديا متصلا بترس، حركوها بشكل دائري بكل قوتهم فانفتحت عيون من المياه بأعلى الحجرة متصلة بقنوات تتدفق بها مياه نهر النيل، اندفعت المياه بكل قوتها داخل الحجرة لتغرقها، هرول الجميع من مكانهم البعض توجه ناحية البوابة المغلقة والبعض الآخر يبحث عن مخرج لكن لا مفر، تعالى صوت صرخاتهم وطرقهم الشديد على البوابات لكن دون مجيب، ظلوا هكذا حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة غرقا.

كانت الملكة تصعد درجات السلم وهي تطرب لسماع صوت صرخات هؤلاء الخونة، كانت محقة حين قررت التخلص منهم، لم تتبق سوى رأس الحية التي يتوجب قطعها.

بينما يحدث كل ذلك كانت الأميرة مري كارع بمخدعها، تقف أمام المرأة تنظر إلى وشم العقرب الذي يزين كتفها بإعجاب، تصفف خصلات شعرها الأحمر الناري، تنظر إلى تضاريس جسدها المنحوت تعلم أنها أجمل نساء مصر وأكثرهن إثارة، فجأة اقتحم غرفتها القائد حور رع وهو يلهث، نظرت له وهي تعقد حاجبيها بغضب:

- من الذي أذن لك بالدخول إلى هنا أيها الجندي دون حتى أن تطرق الباب إنه لخطأ تستحق عليه قطع عنقك!

قالت له بصوت عال، نظر له بتأسف قائلا بصوت منفعل وكلمات تتخللها الأنفاس اللاهثة وهو يتصيب عرقا:

- عذرا أميرتي لكن الأمر هام، لم هناك وقت لابد أن نهرب الآن فالملكة بطريقها إلينا!

- ما الذي تقوله هذا، وعن اي ملكة تتحدث ايها الأبله!

- الملكة نيت إقرت شقيقتك، علمت بأمر المكيدة التي كانت مدبرة لها، وقد قامت بقتل جميع حاشيتها ومتجهة الآن إلى هنا لقتلك، هيا بنا قبل فوات الأوان!

قالها حور بصوت خائف مضطرب، ثم أسرع يقبض على ذراعها.

- لا لن أهرب، لن أنركها تستولي على كل شيء بتلك البساطة، إن كنت خائفا فاذهب أنت وحدك، أما أنا فسانظرها وإما أكون أنا الضحية أو الجاني.

قالتها مري بعد أن جذبت ذراعها من قبضته، أسرع حور مغادرا الغرفة بينما عادت مري تقف أمام مرأتها مرة أخرى، دقائق ودلفت إلى الغرفة الملكة نيت، سارت حتى وقفت خلف مري تتلمس خصلات شعرها:

- طالما كنت أنت الفتاة الجميلة التي يتهافت عليها كل الرجال.

قالتها نيت إقرت.

- وأنت أيضا يا شقيقتي العزيزة، طالما كنت الفتاة الذكية المحببة لدى والدك، الأنانية حتى الرجل الوحيد الذي أحبيته تزوجته أنت.

- بل أنت من تحقدين عليّ طوال عمرك، تريدان قتلي يا مري، هيهات لك أنت من سينحر عنقك الآن وبنفس الخنجر الذي قتلتني به زوجي!

قالتها الملكة نيت إقرت ثم أخرجت من ثوبها خنجرا صغيرا يلمع نصله مرصع بفصوص الألماس، حاولت نحر عنق شقيقتها لكن الأخرى عاجلتها بضربه بظهر يدها، لتتقهقر للخلف، انقضت مري فوق نيت إقرت، تكيل لها الصفعات حتى سال خيط رفيع من الدماء بجانب فمها، استطاعت نيت إقرت أن تجذب بعضا من خصلات شعر مري، لتتقلب الدفة، مري بالأسفل ونيت تجثم فوق بطنها، التقطت الخنجر، ثم رفعت ذراعها للأعلى، لتسدد ضربتها بقلب مري، التي شخص بصرها بهلع

وخوف، لكن قبل أن تستقر الطعنه بقلبها كان سهم حور قد استقر بعنق نيت اقرت، التي ارتطمت بالأرض، هرولت مري تجاه حور الذي كان يقف أمام الغرفة.

- ما العمل الآن مولاتي مري؟؟

قالها حور.

- لا تقلق هيا معي عاوني على سحبها للداخل، فهناك مخبأ سري بغرفتي

دلف حور إلى الداخل، ثم قبض كل منهما على ذراع، سحب الملكة نيت إقرت بالقرب من المرأة، التي دفعتها مري جانبا، ليظهر باب خشبي صغير يوصل بسرداب، دفعت الباب للداخل.

- هيا اجلبها للأسفل.

قالتها وهي تعاون حور على دفعها للأسفل، كان السرداب مظلماً، تحت الخطة للداخل حتى وصلوا إلى نهايته حيث حجرة صغيرة منحوتة بقلب الصخر، دفعتها مري بيدها، ثم تتحت جانبا قائلة:

- هيا ألقها هنا.

دفع حور جسد الملكة داخل الحجرة.

نظرت لها مري بتشف:

- تلك هي نهايتك وبدايتي أنا وهنا سيطمس اسمك للأبد لقد ولى عهدك أيتها الغبية

قالتها ثم أغلقت الباب عليها وأدارت الرحى، حيث كانت الغرفة عبارة عن مخزن غلال قديم.

غادرت مري السرداب وصوت ضحكاتها يجلجل بين الجدران بينما
حبات الرمال تندفع من الأعلى لتغطي جسد الملكة نيت إقرت للأبد.

كلمة قبل البدء

مرحبا بك يسعدني التعرف عليك ولكن لا أعلم إن كان سيسعدك التعرف عليّ أيضا، على كل حال أنا ليلي أو Lily كما أطلق عليّ كاتب الرواية، سأروي لك قصتي لكن قبل أن تبدأ بقراءتها لابد أن تعلم أن المظاهر خداعة، فمن تظن أنه الضحية قد يكون القاتل، الحياة تعج بالألوان التي قد يكون ظاهرها أبيض اللون لكن باطنها حالك السواد، الشر لا يكمن داخل النفوس الخبيثة فقط بل قد يكمن داخل النفوس النقية ينتظر اللحظة المناسبة ليطفو على السطح، فإن كنت من أصحاب المبادئ والقلوب المرهفة فقصتي لا تصلح لأمثالك، أما إن كنت من أصحاب القلوب القاسية فهي أيضا لا تصلح لك، هي فقط تصلح لأصحاب القلوب الضعيفة التي وقر الشيطان بداخلها ونهش جدرانها. هي حكاية أنثى، مجرد أنثى.

الفصل الأول : ذكركم غابرة

(نحن أموات على قيد الحياة ننتظر من يزرع بداخلنا الوجد لنصبح أحياء
على شفا الموت... محمود مدين)

الزمان: الحادي عشر من شهر فبراير عام ١٩٨٤ ميلاديا.

المكان: مشفى النصر التخصصي ٦ شارع ابن هاني الأندلسي مدينة
نصر بالقاهرة.

في تلك الليلة الخريفية قارصة البرودة، أصوات الرعد تصم الأذان
والبرق يضيء صفحة السماء كسوط من الضوء يضربها، بينما السحب
الرمادية تغلفها، بالكاد ترى القمر وهو يختبئ خلفها كأنه يتوارى خوفا
من تلك المعزوفة الطبيعية، قطرات المطر تنهمر من أعينه ترتطم
بالأرض، الجميع يهرول ويجري محاولا الاحتماء بأي مكان أو الاختباء
تحت مظلة.

بتلك الأثناء، وبذلك الردهة الطويلة ذات الجدران البيضاء الناصعة التي
تستقر فوق أرضية رخامية يكسوها الأبيض والرمادي مع إضاءة خافته
صادرة من مصابيح كهربائية معلقة بالسقف، تلك الرائحة النفاذة التي
تميز المستشفيات، الرطوبة تغلف المكان، وقف سمير العصفوري ذلك
الشاب ذو الثلاثين ربيعا ببشرته السمراء الداكنة حيث أصوله النوبية
وشعره الأشعث يرتدي بذلة رمادية اللون، يعمل مهندسا مدنيا بإحدى
الشركات الخاصة، يستند على الحائط الملاصق لتلك الغرفة التي كتب

أعلاها غرفة العمليات، كان التوتر ينضح من قسّمات وجهه تتساقط حبات العرق الباردة من فوق جبينه، يفرك يديه ببعضهما من شدة التوتر، بينما تقف بجواره سيدة بدينة الجسد بقامة قصيرة، ترتدي جلبابا أسود اللون تغطي شعرها بشال صوفي مع نظارة طبية ذات عدسات سميكة، تضع يدها على كتفه تواسيه.

- أنا قلق جدا يا أمي، لقد تأخرت بالداخل ما يزيد عن الساعتين وليس هناك أدنى صوت ولم يخرج أحد حتى ليطمئنا!

قال لها بصوت متوتر يشوبه القلق.

- لا داعي للقلق يا بني، هي الولادة الأولى هكذا تكون صعبة وتأخذ وقتا، اهدأ وادخ لها فقط.

- حسنا يا أمي لكنك تعلمين حالتها الصحية، كثيرا ما أخبرتها أن الحمل به خطر عليها لكن أمومتها كانت أهم عندها من حياتها.

- إنه قدر الله لا اعتراض عليه.

قالتها والدته، ثم عادت تقرأ بالمصحف مرة أخرى.

مرت دقائق وهو على تلك الحالة يجول في الرواق ذهابا وإيابا، حتى خرج الطبيب من غرفة العمليات يمسح قطرات العرق العالقة بجبهته، زائغ البصر ملامحه تشي بحدث جلل ينظر أرضا، هرول سمير تجاهه قدماه تصطكان ببعضهما.

- أخبرني يا طبيب كيف حال فريدة الآن، هل هي بخير؟؟

قالها للطبيب بلهفة.

صمت الطبيب هنيهة، يبحث عن كلمات تهون وقع ذلك الخبر الأليم.

- أنت تعلم جيدا كم كانت حالة فريدة صعبة للغاية وكم من مرة أخبرتك أن الحمل به خطر على صحتها لكنها ضربت بكلامي عرض الحائط. قالها الطبيب.

- أنت تعلم أنها رفضت ذلك وبشدة، وحملت دون علمي بالبداية!
- الولادة كانت متعسرة للغاية وقد فقدت فريدة الكثير من الدماء، المولودة بخير لكن فريدة..

سكت الطبيب برهة ثم أردف:

- البقاء لله لم نستطع إنقاذها.

قال له الطبيب ثم ربت على كتفه مغادرا المكان.

كانت الصدمة أكبر من أن يستوعبها.. لم يستطع سمير تحمل الصدمة.. جثا على ركبتيه يضع رأسه بين راحتي يديه يصرخ بحرقه.. اقتربت والدته منه واحتضنته داخل صدرها وهي تبكي.

الزمان: الأول من شهر مارس عام ١٩٨٤.

المكان: شقة صغيرة بشارع يوسف عباس، مدينة نصر.

غرفة معيشة مكونة من ثلاثة كراسي وأريكة كبيرة جدرانها مغلقة بورق الحائط المنقوش عليها زهرة البنفسج، شرفتها تطل على مبنى وزارة القوي العاملة، شقة على الطراز الإسلامي القديم الذي تميزه مشغولات الأرابيسك الخشبية، مكونة من غرفتين وصالة، جلس سمير العصفوري مهموما ملامح وجهه العابس تنم عن حزن عميق ودمعة حارة تسقط من

بين جفونه تعانق دفتر الصور الخاصة به وزوجته الذي يتصفح أوراقه بين يديه، يتذكر تلك اللحظات التي عاشها مع فريدة منذ اللقاء الأول الذي جمعهما حين رآها صدفة عند طبيب الأسنان تلك النظرة الأولى التي صوبت سهام الحب نحو قلبه، مروراً باللحظات السعيدة التي جمعتهم، اللقاءات التي كانت خلسة بعيداً عن أعين الأهل.. أول قبلة، الخطوبة حتى الزفاف كل المشاكل التي مرا بها، أوقات مرضها وإصرارها على أن تنجب طفلاً رغم كل المخاطر الصحية التي قد تتعرض لها وتحذير الطبيب المعالج لها على خطورة الحمل بالنسبة لحالتها المرضية إلا أن عاطفة الأمومة كانت أقوى منها، ندت دمعة من عينه حملت معها كل الأوجاع والأحزان التي يشعر بها، لم يشعر بوالدته السيدة فوزية التي وقفت مستندة على الحائط، تنظر له بعيون الشفقة لا يسرها ما آلت إليه أحوال ابنها الوحيد، اقتربت منه ثم جلست بجواره ربتت على كتفه قائلة:

- إلى متى ستظل هكذا حزينا، تحبس نفسك بين جدران تلك الشقة ولا تريد رؤية أحد، أنت تمزق نياط قلبي عليك!
قالت له ثم شرعت بالنحيب.

- ما الذي تريد أن أفعله يا أمي، فريدة كانت شريكة حياتي بين ليلة وضحاها أخسرها، لم تكن زوجة فقط كانت كل حياتي!
قال لها، مسحت دمعها بطرف جلبابها.

- أعلم يا بني، لقد شعرت بذلك وقت وفاة والدك وكان الحياة توقفت مع وفاته لكن الحقيقة أنها استمرت ولابد أن تستمر تلك هي سنة الحياة، كل الذي أريدك أن تفعله هو أن تعيش حياتك، لازلت صغيراً وأمامك الحياة طويلة، اسمع يا سمير، سأقولها لك لا بد أن تتزوج إن لم يكن من أجلك فمن أجل فريدة الصغيرة.

لم يستوعب سمير ما قالت والدته ليستطرد بتعجب ممزوج بدهشة قائلاً:

- ما هذا الذي تقولينه يا أمي! هل الوقت مناسب لذلك الاقتراح! بالطبع لا من تلك المرأة التي تستطيع أن تحل مكان فريدة!!

- نعم هو أنسب وقت، أنا لن أظل معك كثيرا أنت بحاجة إلى امرأة تتولى رعايتك أنت وفريدة

- ومن تلك التي ستقبل بأرمل ولديه طفلة؟

- يوجد يا بني، أنت فقط وافق واترك الأمر عليّ. أنا لذي زوجة لك.

- ومن سعيدة الحظ إذن؟

قال لها بنبرة تهكم.

- سعاد أخت فريدة، أولا لن تجد أفضل منها ليرعاك ثانيا لن تعامل فريدة كزوجة أب وذلك هو المطلوب.

ألقت السيدة فوزية تلك الكلمات على ابنها، وتركته يفكر بها جيدا.

الزمان: الحادي والعشرون من شهر أكتوبر عام ٢٠٠٢.

بداخل غرفة واسعة جدرانها مطلية باللون الأزرق السماوي أرضيتها من الخشب الباركيه يتوسطها مكتب خشبي فخم من خشب الزان اللامع، مع أريكة جلدية مع مكتبة صغيرة بها الكثير من الملفات والمجلدات القانونية، جلس ذلك الرجل بشاربه الكث ورأسه الصلعاء أسمر البشرة تتناثر الحفر بصفحة وجهه تدل على أثر حب شباب قديم، عيناه ضيقتان بأنف مفلطح يرتدي بذلة سوداء مع رابطة عنق حمراء، ينفث دخان سيجارته الكوبية أمامه لوحة خشبية كتب عليها معتز السيوفي محام بالنقض والمحكمة الإدارية العليا، بينما جلس قبالتة السيد سمير

العصفوري، وقد ظهرت عليه علامات تقدم السن في التعاريج والخطوط تحت جفونه مع شعره الذي تحول إلى الرمادي الفاتح.

- هل أنت متأكد من قرارك ذلك؟ أرجوك أعد النظر مرة أخرى، فذلك القرار سيترتب عليه الكثير من الأمور التي لا يحمد عقباها.

قال له معتر السيوفي.

- نعم أنا متأكد وبكامل قواي العقلية ولن أراجع، فقد اتخذته بعد تفكير طويل وعن اقتناع وإرادة حرة.

قال له سمير العصفوري بلهجة صارمة

- إذن فلتوقع لي باسمك هنا.

قال له وهو يقدم ملفاً أزرق اللون به بضعة أوراق قلبها حتى استقر على الورقة الأخيرة وأشار بطرف إصبعه على أسفلها، أخرج السيد سمير من جيب قميصه قلم حبر ثم ارتدى نظارته الطبية، وخط بالقلم على آخر ورقة بالملف بالأسفل، استعاد المحامي الملف مرة أخرى، ثم وضعه بأحد الأدراج.

- غدا سأنهي باقي الإجراءات القانونية، ليصبح العقد رسمياً، وإن كنت أرى أن تعيد النظر مرة أخرى.

قال له المحامي بصوت متردد.

فأردف سمير قائلاً:

- أنا أعلم المغزى من وراء طلبك، لكن لا تقلق أنا بهذا أعيد الحق لأصحابه وأصلح خطأ أحمقا قديما ارتكبته.

قام السيد سمير مغادرا ولكنه قبل أن يغادر طلب من المحامي أمرا.

- طلبي الأخير ألا يعلم أحد عن زيارتي لك شيئاً، وأنت تعلم الوقت المناسب الذي تخرج به تلك الأوراق.

أوماً المحامي برأسه، غادر سمير العصفوري المكتب وهو يشعر بارتياح.

الفصل الثاني (رجوع هاجيت)

(ذاك الحب لم يكن حبا بل كان ذنبا لا بد من اقترافه ثم وأده داخل مقبرة النسيان ولا تجوز عليه الرحمة... محمود مدين)

الحياة في بروكسل حقا رائعة، تلك العاصمة الجميلة التي تقع في بلجيكا يبلغ عدد سكانها مليون نسمة، بروكسل المدينة التي تمخضت من رحم أم فرنسية وأب هولندي، المدينة التي تشبه العجوز تجلس على أريكتها الوثيرة، هادئة البال شغلها الوحيد أن تقوم باسترجاع ذكرياتها القديمة، التجاعيد تملأ وجهها ولا تهتم لها وكأنها تقول أنا بروكسل عاصمة الشوكولاتة وعنصر السعادة، بلجيكا تعتبر نصف فرنسية ونصف هولندية، فاللغتان تقريبا تتقاسمان بلجيكا فنصفها الشمالي هولندي والجنوبي فرنسي والعاصمة بروكسل، بروكسل قديمة وعندما تسير في شوارعها تشعر وكأنك تسير في وسط التاريخ الأوروبي، المباني والأرصفة والمحلات القديمة، تمدك بإحساس غريب وفريد عن باقي المدن الأوروبية، التي زرتها، ليست أفضلها ولكنها الأغرب من حيث ثقافة الأجواء بها، نسبة الأجانب بها كثيرة وتعدد الأصول الأخرى، حيث في بعض الأحياء تحتار بالتنوع اللوني والشكلي بين السكان، كل شيء بها قديم ومن عادتي أنني أحب المدن القديمة كما أحب المدن الحديثة المفعمة بالجنون والإبداع، أكثر ما يميز بروكسل هي محلات الشوكولاتة فهم أهل الخبرة والإبداع بها ومن أشهر محلاتها محل جوديفا بوسط بروكسل، كما أنها تتميز بأجوائها المطرية مع إضاءات الشوارع جعلتها ضربا من الخيال.

(ليلي).

أعشق الحياة ببروكسل تلك المدينة الساحرة ذات الطابع الصاخب، انها تشبهني حقا متمردة جريئة خجولة ناضجة متسرعة مرحة حزينة، مزيج من كل المتناقضات انها هي بروكسل

عذرا تعمقت في وصف المدينة الساحرة ونسيت أن أعرفك بنفسي.

أنا ليلي أو كما يطلق عليّ أصدقائي ببروكسل lily مصرية أعيش ببروكسل منذ تسع سنوات تقريبا، منذ أن كان عمري ثمانية عشر عاما، والآن أنا أخطو نحو عامي السابع والعشرين، أمتلك بشرة بيضاء بلون الثلج، بوجه مستدير يتوسطه أنف دقيق يدل على أصول أرستقراطية تعلوه عينان بلون زرقة السماء الصافية بنهار ربيعي دافئ، وشفاة كرزية ممتلئة مخضبة بلون الزهور، تنتثر البقع البنية الصغيرة على صفحة وجهي وكامل جسدي، خصلات شعري الطويل بنية اللون أطرافها حمراء، وجنتاي بارزتان تزينهما حمرة خفيفة، أمتلك جسدا منحوتا بيد فنان بارع، يؤهلني لأصبح عارضة أزياء أو أحد آلهة الجمال الإغريقية، تلك المواصفات الأوربية التي ساعدتني على الاندماج بالحياة هنا لا يستطيع أحد أن يعرف أنني مصرية أو حتى عربية الأصل إلا من تلك اللكنة التي لا أتقن نطقها بشكل جيد حتى الآن، أعشق الموضة والأزياء وأتابع حركة تطورها بشكل مستمر، أهوى قراءة علم الفلك والأبراج وأؤمن بها جدا، بالمناسبة أنا برج العقرب ويزين كتفي من الخلف وشم عقرب أسود اللون بذيل مقوس نحو الأمام، حسب خبراء الفلك فإن العام القادم هو عام العقرب.

قدمت إلى بروكسل لأحقق حلم الالتحاق بمدارس الفن بها حيث أُرغب بدراسة فن الديكور، يوجد بها أشهر مدارس الفنون، أعيش مع صديقي المقرب adrian بنفس الشقة.

بحي Avenue louise أو كما يطلق عليه حي الملكة لويزا، ذلك الحي الراقي المتحضر الذي يعج بالحياة الصاخبة والمحلات التي تبيع أفضل الماركات العالمية والذي يقع بوسط مدينة بروكسل.

حياتي بالقاهرة لم تكن جيدة للأسف، لم أستطع التأقلم مع الأجواء هناك دائما ما كنت أتوق إلى الحرية، إلى التحليق بعيدا حيث حلمي بأن أصبح من أفضل مهندسي الديكور أو مصممة أزياء عالمية، والداي توفيا منذ سنوات، ليس لي سوى أخت واحدة تدعى فريدة تكبرني بثمانية أعوام، تشبه والدي كثيرا بملامحه النوبية، بشرة قمحية وشعر أسود ناعم وتلك العينان داكنتا السواد والقامة المائلة إلى القصر مع تلك الشامة التي تزين خدها الأيسر، هادئة لا تتحدث كثيرا من هؤلاء الأشخاص الذين يفكرون جيدا قبل أن يتفوهن بحرف واحد، جادة جدا وكانت دوما متفوقة دراسيا حيث عملت بعد التخرج معيدة بالجامعة ثم أستاذة للتاريخ الأسباني، أنا وهي طرفي مغناطيس لن نتقابل أبدا، كما أعشق الحرية والتحرر من القيود المزعجة التي يطلقون عليها التقاليد والعادات أشعر دائما أنني فراشة حياتها بالتحليق ما بين الزهور، أكره التزمت والتحدث بلسان الدين والأخلاق، فريدة متزوجة منذ خمس سنوات حيث لم أحضر حفل زفافها ولم ألتق بزوجها إلا عبر مواقع التواصل الاجتماعي حيث نتبادل بعض الكلمات القصيرة والمختصرة كيف الحال بخير مع السلامة لا أكثر ولا أقل علاقة سطحية جدا لا ترقى حتى إلى حد الزمالة، لم نكن يوما مثالا لهؤلاء الأخوات اللاتي يحفظن أسرار بعضهن أو يتشاركن اللحظات السعيدة سويا.

والدتي توفيت منذ ما يقرب من ثمان سنوات بعد وفاة والدي بتسعة شهور، وكان عشقها الدائم لسطوة أبي عليها أبت أن يتركها تعيش حريتها المسلوبة منها طوال ثلاثين عاما عاشتها في كنف والدي، ذلك الرجل النوبي الحازم حاد الملامح والطباع الذي يعشق الالتزام ولا يحيد عنه، صارم متجهم الوجه لا أتذكر أنني رأيته مرة واحدة مبتسما، وذلك

كان السبب الأكبر في خلافاتي الدائمة معه، لم أكن أكرهه بطبيعة الحال ولكنني كنت أتحاشى التعامل معه دائماً لذلك كانت فريدة دوما الفتاة المطيعة الطيبة وأنا الفتاة المستهترّة الشريرة وللحقيقة لم تكن معاملته معي تغير من حقيقة نعتي له بالرجعي المستبد، كنت دائماً أتعجب من أسلوب معاملته لي حتى إني في بعض الأحيان كنت أشك بأنه أبي، لم يكن لي ملجأ سوى داخل أحضان أُمي المغلوبة على أمرها الشاردة دوماً، نظرة الحزن لا تفارق عيونها المنكسرة، رحل كلاهما، بقيت أنا وفريدة، لم أستطع وقتها البقاء بمصر أكثر من ذلك، أنا وهي كالأعداء نتحين الفرص لمن يصفع الآخر على وجهه، عدت إلى بروكسل مدينتي المفضلة التي أعشقها وتعشقني، كانت فريدة ترفض الأمر في البداية ولكنني لم أكن أنتظر موافقتها فقد رحل من يملك سلطته عليّ الأمر كان بالنسبة لي محسوماً.

أعلم أنكم سئتم من الحديث عنها لكنني أعشق الحياة ببروكسل، أدوب في شوارعها، تلك الحياة المفعمة بالحرية والتي تضج بالفن، هنا لا ينظر أحد لآخر على أساس ديانته أو معتقده أو جنسيته ولا يحق للآخر أن يتحكم في تصرفات غيره، تعج بالديانات والأعراق المختلفة والجنسيات المتعددة لا ينظر أحد إلى آخر على أساس تلك الاختلافات وإنما الحرية مكفولة للجميع فلتحي كما تشاء ما دمت لا تضر غيرك ولا تتجاوز حدود حريته تلك هي بروكسل التي أحب.

الزمان: الثاني والعشرون من نوفمبر ٢٠١٣.

الساعة العاشرة صباحاً بتوقيت غرينتش .

المكان: مقهى Mento بجراند بالاس بوسط العاصمة.

ذلك المقهى الكبير الذي يقع بساحة Grand palace بوسط العاصمة البلجيكية بروكسل، بجدرانه العالية ذات الطابع الفرعوني القديم بتمائيل الآلهة المصرية القديمة كتمثال الإله حورس بشكل الصقر الذي يزين واجهته ورأس نفرتيتي الجميلة، الزي الفرعوني القديم الذي يميز العاملين بالمقهى، الزي الأبيض المنقوش بالزخارف الفرعونية بشريطة ذهبية طويلة تتدلى إلى الركبة مع غطاء الرأس الفرعوني المذهب، أما الطاولات الخشبية فتميزها تلك الأكواب النحاسية التي توضع بداخلها الشموع والمنقوشة باللغة الهيرغليفية أما الكراسي الخشبية فمحفورة بها لوحات فرعونية، وزهرة اللوتس التي تزين جدرانها الحجرية، أعشق هذا المكان الذي يأخذني من صخب الحياة السريعة إلى وهج الأصالة والعراقة المصرية القديمة، كما تربطني صداقة لطيفة بالمسيو منتو دي لوتشي، ذلك العجوز الإيطالي الذي تخطت سنوات عمره الثمانين بلكنته الإيطالية المحببة وخصلات شعره البيضاء، أصهب البشرة، التجاعيد تغوص بوجهه يركز على عكاز خشبي من خشب الأبنوس يرتدي دائما بذلات صوفية قديمة وكل يوم عنده له لون معين، يمتلك ذلك المقهى حيث يتحدث اللغة العربية بلسان أعوج يثير الضحك، ذلك لأنه عاش زمنا بالإسكندرية منذ أن كان بعمر العاشرة حتى تزوج بها ولكن الله لم يمن عليه بالإنجاب حيث توفيت زوجته بها ودفنت هناك أيضا، لقصة حبه معها قصة طريفة يرويها لي:

كنت شابا لم أتجاوز بعد السادسة والعشرون، تخرجت من كلية الهندسة بجامعة بالرمو نفس اسم المدينة التي ولدت بها وتعتبر عاصمة جزيرة صقلية، عملت بعد التخرج بشركة مقاولات وإنشاءات، ذات مرة كلفتني الشركة بالذهاب إلى قرية فالدورا التي تقع بالشمال الإيطالي حيث السهول والمرتفعات الخضراء، تشعر هناك أن السماء تعانق الأرض ليس بينهما حاجز، روعة الريف الإيطالي بعذريته الجميلة التي لم تطالها يد الإنسان بعد، حيث استلمت الإشراف على أعمال بناء فندق سياحي هناك، ذات يوم كنت بطريقي ذاهبا إلى مكان العمل كان يوما ربيعيا

بامتياز السهول الخضراء التي تزينها الورود والأزهار من كل الألوان والأنواع الشمس تحتضن الأرض بدفء، رأيتها هناك بإحدى المزارع كانت كالبدر يقف على الأرض، ترتدي ثوبا زهري اللون منقوشا بالزهور البيضاء الصغيرة بينما تضع عصاها على رأس تطل خصلات شعرها العجري من تحته كسلاسل الذهب، بشرتها تكاد تضيء عيناها بلون البحر شفتاها الرقيقتان زهريتا اللون، تقطف زهور البنفسج وتضعها بسلة من الخوص.

عشتها منذ اللحظة الأولى، صرت أتتبعها أصبحت فرضا يوميا، سألت عنها حتى علمت أنها تدعى فيرونيكا ابنة وحيدة لأسرة ريفية بسيطة والدها يعمل نجارا والدتها ربة منزل، لم أنتظر الكثير ذهبت لأطلب يدها، وعلي الرغم من مكانتي الاجتماعية إلا أن والدها رفض الارتباط، بحجة أنها مخطوبة إلى ابن عمها، أصابني اليأس في اليوم الذي يليه، وجدتتها تنتظرنني على الطريق، أخبرتني أنها لا ترغب بالزواج من ابن عمها وأنها موافقة على الارتباط بي، سعدت كثيرا من كلماتها، أصبحت نتبادل الرسائل واللقاءات حتى أصبح البعد عنها مستحيلا، ذهبت مرة أخرى إلى والدها للمرة الثانية يرفضني، عدت أجز أذيال الخيبة، مرت الأيام حتى انتهى العمل، أحضرت حقيبة سفري وتوجهت إلى محطة القطار، وقد تركت قلبي معها، لكن المفاجأة أنني وجدتتها هناك تحمل حقيبة سفرها، أخبرتني أنها لن تستطيع العيش من دوني، سافرنا سويا إلى روما هناك عقد قراننا، ثم أرسلنا بريدا إلى أهلها بالأمر، تم الرد عليه بأنهم يعتبرونها في عداد الموتى وليس لهم ابنة من الأساس، أصابها الحزن كثيرا، قررت أن أخذها برحلة بحرية حول العالم، ذهبنا إلى أكثر من دولة، حتى استقرينا بالإسكندرية، عشتها، عشنا بها أفضل سنوات عمرنا، لكن تلك السعادة لم تستمر حين علمت بأنها لن تستطيع أن تنجب، من هنا بدأت تسوء حالتها وظلت على هذا حتى توفت ودفنت هناك، لم أستطع العيش بدونها فغادرت الإسكندرية على مضض واستقررت هنا من وقتها أجتر ذكرياتي القديمة وأعيش على أطلالها.

يتمنى دائما أن يعود إليها قبل موته، دلفت إلى داخل المقهى مهرولة
أحتمي من المطر، حيث كان ينتظرنني أصدقائي مارلي وجلبرت على
طاولة تطل على ساحة غراند بالاس بطرقاتها الممطرة لوحة فنية بكل
المقاييس، كم أعشق تلك الأجواء الخريفية المنعشة دوما ما تفتح صندوق
الذكريات داخلنا حين كنا كتلك الطيور التي تزين الأشجار تحتمي داخل
أعشاشها من زخات المطر، الخريف ما هو إلا خريف المشاعر حين
تصبح أرواحنا هشة كورقة شجر ذبلت واصفر لونها مع أقل دفقة رياح
تغادر مكانها ومع أقل دهسة قدم تنهشم، كانت الساعة التاسعة صباحا،
أغلقت المظلة ثم وضعت الحقيبة على الطاولة وجلست.

- كيف حالكم يا رفاق؟؟

قلت لهم بلهجة طفولية مرحة.

- بخير، لم تأخرت هكذا نحن ننتظرك منذ ساعة!!

قال لي مارلي بنبرة عتاب.

- عذرا مارلي حبيبي فقد نمت بوقت متأخر كان عندي جلسة تصوير،
فاغفر لي ذلتي مسيو أليخاندر.

قلت له بحركة تمثيلية مضحكة.

- حسنا ولكن هذا التأخير له مقابل.

- وما هو يا وسيم؟؟

- المشروبات ستكون على حسابك اليوم.

- بسيطة علم وينفذ لكن ليس كل مرة.

قلت له ثم صحت بأعلى صوتي على النادل.

اقترب النادل يرتدي زي المقهى الرسمي، كان شابا سوريا نازحا يقيم ببروكسل يدرس الطب وفي نفس الوقت يعمل هنا حتى يستطيع العيش والإفناق على دراسته وإقامته، شاب في منتصف العقد الثاني من عمره مفتول العضلات بقامة طويلة وعينين بنيتي.

- صباح الخير (ليلي) كالعادة أم تودين إلقاء نظرة على القائمة؟؟
قالها خوليو.

- كعادة كل يوم بالطبع القهوة السويسرية الساخنة وبعض المخبوزات الطازجة.

أوما برأسه ثم غادر ولحظات وكانت القهوة السويسرية أماننا مع بعض المخبوزات الطازجة.

أخبرني مارلي، ذلك الفتى الأشقر قصير القامة يضع قرطا فضيا بشحمة أذنه اليسرى ورأسه تلتصق بجسده مباشرة وكان رقبتة اختفت، جسده الممتلئ بالكربوهيدرات مع بطن متدللية عامرة بالدهون مشبعة من كثرة ما يتناول من طعام ففمه لا يكل ولا يمل عن العمل دائما سواء بالحديث أو بمضغ الطعام، يتناثر النمش الذي يخط بنقاطه البنية الفاتحة على كامل جسده الأبيض المائل للحمرة، تشعر دائما معه أنك تجالس طفلا صغير لم تعرف سطوة الحياة القاسية لقلبه طريقا، يعمل بإحدى دور الأزياء الشهيرة حيث لديه ذوق رفيع يناسب الفتيات، أخبرني قائلا بقم ممثلي بقطع البيرجر الساخنة أن بروفسيور آدم أستاذ المساحات بالمعهد قد أخبر عن فتح باب التقدم للتدريب بمعرضه الخاص.

أخبرته أنني لا أنوي التقدم لها فهذه العطلة سأقضيها أنا وأدريان بالبراري، حيث أنا وهو والطبيعة فقط عسى أن تعود الأمور إلى سابق عهدها ونتخلص من ذلك التوتر الذي أصاب علاقتنا بالفتور منذ أن ترك

أدريان العمل مما دفعه إلى معاقرة الخمر والتسكع على خانات السكر
فغالبا هو غائب الوعي متعكر المزاج يبحث عن المشاجرة بملقاط وكأنه
يصب جام فشله وسوء حظه عليّ أنا فقط.

- لا أدري يا (ليلي) لم تستمرين في علاقة مع ذلك السكر أدريان، دائما
ما أنصحك بأن علاقتك به فاشلة ولن يثمر عنها سوى الوجدع ونهايتها
حتمية مهما حاولت أن تحافظي على ذلك الخيط الموصول بينكما فقريبا
سيأتي الوقت الذي سينفلت ذلك الخيط لأن الطرف الآخر غير عابئ به.

قالها جلبرت بعد أن ارتشف رشفة من فنجان قهوته السويسرية والتي
علق بعض منها على شاربه ذو الشعرات البنية المائلة للصفرة، يرتدي
دوما مثل مغني الراب والقبعة الخاصة بهم حيث يعمل فردا في إحدى
الفرق الموسيقية غير المعروفة يعزف على آلة الساكسفون، يتميز
بالجدية عكس مارلي الذي يعشق المزاح والضحك.

تنهدت بعمق مطلقة زفيرا مصحوبا بخيوط بخار تلاشى في الهواء خلفا
طبقة ضبابية على زجاج الواجهة.

- تعلم يا جلبرت أنني أحبه كما أنه أول شخص أعرف عليه هنا وعلاقتنا
تجاوزت الثلاثة أعوام، كان مرشدي وعياني هنا في الوقت الذي لم أكن
أعلم به أي شيء هنا، لن أنسى وقفته بجواري في البداية ولن أنسى ذلك
الموقف الذي أنقذني به من بين برائن تلك الجماعات المتسولة بشوارع
بروكسل حين حاولوا سرقتي، كما أن أدريان لم يكن هكذا يوما ذلك فقط
بفعل طرده من العمل، كما أنه يبحث حاليا عن عمل جديد وأنت تعلم
براعة أدريان في ذلك.

قلتها وأنا أعلم جيدا بداخلي أنني أكذب على روعي فأدريان أصبح لا فائدة
منه ولا رجاء.

- ولكنك دوما ما تتحملين كل شيء من إيجار الشقة إلى نفقاته الشخصية حتى زجاجات الخمر التي يتناولها، وهذه ليست أول مرة يا (ليلي) لا تكذبين على نفسك.

شعرت بالخجل الممزوج بالحزن الدفين لأستطرد قائلة:

- لقد وعدني أن يبحث عن عمل جديد وأتمنى من الله أن يوفق في ذلك، هو طيب القلب لكنه عثر الحظ.

نظر تجاهي كل من جلبرت ومارلي بنظرة مفادها أن ما تقولينه شيء مستحيل فأدريان فاشل ولن ينجح في شيء أنت فقط من تواسين نفسك.

حاولت تغيير دفة الحديث قائلة بشيء من المرح:

- اتركونا من الحديث عن أدريان، أخبرني يا جلبرت أين ستكون سهرة الليلة، فأنا مشتاقة إلى بعض الجنون.

ضحك جلبرت على سرعتي في تغيير الموضوع ثم استطرد قائلاً:

- سنسهر الليلة بملهى Mon amour الليلي بحي Place st.gery بجوار محل caramel للشوكولاتة.

أومأت برأسي دليلاً على معرفة المكان.

- حسناً نلتقي في المساء.

نهضت من على الطاولة، تناولت حقيبتي ثم ارتديت نظارتي الشمسية.

و غادرت المقهى مرتدية قبعتي الجلدية لتقيني ذلك الجو العاصف.

استقلت سيارتي المستعملة ماركة Ford mondeo موديل ٢٠٠٢ في طريقني إلى عملي حيث أعمل مساعدة مهندس ديكور بالأفلام الإباحية.

نعم بالأفلام الإباحية وأرجو ألا يخطئ الجميع بفهمي فهو عمل كأي عمل آخر الغرض الرئيسي منه هو الربح وما دمت أربح مالا فما هو المانع ولا يهمني ذلك في شيء ما دمت أعمل خلف الكاميرا الوضع لا يختلف كثيرا عن صناعة الأفلام السينمائية كما أنه المتاح أمامي ويؤمن لي تغطية نفقاتي الشخصية وإيجار الشقة فما الضير من ذلك خاصة إن كنت أعمل مع مسيو (راني) ذلك الرجل البلجيكي الأصلع بوجهه الذي يشبه حبة الكمثرى وشاربه الصغير كشارب شارلي شابلن وأسنانه التي سقط معظمها، خفيف الظل لكنه أيضا حاد الطباع تعرفت عليه ذات مرة في إحدى الملاهي الليلية عن طريق أحد الزملاء، تحدثنا كثيرا علمت أنه يعمل مهندسا للديكور في شركة تنتج مثل تلك الأفلام بعد أن تبدد حلمه في اللحاق بقطار الشهرة بهوليوود التي أقسم على ألا يذهب إليها مرة أخرى طوال حياته، أخبرني ذات مرة وهو بين السكر والإفافة إنه بعمر الثلاثين باع كل ما يملك واستدان أيضا من أجل أن يحقق حلمه بالسفر إلى هوليوود وحين وصل إلى هناك صرف كل ما كان يملك لتكون النهاية العمل كممثل صامت في الأفلام الهابطة لجمع ثمن تذكرة العودة إلى بروكسل، عرض عليّ العمل معه كمساعدة بعد رحيل المساعد الخاص به، وافقت فورا فأنا بحاجة للمال، كما علمت أيضا أنه مثلي الجنس يعيش مع والدته التي تعاني من الزهايمر بعد أن توفي والده غاضبا عليه بسبب اعترافه بميوله الجنسية ولكن ذلك لم يعنه فوالده بالنسبة له رجل غريب لا تربطه به أدنى مشاعر حب، هذا الرجل الذي انتهك حرمة طفولته ووضعه داخل أحضان غريبة هتكت عرضه، وللحقيقة تلك الميول أراحتني نفسيا وكانت سببا في قبول العمل كمساعدة له بمعنى لن تكون هناك أدنى مشاعر جنسية أو حب بيننا وهذا ما جعلني مرتاحة أكثر بالعمل معه، كان الطريق إلى محل عملي طويل نسبيا، السماء تغلفها السحب الرمادية التي تحجب شمس النهار خلفها محملة بمخزون موسمي من مياه الأمطار، الرياح تتلاعب بالأشجار وكأنها تتراقص على عزف تلك المقطوعة الطبيعية، طفقت السحب تلقي بحملها

على الأرض لتغسل تلك القلوب والأرواح المرهقة، أخيراً وصلت إلى العنوان بعد عناء القيادة لمدة ساعة كاملة بذلك الطريق الزراعي، ترجلت من السيارة حاملة حقيتي الجلدية بعد أن أغلقت باب السيارة وأسرعت أعود لداخل تلك الفيلا بذلك الحي الراقي الذي يقع جنوب مدينة توبروكسل لأتقي شر تلك العاصفة الترابية العاتية القادمة من بعيد، عبرت من بوابة سور الفيلا الحديدية لتستقبلني مساحة شاسعة عبارة عن ساحة واسعة تزينها النباتات والشجيرات القصيرة المقصوصة بشكل مخروطي يتوسطها حمام سباحة على شكل دائرة وفي نهايتها تلك الفيلا المبنية من طابقين يحيط بها سور قصير تنمو عليه أشجار اللباب.

دلفت إلى الداخل، كان الجميع منهمكا في عمله، من الواضح أنني تأخرت قليلاً، فها هو مخرج العمل ينفرد بذلك البطل عار الجسد إلا من رداء قطني أبيض اللون يلتف حول خصره يمتلئ ذراعه الأيسر بالوشوم غريبة الشكل المتداخلة وسلسلة معدنية تلتف حول عنقه، وسيم بعيون مكحلة وأنف مثقوب يزينه قرط فضي ذو خصر منحوت تبرز منه العضلات مع مؤخرة بارزة بعيون زرقاء لامعة وشعر طويل أسود اللون يعقده على هيئة ذيل حصان، كان من الواضح أنه يعيد معه خطوات المشهد القادم، أما تلك الممثلة قصيرة الشعر التي تجلس على الأريكة تمسك بمرأة صغيرة تضع لنفسها مساحيق التجميل بألوان صارخة وجسدها العاري يشي بأنوثة متفجرة بالبوتكس والسيلكون، فإذا نظرت إلى ثدييها الرجراجين كقطعتي بالون منتفخ على آخره تتوسطها حلمتان منتصبتان بلون الكرز أما المؤخرة فحدث ولا حرج منتفخة ذات بروز عرضي تترجرج كقطعة هلام في طريقها للذوبان، وذلك القرط الفضّي الذي يخترق سرتها البارزة. سرت بطريقي نحو السيد راني الذي كان يعمل على إعداد الديكور الخاص بالمشهد.

ما إن شاهدني السيد راني حتى رمقني بنظرة عتاب ثم أشار بإصبعه إلى ساعة يده بمعنى أنني تأخرت على العمل ولكن بعد التوسلات وسيل من القبلات والاعتذارات رق قلبه.

شرعت أعد معه مستلزمات المشهد من ديكور كالأريكة وخلفية الحائط المزينة باللوحات الإغريقية القديمة التي تعج بالأجساد العارية المتداخلة التي يحوطها كيوبيد إله الحب يلقي بسهامه نحو القلوب العاشقة بجسده الضئيل العاري وملامحة الطفولية، مع بعض الأنتيكات البسيطة من التماثيل اليونانية.

انتهينا من وضع الديكورات ليستعد مخرج العمل والممثلين لبدء التصوير.

لم أنتظر كثيرا للمشاهدة.. أخذت ما تبقى لي من أجر من مسيو راني وغادرت متوجهة إلى شقتي بشارع caracas.

كانت الشقة صغيرة نسبيا مكونة من حجرة معيشة صغيرة وممر ضيق يوصلك لحجرتي نوم وحمام ومطبخ منفصلين، يغلب عليها الطابع الأوروبي الحديث حيث الأثاث البسيط الخالي من التكلف، حجرة معيشة مكونة من أريكة كبيرة اشتريتها من إحدى المزادات يقال إنها تعود إلى الملك لويس التاسع بإطار ذهبي ومطرزة باللون الأحمر، وفي مقابلها مكتبة خشبية صغيرة بها بعض من الكتب والروايات لمشاهير الكتاب مثل أجاثا كريستي التي أعشق كتاباتها ورواياتها البوليسية التي غالبا ما تدور حول جريمة متكاملة الأطراف يصعب حل لغزها وديستوفسكي وجورج أورويل يتوسطها تلفاز ست عشرة بوصة وفي أقصى اليسار طاولة زجاجية دائرية تسع لثلاثة أفراد مخصصة للطعام، أما غرفتي النوم تحتويان على سرير خشبي مسطح مع شماعة دائرية وخزانة للملابس، الشقة بأكملها مطلية باللون الأبيض المريح للنفس، أما إذا ما وقفت بالشرفة ستجدها تطل على متحف هيرجي، متحف مدهش بحق

وهو من أهم معالم بروكسل، قد لا تنعم بحياتك فيها دون زيارة هذا المتحف خصوصا إذا كنت من محبي الفنون، توجد بالمتحف مجموعة كبيرة جدا من الصور الفوتوغرافية التي ترسم حياة العقل المدبر والوثائق المتنوعة التي كان وراءها tan tan، يقدم المتحف الأمور المتعلقة بحياة tan tan من مغامرات وغيرها والتي يقلدها كثير من الزوار المقيمين بصفة خاصة في tan tan، يوجد المتحف على بعد ثلاثين دقيقة من وسط مدينة بروكسل.

دلفت إلى داخل الشقة فوجدت أدريان منبطحا على وجهه على الأريكة وصوت غطيظه عالٍ جدا، ملامح وجهه وهو منفرج الفم يسيل لعبه مغمض العينين تدل على بلاهة واضحة، يترنح ذراعه الأيمن كبندول الساعة وبجوار الأريكة زجاجة براندي فارغة، تغير أدريان كثيرا فجسده النحيل الذي تراه أمامي ليس ذلك الجسد المفعم بالطاقة، شعره الأشعث، سوء مظهره، عيناه الزرقاوتان كتجويف فارغ أصبح جسدا انطفأت به جذوة الروح.

تأملت ذلك الوجه التعيس وأنا أشعر بحسرة تمزق روحي على هذا الحظ العثر الذي أوقعني في إنسان تعيس مثله، صدق جلبرت حين قال إنها علاقة فاشلة نهايتها الوجد، خلعت حذائي الجلدي أبيض اللون لأصبح حافية القدمين ثم سرت بخطى حذرة على أطراف أصابعي كراقصة باليه محترفة خشية إيقاظه لأنه إذا أفاق ستحدث الطامة الكبرى ولن تنتهي الليلة بدون شجار وأنا لست في مزاج جيد لتحمل كل ذلك فأنا على أتم استعداد أن أطوح به من الشرفة وأتخلص من همه.

دلفت إلى الشرفة فكان الهواء باردا صفع وجهي بلطف، تناولت دلو الماء ثم سقيت به نبتتي المفضلة ذات الزهور البيضاء الصغيرة، كم أحبها كثيرا تشبهني إلى حد كبير جلبتها من أمريكا الشمالية خصيصا منذ شهور أعاملها كأنها طفلي المدللة، غادرت الشرفة متوجهة إلى الحمام، خلعت كل ملابسني لتستقر كل قطعة بمكان، أدت محبس الماء لتنهمر

المياه الدافئة وتملأ حوض الاستحمام بزخاتها المتناثرة التي تبعث الراحة بالنفس، سكبت بعضا من عطري الخاص، ثم غصت بكامل جسدي في حوض الاستحمام حتى داعبت المياه كل شبر في جسدي جعلتني مستسلمة لذلك الشعور المحبب إلى قلبي بالراحة والاسترخاء حيث أبخرة المياه تطفو فوق جسدي تدغدغ مسامه بنعومة، أغمضت عيني ثم وضعت سماعات الأذن وأدرت الهاتف على مشغل الموسيقى، بقيت على تلك الحالة ما يقرب من ساعة حتى بردت المياه، نهضت من الحوض أقطر عرقا باردا، تناولت شرشفا أبيض اللون من على الشماعة غطيت به جسدي، عرجت على غرفة المطبخ وأعددت شطيرة زبدة فول سوداني التي أحبها.

تناولتها بشهية مفتوحة فأنا لم أضع الطعام داخل جوفي منذ الصباح ثم توجهت إلى حجرة نومي الحبيبة بسريرها الوردي الذي يتوسطها وجدرانها المطلية باللون الأبيض.. غرفة عادية أيضا غير متكلفة كباقي الشقة مجرد سرير ومرآة مثبتة على الحائط اقتنيتها من مزاد، تركت لجسدي العنان لأرتطم برفق على الفراش، احتضنت وسادتي القطنية الصغيرة مستسلمة إلى سلطان النوم الذي أثقل جفوني وأخذني في غياهب عالمه الغريب حيث ينتظرني فارس الأحلام أو ملاك الموت.

نهضت من نومي في تمام الساعة التاسعة مساء، كان رأسي يؤلمني بشدة ففتحت درج الكومود وأخرجت شريط حبوب مسكنة أحمر اللون تناولت حبة منه وبلعتها برشفة ماء، شعرت بالعطش مازال يراود شفاهي لشرب المزيد، دلفت إلى المطبخ لأشرب الماء فوجدت رسالة معلقة على باب الثلاجة مكتوب بها: عندي موعد هام ولن أعود قبل غد.. أدريان.

أمسكت بالورقة ومزقتها قطعا صغيرة تناثرت على أرضية الغرفة.

- تبا لك أدريان وتبا لمن تقبل العيش معك أيها الأبله الفاشل.

عدت مرة أخرى إلى غرفتي لأتجهز لسهرة الليلة، فتحت خزانة الملابس ألقيت نظرة سريعة على الملابس المعلقة بها ترددت في البداية بين عدة فساتين أيهم مناسب للسهرة لكن بالنهاية قررت انتقاء ذلك الفستان الأحمر اللامع بفتحة من الجانب تصل إلى الركبة، ارتديته وجلست أمام المراة أضع مساحيق التجميل على وجهي، اخترته صارخا بألوان داكنة بما يتناسب مع الفستان ولون شعري وحتى تكتمل أناقتي ارتديت حذاء أسود اللون بكعب عال، ألقيت نظرة أخيرة على مظهري الفاتن، غادرت الشقة في طريقي إلى ملهى Mon amor الليلي .

ملهى Mon amor الليلي.

خطوت إلى داخل الملهى بعد أن ركنت سيارتي بالخارج على الجهة المقابلة من الملهى.

كان الملهى يعج بالشباب الوافدين من مختلف الأشكال والجنسيات والثقافات المتنوعة والمذاهب الثقافية والدينية المتعددة، كان البعض يتمايل على أنغام موسيقى البوب الصادرة نحو تموجات الإضاءة المختلفة، هبطت درجات السلم الثلاثة، كان البعض يجلس على البار يتناول المشروبات الروحية بانتشاء والبعض الآخر في عالم آخر من النشوة واللذة الجنسية، لا تعلم الفتاة من الشاب، الأجساد تلتصق ببعضها، تلمست طريقي في وسط ذلك الزخم الكبير مع تغيرات الإضاءة أصابتنى بدوار خفيف، وقفت أتلفت على جلبرت ومارلي فلم أجدهم، أخرجت الهاتف ثم اتصلت على رقم جلبرت.

- أين أنتم؟؟

قلت له.

- نحن على البار، ثواني لقد رأيته، ها أنا ألوح لك بذراعي.

- حسنا رأيته أنا الأخرى.

اغلقت الهاتف ثم توجهت لهم أخترق تلك الجموع.

كان جلبرت ومارلي وكانت تجلس بجانب كل منهما فتاة ترتدي فستانا أسودا ضيقا إلى ما فوق الركبة تضع أحمر شفاه أسود اللون مع قرط فضي يخترق جانب أنفها وعلى كتفها وشم جمجمة، كانت تدعى سارا، أما الأخرى فكانت ترتدي بنطالا جينز أزرقا مع تي شيرت أبيض تشبه كثيرا الممثلة جوليا روبرتس وللصدفة أنها كانت تدعى جوليا أيضا.

ألقيت عليهم التحية ثم جلست على كرسي بجوار جلبرت، طلبت من النادل كأس فودكا بالليمون تجرعه مره واحدة ليسرى داخلي ذلك الشعور اللذيذ الذي يدغدغ كل ذرة بجسدي انتشاء لذيذ يجعل روحي تطفو في سماء السعادة، تبعته بكأس ثان وثالث ومع كل كأس كان شعور الانتشاء الجميل يعلو وكانت روحي تحلق عاليا فوق السحاب تسابق الريح حتى وصل الأدرينالين إلى أعلى مستوياته، إذن حان وقت الاحتفال، لم أستطع تمالك رغبة جسدي الملحة خاصة مع هذه الموسيقى الصاخبة التي صدحت فجأة ليهزول الجميع نحو المنصة يتراقصون ويتميلون بجنون مفعم بالطاقة تارة وهدوء مطعم بالرومانسية تارة أخرى، لم أتردد للحظة واحدة قمت.

جذبت يد مارلي متجهة نحو منصة الرقص وأنا أتمايل بجسدي كالأفعى، وضعت يده على خصري بينما عانقت رقبتة بذراعي ورقصنا سويا Slow على وقع أغنية one forever ثم فجأة تحولت الموسيقى إلى صاخبة رجرت المكان بأكمله، لم أتمالك جسدي وقتها وكأن كل الخلايا العصبية خرجت خارج السيطرة كل خلية وكل شبر يرقص ويتميل على وقع تلك الأنغام، قلبي يرقص، روحي تحلق في سماء المتعة لم أكثرث بمن حولي وكأني وجدت الفرصة السانحة لطفح ما بداخلي من كبت ومشاعر سلبية، وددت لو أصرخ عاليا وأظل أصرخ حتى ينقطع

صوتي، جسدي يلتصق بجسد مارلي، شعرت بسخونة شديدة تلتهب بجسدي اقتربت بوجهي منه حتى تلامست شفاهنا، ذلك الشعور المثير ولملمس الشفاه الناعمة يدغدغ مسام جسدي، كانت قبلة سريعة ثم عدت أففز وأتمايل مرة أخرى، عادت الموسيقى هادئة مرة أخرى، حينها أبعدت جسدي عن مارلي متوجهة إلى أقرب طاولة جلست عليها حتى هدأت دقات قلبي وجف عرقي، شعرت بتأنيب الضمير على ما حدث منذ قليل مع مارلي، لكنني تجاهلت ذلك سريعاً، انتشلني من كل ذلك صوت رنين المكالمات الصوتية الخاصة بـ whatsapp، كان رقم سليم زوج أختي.

تعجبت في بادئ الأمر فهذه المرة الأولى التي يهاتفني بها من على رقمه الخاص وليس رقم فريدة، كما مر الكثير من الوقت على آخر مرة تحدثنا بها، تجاهلت الرد في أول مرة ولكن مع المرة الثانية شعرت أن الأمر هام.

غادرت الملهى متوجهه إلى الخارج حتى أستطيع سماعه جيداً بعيداً عن صخب القاعة بالداخل.

استقبلتني زخات المطر المنهمرة على الطرقات تجاوزت الطريق بخفة عصفور حتى الجهة المقابلة للملهى، استندت بظهري على سيارتي، ثم ضغطت زر الرد.

دار بيننا الحوار التالي:

- مساء الخير ليلى، كيف حالك؟؟

قال لي بصوت تشوبه نبرة حزن.

- بخير الحمدلله، هل هناك خطب ما يجعلك تتصل بهذا الوقت المتأخر؟؟

قلت له متسائلة.

- بصراحة يا ليلي لا أعلم كيف أخبرك بالأمر، لكن الوضع يستدعي معرفتك.

شعرت بالقلق وتسارعت انفاسي فقلت:

- تحدث يا سليم هل حدث مكروه لفريدة أو ابنها؟؟

- عذرا ليلي لكني لا أسمعك جيدا، هناك أصوات رياح عاتية.

قال لي بصوت عال، لا أعلم لماذا يتحدث الناس بصوت عال حين لا يسمعون الآخرين جيدا.

- اه حسنا لحظة واحدة.

قلت له بصوت عال ثم دلفت داخل السيارة وأغلقت الباب.

- سليم، أنت معي؟ هل تسمع هكذا؟؟

- نعم ليلي أسمعك هكذا جيدا.

- أخبرني ما الأمر؟ فكلامك أثار قلقي وخوفي!

قلت له بصوت وأنا أحاول كبح جماح أنفاسي نبضات قلبي، فأردف قائلا:

- وليد بخير ليس به شيء، لكن فريدة هي من ليست على ما يرام.

شعرت بانقباضة تعتصر قلبي قائلة بصوت متهدج وأنفاس متقطعة:

- أرجوك سليم لا تحطم أعصابي أكثر من ذلك وأخبرني ماذا بها هل حدث لها مكروه؟؟

صمت قليلا ثم أردف قائلا بصوت يشوبه الحزن:

- لقد كانت تشتكي من ألم شديد بمؤخرة رأسها منذ شهر تقريبا لم نهتم بالأمر واعتبرناه تعب عابر ولكن عندما استمر الأمر بل وزاد يوما بعد يوم حتى إنها فقدت وعيها أكثر من مرة توجهنا إلى الطبيب الذي طلب منا عمل أشعة وبعدها اتضح لنا أنها تعاني من ورم بالمخ وبعد الأشعة والتحليل اتضح أنه خبيث وليس حميد.

شعرت وكأن كل جبال العالم سقطت فوق قلبي.

- يا إلهي سرطان!! فريدة كيف ذلك لقد كانت بخير بآخر مرة تحدثنا بها!

- هذا ما حدث، أعتقد أنها بتلك الفترة بحاجة إلى دعمنا جميعا وأن نكون بجوارها هذه الفترة، ليلي فريدة بحاجة إليك أكثر من أي وقت مضى ولكن.....

قال لي، فأسرعت:

- ولكن ماذا يا سليم؟

- فريدة لا تعلم شيئا عن ذلك فقد اتفقت مع الطبيب على إخبارها بأنه ورم عادي وسيزول بالأدوية خوفا من أن تتدهور حالتها النفسية، أنت تعلمين أنها تعاني من فوبيا المرض.

- حسنا سليم، سأكون عندك في أقرب وقت، اهتم بها يا سليم ولا تتركها حتى أعود إلى مصر على أول طائرة تطلع...

من ثم أردفت قائلة:

- سليم من فضلك أرسل لي صور الأشعة والتحليل لأعرضها على طبيب مختص هنا.

- حسنا ليلي، سأرسلها لك في أقرب وقت.

أغلقت الهاتف مع سليم، وضعته جانبا ثم استندت برأسي للخلف على المقعد، دموع تنهمر من مقلتي لا أعلم لها مصدرا، وضعت وجهي بين راحتي يدي، لم كل ذلك الحزن يا ليلي؟ هل إذا أصبحت أنت محل فريدة هل كانت ستحزن عليك بتلك الطريقة؟ منذ متى تهتم فريدة لأمر؟ منذ متى تعاملت كأخت أو حتى كصديقة؟ هكذا حدثتني نفسي، لا يا ليلي مهما حدث قبلا فهي أختك وبحاجة لك من يعلم قد تكون تلك المحنة هي من تعيد المياه إلى مجاريها وتصلح ما أفسده الدهر، تناولت محرما ورقيا من علبة المحارم الورقية، فجأة شعرت بدوار شديد يكتنف رأسي مع طرق منتظم في مؤخرتها ورغبة شديدة في التقيؤ، بالفعل لم أستطع تمالك حركة معدتي غير المنتظمة، أسرعت خارج السيارة، انحنيت برأسي للأسفل على جانب الطريق لأفرغ ما بها على رصيف شعرت معها أن روحي تكاد تقتلع من جذورها لكنني شعرت بارتياح نسبي بالنهاية، ما أخبرني به سليم كان قاسيا جدا، مهما كانت الخلافات القديمة بيننا فهي أختي وما يؤلمها يؤلمني.

لم أعد أشعر برغبة في تكملة السهرة مع أصدقائي، بل ليست لي رغبة في العودة للداخل، لم أنتظر حتى أخبرهم بذلك صعدت سيارتي لا أعلم إلى أين أذهب طفت بين شوارع بروكسل، لكنني بنهاية المطاف، عدت إلى الشقة، صعدت البناية أجر أقدامي المنهكة، أستند على السور الحديدي للسلم، كادت أن تنزلق قدمي لولا أن تماسكت جيدا، وصلت امام الشقة، أخرجت المفتاح من حقيبتي الجلدية ثم أولجته برتاج الباب أدركته لفتين ثم دفعته للداخل، دلفت إلى داخل الشقة كانت مظلمة ضغطت على مقبس الإنارة فأضاءت غرفة المعيشة، جلست على كرسيي الخشبي الهزاز الملاصق للشرفة، أخرجت علبة سجائري من الحقيبة أشعلت إحداها أنفث جام توترتي واضطرابي بها، ما العمل؟؟ لا بد من السفر إلى القاهرة لأكون بجوار شقيقتي الوحيدة في تلك المرحلة الحرجة، رفعت سماعة الهاتف الأرضي الموضوع على الطاولة المقابلة لي.

ثم هاتفت شركة الطيران، حجزت مقعد على متن أول رحلة مغادرة للقاهرة والتي كانت بعد غد، أعدت الساعة إلى مكانها مرة أخرى، لحظات وصدق صوت نغمة رسائل البريد الصوتي، كانت صور لأشعة وتحاليل فريدة أرسلها سليم كما طلبت منه، بالغد سأذهب بها للطبيب نوح، أرحت رأسي للخلف مطلقة زفيراً حاراً تتصاعد معه أبخرة دخان السجارة ومعها ذكريات طففت على ذهني ذكريات تمنيت لو وأدتها ودفنتها في مقبرة النسيان ولكنها عادت مرة أخرى تطفو على سطح ذاكرتي من جديد....

الزمان: الثالث والعشرون من نوفمبر ٢٠١٣.

استيقظت في صباح اليوم التالي على نفس وضعية جلوسي على الكرسي بالأمس لم أشعر بنفسي، حاولت النهوض شعرت بأن كل عضلة في جسدي تنن وتطلب الراحة حركت عنقي يمنة ويسرة مصدرة طقطقة خافتة، تحاملت على نفسي متوجهة إلى غرفتي، أدريان لم يعد منذ أمس ولم أعطِ بالاً للأمر، فالأمر أسخف من أن أفكر به، أمسكت هاتفي المحمول لأهاتفه لكنني تراجعت بالنهاية، أخذت حمامي الصباحي الدافئ وأبدلت ملابسني ثم غادرت الشقة متوجهة إلى البنك لأقوم ببعض المعاملات المالية، أنهيت ما ذهبت لأجله وهو سحب مبلغ من حسابي الشخصي، عرجت على أحد المقاهي فتناولت قهوتي الصباحية، أرسلت رسالة نصية لمسيو راني أخبره بعدم قدومي اليوم للعمل، ثم ذهبت إلى الأكاديمية لتأجيل دراستي، دلفت إلى غرفة العميد وأخبرته بالوضع، ثم قمت بالإمضاء على ورقة تفيد بتأجيل الدراسة لحين عودتي، قبل أن أغادر الأكاديمية دلفت إلى دورة المياه الخاصة بالفتيات، بينما أنا بالداخل سمعت صوت طرق شديد على الباب.

- من بالخارج؟؟

لم يصلني أدنى رد، فجأة اختفت الأصوات، أخرجت زفيراً لأنفاسي التي سجدت داخل صدري منذ قليل، لحظات وصدحت الأصوات مرة أخرى، أنهيت حمامي ثم سرت بخطى حذرة نحو الباب، أمسكت بالمقبض ثم أدبرته، دفعت الباب للخارج بحذر، نظرت فلم أجد أحداً، خرجت بعد أن اطمئن قلبي، قبل أن أغادر دورة المياه بأكملها جذبي أحدهم من شعري للخلف، صرخت أحاول التملص من تلك اليد الخشنة التي تقبض على خصلات شعري، أحاول إفلات قبضتها لكن لا فائدة، فجأة ارتطم رأسي بالحائط نظرت خلفي فلم أجد أحداً، بينما أنا هكذا سمعت صوتاً يشبه نقيق الضفادع يخترق طبلة أذني وأنفاس ساخنة تلهب وجنتي، تملكني الخوف والذعر، خائفة من النظر إلى الأمام لأنني متأكدة من وجود أحدهم أمامي، بحركة بطيئة أدت وجهي، وجدتها هي سارا زميلتي بالأكاديمية تلك الفتاة السمراء الفرنسية.

- ماذا بك يا Lily؟ تصرخين هكذا! ولماذا تجلسين هنا؟؟

أصابتنى الصدمة، تلفت بالمكان فلم أجد سواها، تناولت حقيبتني من على الأرض ثم أسرعت مهولة للخارج دون أن أحدثها.

عدت إلى الشقة سريعاً وأنا مازلت في حالة من الذعر، دلفت إلى الداخل، وجدت أدريان بالشقة وكالعادة هو في حالة سكر ولكن ليست تلك المشكلة، الأدهى أنني وجدته بغرفتي نائماً بأحضان فتاة تشبه عبدة الشيطان، من هؤلاء الفتيات التي تضع مساحيق تجميل بألوان داكنة وجسدها العاري المغطى بالوشوم الغريبة تخترق شففتيها حلقات معدنية صغيرة لديها أعلى جبهتها ما يشبه القرنين، كان صوت غطيطة المزعج يثير غضبي، اقتربت منه باشمئزاز، ثم دفعت جسده العاري بكل قوتي حتى سقط أرضاً، استيقظ فزعا وهو يفرك جفونه:

- ماذا هناك؟؟

قالها بصوت متحشرج وجفون منفتحة على مصراعيها من المفاجأة.

- ماذا هناك؟؟ أنت ما الذي تفعله مع تلك الساقطة؟؟ إن كنت تريد أن تقضي وقتا مع إحداهن فهناك ببيوت الدعارة التي تعج بأمثالك وأمثالها.. قلت له وأنا أشير نحوهما بطرف إصبعي وعلى وجهي ترتسم ملامح التقرز.

نهض أدريان منتصبا يهرش في مؤخرة رأسه وكأنه لم يسمع شيئا، ثم توجه إلى الخارج، سرت خلفه وغضبي قد وصل إلى أقصى درجاته، جذبتنه من ذراعه.

- توقف هنا، ليكن بعلمك أنني مسافرة إلى القاهرة بعد غد، ولعلمك أيضا أنا لن أدفع إيجار الشقة مجددا ولتجد بلهاء أخرى غيري تسدد لك نفقاتك وديونك، ابحث عن عمل تنفق به على نفسك بدلا من التسكع على الحوانيت ومرافقة البغايا!

قلت له بصوت مرتفع، لكن الحقيقة أنني قمت بدفع إيجار شهر قادم لصاحب البناية.

- كيف ذلك يا ليلي! وحي لك بتلك البساطة تتركيني، أرجوك لا تتركيني أنا أحبك!

قال لي يتوسل وهو يجثو على ركبتيه قابضا على يدي.

- أدريان لا تلعب على ذلك الوتر، تعلم جيدا أن تلك العبارات الواهية التي تقولها لن تغير من الأمر شيئا، لقد علمت بالأمس أن أختي الوحيدة مريضة ولا بد أن أكون بجوارها هذه الفترة.

أمسك بذراعي يجذبني تجاهه، حاولت أن أفلت من قبضته ولكني لم أستطع.

- اترك ذراعي يا أدريان أنت تؤلمني، هل جننت أم أن الخمر أطاحت بعقلك أيها السكير!!

- لن أتركك أنت ملكي أنا وحدي، لن يأخذك أحد مني.

قال لي بصوت خافت بلسان متلعثم.

- أنا لست ملكا لأحد يا أدريان!

حاول أن يقبلني عنوة ولكني استطعت أن أفلت من قبضته هذه المرة بعد أن شممت رائحة الخمر تفوح من فمه، تراجعت بعيدا عنه وأنا أتأفف منه.

- ابتعد عني أيها المخمور! واعلم جيدا أنني لن أعود إليك مرة أخرى، لقد سئمت منك يا أدريان ومن حياتي معك!!

أمسك أدريان المزهريّة التي بجواره وحاول أن يرميني بها إلا أنه لم يحسن التصويب لترتطم بالجدار وتتناثر أشلاؤها على الأرض، ثم عاد مترنحا إلى الغرفة الأخرى وصفق الباب وراءه.

كنت أعلم أن علاقتي بأدريان علاقه حب مريضة، بل إنني لا أعلم هل ما بيني وبينه حب أم مجرد علاقة سد خانة، لكن الحقيقة أنني شعرت براحة شديدة الآن وكأني تخلصت من طوق كان يلتف حول عنقي ويضيق الخناق عليه.

دلفت إلى داخل غرفتي، سحبت حقيبة سفري من أسفل السرير وتلك العاهرة مازالت مسطحة فوقه، لملمت كل ملابسي ومتعلقاتي الشخصية، بعد أن انتهيت جلست على طرف السرير أقلب في هاتفي، صادفتني تلك الصور التي تجمعني بفريدة ونحن صغار، كانت دائما الابنة المفضلة النجيبة الذكية صاحبة الأخلاق على الرغم من خلافاتي الدائمة معها إلا أنني لم أكرهها يوما، لا أنكر أنني كنت أبغضها في بعض الأحيان بل

وكننت أتمنى لو لم تخلق ولم تأتِ إلى الدنيا عليّ أحظى ببعض الاهتمام والمحبة التي حظيت هي بها سواء من جهة الوالد أو الوالدة فأنا دوماً المشاغبة المزعجة الفاشلة المغضوب عليها، لكنني صدقا حزنت عليها عندما أخبرني سليم بمرضها فهي أختي الوحيدة بالنهاية ولا بد أن أكون بجانبها حتى تمر تلك المرحلة الصعبة، ثم عدت بذاكرتي إلى اللحظة الحالية ألقيت الهاتف على الفراش، ثم صفعت تلك العاهرة على مؤخرتها لتستيقظ فزعة دفعتها خارج الغرفة بعد أن ألقيت بملابسها، ثم أغلقت الباب ونمت بجوار أدریان.

مقطع خارج النص.

مولينبيك ذلك الحي الذي يقع غرب الجزء القديم لمدينة بروكسل Porte de Flandre بالهولندية Vlaamsepoort والذي يفصله عنها قناة شارلوا وتحدها (من الشمال تجاه الجنوب) كل من بلديات سنت أغاثا-بيرخيم، وكوكليبيرخ، وجيتي، وبروكسل، ولكن، وأندرليخت، وفي الغرب الأقصى بلدية ديلبيك الفلمنكية، مولينبيك كلمة مشتقة من جزئيين molen وتعني جدول، beek وتعني طاحونة باللغة الهولندية أي معناها جدول الطاحونة، تعتبر من أكثر المناطق فقرا وتطرفا في بلجيكا، تضم خليطا متنوعا من الأعراق والأجناس ما بين فرنسي وهولندي وعربي، بالأخص المهاجرين الذين هاجروا من المغرب وتركيا وبالأونة الأخيرة سوريا، كانت الساعة قد تخطت الواحدة بعد منتصف الليل بتوقيت غرينتش، كانت ليلة قمرية يسطع قمرها بكامل أناقته، دلف خوليو إلى ذلك الحي الفقير الذي يغلب عليه الطابع الهولندي القديم بمبانيه القديمة المتهدمة، كان يرتدي معطفا صوفيا أسود اللون وقبعة جلدية تقيه برودة الشتاء يحكم قبضة يده اليسرى على طرفي المعطف وباليد الأخرى يحمل كيسا بلاستيكيًا به وجبة العشاء التي سيتناولها بعد ذلك اليوم الشاق

ما بين العمل صباحا بمقهى mento ثم الذهاب إلى الجامعة ومن الجامعة إلى بار montcarlo حيث يعمل barman به ليعود مساء بعد أن أنهكت قواه تماما، خالد شاب سوري يمتلك جسدا ممشوقا فارح الطول بعيون زرقاء مكحلة، أنف دقيق وشعر يميل إلى اللون البني ببشرة بيضاء، نزح إلى بلجيكا بعد أن دمرت قريته بالكامل، مازال يتذكر جدا كيف فقد جميع أفراد عائلته بالحرب، كان ذلك بيوم لم تطلع عليه شمس، شاب طموح يعشق الحياة يتطلع أن يصبح ذات يوم طبيب أسنان بارع يستطيع أن يحسن من وضع عائلته البسيطة ويريح والده، ذلك المزارع البسيط التي تشققت كفيه من كثرة مسك المعول وأكسبته الشمس التي يقف تحتها لونا برونزيا، جاهد كثيرا ليلتحق بجامعة دمشق، كان عائدا من الجامعة في طريقه إلى قريته الحبيبة القسطل بريف دمشق التي تشتهر بزهور السوسن الجميلة، في يومها كان يشعر بغصة غريبة تنتاب قلبه لا يعلم مصدرها، منذ بدء الحرب السورية وكل يوم هناك شهيد، يعلم ذلك جيدا الأوضاع أصبحت شديدة القسوة برغم من كل ذلك لم يفكر يوما أن يصير حاله حال تلك العائلات التي فقدت أفرادها، كان بالطريق عندما استقبلته تلك الأبخرة الرمادية المتصاعدة التي تملأ صفحة السماء، خفق قلبه بشدة، هرول مسرعا بين المزارع، أين البيوت؟؟ أين المنازل؟؟ كلها مهدمة لا حياة بها، زهور السوسن أصبحت دامية تقطر دما، ما تبقى من بشر ومن نجا بأعجوبة من تلك الغارة الجوية يعبث بركام المنازل بعضه يجد ذراعا وآخر يجد أشلاء، لا صوت لا حياة مجرد صور بطيئة تمر أمام عينيه، بالكاد يستطيع أن تحمله قدماء، طبول قلبه تدق بقوة، سار حتى وصل أمام منزله، أين هو المنزل؟؟ لم يجد أمامه سوى ركام كان من قبل منزلا، لم يستطع أن يتحمل انكفاً على ركبتيه ودموع متحجرة بين جفونه، كانت تلك مجزرة قرية القسطل التي راح ضحيتها ما يقرب من ألفي روح من بينهما والديه وشقيقه الأصغر، نزح مع من نزح من أهالي القرية، بأعجوبة استطاع أن يفر بروحه، شاهد الكثير من الأهوال وتعرض للموت أكثر

من مرة حتى استقر به المطاف هنا منذ عام بعد أن لجأ إلى سلوفاكيا ثم
المجر حتى استقر ببروكسل، وبعد جهد جهيد استطاع أن يكمل دراسته
الجامعية مرة أخرى اعتمادا على العمل والمعونة الضئيلة التي تصرفها
للأجئيين العرب، ها قد وصل أخيرا إلى وجهته المنشودة، بنسيون مدام
.monika

عبارة عن منزل قديم الطراز ورثته العجوز مونيك ذات الثمانين ربيعا
من زوجها بعد وفاته فقررت أن تحيله إلى بنسيون لتشعر بدفء الأسرة
خاصة أنها لم تنجب وليس لها ولد وفي ذات الوقت يدر عليها دخلا
إضافيا، منزل لا يسكن به سوى سيئي الحظ أمثاله، والمتشردين، بسبب
أجرته المخفضة، والحق يقال هو لا يستحق أكثر من ذلك نظرا لأساساته
القديمة التي توشك على الانهيار، بشقوق الطول والعرض التي تشق
طريقها على واجهته، الشق الواحد يسع عائلة من الزواحف، بجانب
مكب النفايات التي بجواره، نادرا ما يتحدث خالد مع أحد النزلاء إلا
حسام شاب مصري ألقى به قطار حلم السفر لأوروبا ليستقر هنا بائعا
بأحد متاجر السلاح.

دلف خالد إلى داخل البنسيون، كانت الردهة خالية لا يسمع سوى صوت
غطيط النزلاء من أصحاب العاهات والفقراء المشردين أمثاله، شعر
بارتياح تقدم على أطراف أنامله نحو السلم الخشبي الذي يفضي إلى
الطابق الثاني حيث غرفته، صعد درجتين ثم تسمر في مكانه حين سمع
صوتها.

- إلى أين أنت ذاهب سيد خوليو؟

لقد وقع في مأزق حقا، أدار رأسه تجاهها راسما ابتسامة بلهاء على
وجهه قائلا:

- مساء الخير مدام مونيك كيف حالك الليلة؟؟

- بخير مسيو خالد أخبرني إلى أين كنت ذاهبا؟؟

- إلى غرفتي.

- غرفتك؟؟ التي لم تدفع أجرتها منذ ثلاثة شهور؟ لقد تحملتك بما يكفي، إلى هنا وكفى!

قالتها بنبرة صوت عالية لا تتناسب مع سنوات عمرها.

- أرجوك مدام مونيكا تحمليني حتى نهاية الشهر فقط وسأسدد لك كل المبلغ.

- حسنا إلى نهاية الشهر بعد ذلك تحمل أغراضك وتغادر لا مكان لك عندي.

قالتها بلهجة حاسمة ثم توجهت إلى غرفتها، صعد خالد الدرج بأقدام مرهقة، سار بتلك الردهة الضيقة ذات الجدران الحجرية المشققة، ثم دلف إلى غرفته الضيقة ذات الجدران الحجرية القديمة والرائحة العطنة، بها سرير معدني عليه فراش بال، وطاولة خشبية بجواره مع خزانة صغيرة يضع بها ملابسها، كانت تعج بالفوضى كغرفة أي شاب أعزب، وضع الطعام على الطاولة لا يشعر بالجوع بعد ما حدث، استلقى على الفراش واضعا ذراعيه أسفل رأسه، يفكر كيف يسدد إيجار الغرفة وإن لم يستطع فإلى أين يذهب، أصبحت الحياة بنظره أضيق من ثقب الإبرة، لحظات مرت وهو على وضعه يكاد عقله ينفجر من التفكير حتى صدح صوت هاتفه، أخرجه من جيب معطفه، كان المتصل رقما غريبا ضغط زر الإجابة قائلا:

?? bonsoir t'es qui -

الزمان: الرابع والعشرون من نوفمبر ٢٠١٣.

الساعة الحادية عشر صباحا بتوقيت جرينيتش.

في اليوم التالي خرجت ألتقي بمارلي وجلبت لأودعهم قبل أن أغادر بروكسل على مقهى بوسط بروكسل، ذلك المقهى الذي يعد أفضل أنواع القهوة السويسرية اللذيذة وأطيب أنواع المخبوزات الفرنسية، جلسنا على طاولة خارج المقهى.

كان من الواضح عليّ الحزن والتوتر فتلك المرة الأولى التي أغادر بها بروكسل منذ سنوات تعلقت بها وأصبحت جزءا مني، ينقصني فقط أن أنال جنسيتها لأصبح فتاة بلجيكية بامتياز، جلسنا بالساحة الخارجية، كان الجو ينذر بهطول أمطار شديدة، إلا أنني أصررت على الجلوس بالخارج، وضع النادل أكواب القهوة وبعض المخبوزات الساخنة ثم غادر، لاحظ مارلي شرودي.

- ماذا بك يا lily من الواضح أنك لست على ما يرام.. هل وقع شجار بينك وبين أدريان؟ أم أنك مريضة؟؟

- أبدا مارلي أنا بخير، أود أن أخبركم أمرا هاما. لكن قبل أي شيء لا بكاء حسنا؟

- ليلي كفي تلاعب بأعصابنا ماذا بك؟؟

قال لي جلبت.

- لقد التقيت بكم اليوم لأخبركم أنني مسافرة غدا إلى القاهرة ومن الممكن أن أظل هناك فترة من الزمن.

- كيف ذلك يا lily بهذه السرعة ولم لم تخبرينا بذلك من قبل؟؟

قالها جلبت بتعجب.

- الأمر جاء فجأة لم يكن لديّ الوقت لإخباركم من قبل، كما تعلمون أن لي أخا بمصر، وهي مريضة جدا الآن، ولابد أن أكون بجوارها تلك الفترة.

- يا إلهي! لا بأس عليها بالطبع يجب أن تكوني بجوارها، أتمنى لها الشفاء من كل قلبي.

قال لي جلبرت، تصنعت الابتسام ثم أردفت قائلة:

- شكرا لك جلبرت، لكن ذلك لن يمنع تواصلنا، يوميا سأتصل بكم دائما عبر what's app، كم سأشتاق لكم، أنتم لستم رفقاء فقط بل أكثر من ذلك بالنسبة لي.

- نحن أيضا سنشتاق لك، ولكن ماذا عن عملك ودراستك، وهل أخبرت أدريان بالأمر؟

قال لي مارلي.

- اتصلت أمس بمسيو راني والدراسة أكملها حين أعود لا مشكلة بذلك أما عن أدريان فقد قطعت كل الخيوط التي تجمعني به أمس تلك علاقة كان لابد أن تنتهي منذ زمن.

حاولت تغيير دفة الحديث، تحدثنا بكل شيء، تذكرنا كل الذكريات التي كانت تجمعنا كأنها المرة الأخيرة التي سنلتقي بها، غادرت المقهى بعد أن ودعت جلبرت ومارلي ووعدتهما بهدايا قيمة من شارع الحسين أو كما يلفظها جلبرت شارع الخوثين، استقليت سيارتي كانت لدي رغبة قوية في زيارة كافة شوارع بروكسل أودعها على أمل لقاء قريب معها، تلك الشوارع التي شهدت أوقات نجاحي وأوقات فشلي، حزني وفرحي، ست سنوات قضيتها بين أحضان تلك المدينة المحببة لقلبي، أخذت جولة سريعة في الميدان الكبير الذي يعد من أهم الأماكن السياحية في بروكسل وأحد أهم مواقع التراث العالمي التابعة لليونسكو يتكون من

العديد من المباني التاريخية المختلفة مثل قاعة المدينة وغيرها، كما مررت على بروكسل تاون هول من أجمل المباني حيث اشترك في بنائه عدد ألف وأربعمائة مهندس، مصمم بشكل تاريخي رائع به أبراج ومنحوتات رائعة، ولأنني من عشاق الفن والتاريخ لم أنس أن أعرج على متحف مارغريت، هذا المتحف الذي يتكون من خمسة طوابق مساحتها واسعة، يزوره ما لا يقل عن ستة آلاف زائر كل عام، سمي بهذا الاسم نسبة إلى الفنان البلجيكي رينيه مارغريت الذي أبدع في فن الرسم برسومات تدل على تأثيره بالثقافة الشعبية من أهمها لوحة باسم ابن الإنسان.

وبعد تلك الجولة العامرة عرجت على حديقة هيسل واتوميوم من أبرز وأجمل الحدائق في بروكسل وتتميز بأنها من أجمل المناطق الترفيهية التي يذهب إليها الزوار للاستجمام كما يوجد بها ملاعب رياضية وترفيهية لاستنشاق هواء بروكسل المنعش الذي لا يخلو من زخات المطر التي تداعب وجهي، عدت إلى الشقة في نهاية اليوم، دلفت إلى الداخل، كانت رائحة السجائر المفخخة تعبئ الشقة بأكملها لدرجة دفعتني لأن أسعل، الإضاءة الخافتة الصادرة من الثريا هي من تعم الشقة توجهت إلى غرفة المعيشة وكالعادة وجدت أدريان مستلقيا على الأريكة عار الصدر يرتدي لباسا قصيرا يستر عورته وأمامه على الطاولة مطفأة السجائر بها العديد من بقايا السجائر التي امتصها وزجاجتي براندي فارغتان مع طبق به بقايا شرائح تفاح فاسدة، أمعنت النظر بوجهه لا أعلم لماذا شعرت بالشفقة عليه هذه المرة، هل لأنني سأغادر أم لأنني اعتدت أنا أصبح المسئولة عنه، توجهت إلى غرفه النوم ثم عدت حاملة غطاء قطنيا، فردته على جسد أدريان فالجو كان باردا، هممت أن أعود إلى غرفتي إلا أن شيء ما أمسك بيدي، نظرت تجاهه فوجدتها يد أدريان ينظر لي بعيون مجعدة شبه مغلقة.

- أحبك يا Lily أرجوك لا تتركيني فأنا بحاجة لك، اغفري لي زلتي على وعد مني أن أغير لكن ابقِ معي حياتي بدونك ليست حياة.

قال لي بصوت دافئ حنون يغلب عليه النحيب، لا أعلم ما الذي دفعني إلى أن أستجيب لتلك المشاعر، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أجتو على ركبتي أداعب خصلات شعره الأسود، لمحت تلك الدموع التي تنسل من بين جفونه المغلقة، برغم كل هفواته ونزواته وحياته الفاشلة إلا أنني كنت أعلم أنه بالفعل بحاجة إليّ فأدريان كالطفل المدلل يحتاج دوماً من يمسك بذراعه ويتحمل أخطائه ويغفر له زلاته، لكنني اكتفيت من لعب دور الحبيبة والعشيقة والأم والأب لك يا أدريان، كل ذلك يرهق مشاعري ويضع عبئاً ثقیلاً فوق روحي لم أعد أستطيع تحمله، أعلم أنك ستفقدني افتقاد الخزينة للأموال، افتقاد الأرض لرفات أحدهم وأنا بحاجة لعلاقة تنبت بداخلي الحياة لا أن تقتلها مني، مهما كنت بحاجة لي هناك على الجانب الآخر من هو أشد احتياجاً، يمد ذراعه، يعلو صوت وجعه بالنداء في انتظار تلبّيته.

احتضنته بين ذراعي لا بأس بذلك إن كانت المرة الأخيرة فلتصبح ذكرى جميلة، تنحى هو جانبا ليفسح مجالا لي لأشاركه الغطاء، استلقيت بجانبه بينما أسند رأسه على ذراعي كطفل صغير يبحث عن الأمان داخل صدر أمه، كنت أعلم أنه بحاجة ماسة لمن يحتضنه على الرغم من أنني عزمته كل العزم على قطع علاقتي به إلا أنني منحتة لحظات أخيرة ليتذكرني بها، غفا على ذراعي بينما أفكر في اللحظات القادمة، لم أكن أعرف أن القدر يرسم لي طريقاً آخر يدفعني نحو الهاوية أو بمعنى أكثر دقة نحو نهايتي.

الفصل الثالث : لقاء غير منظور

(إن كان لشيء أن يحطمك فهذا يعني بأنك محطم منذ البداية... بوب مارلي)

الزمان: الثامن والعشرون من نوفمبر ٢٠١٣.

الساعة السابعة صباحا بتوقيت جرينيتش.

مع إشراقة صباح اليوم التالي انسللت بخفة من جانب أدريان الذي مازال نائما وهو منبطح على بطنه، صوت غطيظه عال، دلفت إلى غرفتي أخذت حماما دافئا، تناولت الملابس التي أعدتها منذ أمس من على الفراش.

حملت حقيبة سفري ثم غادرت الغرفة، ألقيت نظرة أخيرة على كل ركن بالشقة التي شهدت الكثير من أحداث حياتي هنا ببروكسل، أمعنت النظر بأدريان النائم وكأنها المرة الأولى التي أراه بها، تركت الحقيبة ثم توجهت نحو الطاولة تناولت ورقة وقلم وكتبت بها التالي...

(أدريان.. اعلم جيدا أنني أحبيتك في يوم من الأيام، ولن أنسى أبدا ما فعلته لأجلي عندما قدمت إلى بروكسل، كان من الممكن أن تكون علاقتنا أفضل إن كنا بطروف أخرى، تذكر دائما تلك اللحظات الجميلة التي جمعتنا سويا، أتمنى لك حياة سعيدة وحظا موفقا بعمل جديد وحب يمنحك ما لم أستطع أن أمنحه لك، سأفتقدك... Lily).

تركزت الخطاب على الطاولة ثم أخرجت مبلغا ماليا من فئة اليورو وضعتة بجوار الخطاب وبجانبه مفتاح الشقة والسيارة.

أجريت اتصالا بشركة خاصة بسيارات الأجرة، حاول مارلي كثيرا أن يقوم بتوصيلي إلى المطار لكنني رفضت فأنا أبغض لحظات الفراق تصيبني بحزن دفين لا أستطيع أن أتخلص منه سريعا، عشر دقائق وكانت سيارة الأجرة تحت البناية، هبطت إلى الأسفل وجدت السائق بانتظاري بزيه الرسمي المكون من بذلة سمراء داكنة مع قبعة بذات اللون، ما إن أبصرني حتى هرول تجاهي حاملا حقيبة السفر عني ثم وضعها بشنطة السيارة الخلفية، جلست على الأريكة الخلفية للسيارة، صعد السائق جالسا على مقعد القيادة، جلست أنا على الأريكة الخلفية، تحركت السيارة وتحرك معها شريط ذكرياتي التي أشعر أنها كانت بالأمس القريب لم تمر عليها أعوام، كانت ذكرياتي ببروكسل تمر أمام عيني وأنا في طريقي إلى المطار منذ أن قدمت إلى هنا والتقيت بأدريان الذي كان يعمل حينها مدرسا للموسيقى في إحدى المعاهد الخاصة كان يجيد العزف على الكمان، رأيته أول مرة في أحد المقاهي الشهيرة كان يعزف مقطوعة شهيرة لباخ، ومن هنا بدأت علاقتنا لا يجوز أن أطلق عليها علاقة حب لكنها علاقة معقدة تشوبها المصلحة كانت وظيفته مستقرة حتى أقيل منها بسبب علاقته بإحدى الطالبات منذ وقتها وعافر الخمر وأصبح من رواد الملاهي والحوانيت الليلية، توترت علاقتنا وأصبح عبئا ثقيلا عليّ، حتى تعرفت على جلمبرت ومارلي أصدقائي بالمعهد، لم تكن فرصة تكوين صداقات مع الفتيات جيدة دائما ما يعتبرنني غريبة عنهن بل ودخيلة عليهن ولا أرقى لمستوى صداقتهم ومجالستهن، تنقلت في دوامة ذكرياتي بين المؤلم والمفرح، لم أشعر بالوقت الذي مر سريعا حتى نبهني السائق أننا قد وصلنا أخيرا إلى مطار بروكسل الدولي، ترجلت من السيارة بعد أن دفعت الأجرة، ساعدني السائق على استخراج حقيبتي من شنطة السيارة، حملتها وخطوت للداخل.

في المطار أنهيت جميع الإجراءات الخاصة بالسفر ثم جلست في قاعة الانتظار، أخرجت سيجارة أنفث بها دخان توتري، كل الذكريات التي أحلتها إلى سلة المحذوفات عادت مرة أخرى لتطفو على سطح الذاكرة حتى تنأى لمسامعي ذلك الصوت الأنثوي الرتيب المعتاد في مثل تلك الأماكن.

- على جميع الركاب المسافرين على متن الرحلة رقم ٩١ المتوجهة إلى القاهرة التوجه إلى البوابة رقم ١ والاستعداد للركوب على متن الطائرة مع تمنياتنا للجميع برحلة ممتعة.

دهست ما تبقى من سيجارتي الثالثة تحت حذائي ومن ثم توجهت إلى البوابة رقم ١، صعدت على متن الطائرة جلست على مقعدي الملاصق للنافذة، ربطت حزام الأمان على حسب التعليمات، ثم حلقت الطائرة مغادرة أرض بروكسل.

استغرقت الرحلة حوالي أربع ساعات ونصف قضيتها أتذكر عائلتي وكيف ستستقبلني فريدة، تذكرت مصر وشوارعها الدافئة ومبانيها القديمة ورائحة ترابها الخصب وذكريات الطفولة بها والمراهقة، تذكرت تلك المرة الأولى التي جربت بها شرب السجائر كنت في التاسعة من عمري وكانت بقايا سيجارة ملقاة في مظفأة السجائر الخاصة بأبي، تسللت على أطراف أصابعي بعد أن تأكدت من نوم الجميع إلى مكتب أبي، أخرجت من جيبى علبة كبريت سرقتها من المطبخ وأشعلت عقب السيجارة ومع أول نفس هاجمتني نوبة سعال غير طبيعية أحسست أن صدري كله يشتعل من الداخل، لم أكن أعلم حينها أن فريدة كانت تتبعني وانتظرت تلك اللحظة حتى تخبر أبي وأمي، فوجئت بها تقف أمام باب الحجرة تنظر لي بغضب وبسمة تشفّ ترتسم على شفاهها، أسرعت تجاهها أتوسل إليها ألا تخبر أبي ولكن الملعونة انتهزتها فرصة وأخبرت كل من بالمنزل، نلت حينها علفة ساخنة من أبي لم أنل مثلاً في حياتي كما حرمني من الخروج وقتها لمدة أسبوع خارج غرفتي وحرمت من

تناول الطعام معهم، ولكن ذلك لم يجعلني أبتعد عن شرب السجائر كل الذي تغير هو أنني أصبحت اتناولها بالخارج، تذكرت أيضا ذلك الفتى الذي قبلني أول مرة عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، كان زميلا لي في المدرسة الثانوية، في البداية كنا نتبادل النظرات ثم تبادلنا الخطابات المفعمة بكلمات الحب العذري، حتى اتفقتنا ذات يوم على أن نلتقي داخل دورة المياه الخاصة بالفتيات بعد انتهاء اليوم الدراسي، تقابلنا هناك اتكأت على الحائط بينما وقف أمامي يسند ذراعيه على الحائط، اقترب مني حتى التصق بجسدي أحسست أن دقات قلبي أصبحت كطبول حرب إغريقية وأن كل من على الأرض يسمعونها، أغضمت عيني محاولة عدم إظهار توترتي حتى شعرت بلمس شفاهه تلامس شفاهي، قبله طويلا ناعمة جعلت أنفاسي تهرب مني وكأن رنثاي توقفنا عن العمل، كانت شفاهه تطبع القبلات على وجهي بينما ذراعه تشق طريقها إلى قميصي ليحكم قبضته على نهدي يعتصره، وأنا في عالم آخر من النشوة، بينما ذراعه الأخرى تتسلل أسفل تنورتني تبغي الوصول إلى تلك الزهرة البرية الكامنة بين فخذي، حينها أقفت وعدت إلى الواقع دفعته بذراعي بعيدا إلا أنه جذبني من قميصي محاولا أن يستخدم القوة معي، خدشت أطرافه مؤخرة عنقي فصفعته على وجهه، وضع يده على خده فاستغللت الفرصة هاربة خارجا، وأنا أضحك من نظرات وجهه البلهاء التي تركت أصابعي عليه بصمات لن ينساها، أعلم جيدا أنك قد تقول أنني فتاة مستهترة منحلة ولكن لا بأس بذلك فأنا غالبا ما سمعت تلك العبارات طويلا، ليلي الفاشلة ليلي المستهترة ليلي غير المهذبة إلخ، ولكن لماذا لم أسمع تلك العبارات منذ أن قدمت إلى بروكسل لأنها...

- السادة الركاب رجاء ربط الأحزمة والبقاء في مقاعدكم استعدادا لهبوط الطائرة في مطار القاهرة الجوي، نتمنى لكم السلامة.

هكذا قال قائد الطائرة لينتشلني من زحام أفكاري ودوامات الذاكرة التي جذبتني إلى قاعها، ها قد وصلت إلى أرض الوطن، مصر هبة النيل،

ولكن يا ترى ما معنى كلمة الوطن، شعرت بر عشة إثارة تدغدغ مسام جسدي والطائرة تهبط المدرج .

المكان: ميناء القاهرة الجوي.

الزمان: الخامسة عصرا بتوقيت القاهرة.

بعد أن هبطت الطائرة أرض مصر، توجهت لإنهاء باقي الإجراءات، حملت حقيبتي متوجهة إلى موظف الجوازات، ثم إلى صالة الاستقبال، تلفتت كثيرا عليه بين ذلك الجمع من الأشخاص الذين قدموا لاستقبال أحبائهم ورفقائهم فذاك ينتظر عودة ابنه وتلك تنتظر عودة زوجها وهذا ينتظر عودة حبيبته ولكن أين من ينتظرني أنا؟ ها قد وجدته أخيرا، شخص يحمل لافتة مكتوب عليها ليلى عز الدين.

كان ذلك الشخص هو سليم زوج شقيقتي، متغيرة ملامح وجهه عن آخر مرة تحدثنا به سويا عبر skype يبدو عليه أنه رجل ناضج في منتصف العقد الثالث من عمره طويل القامة مفتول العضلات لكن ذلك لا يمنع أن لديه انتفاخ غير ملحوظ ببطنه لديه صلع بسيط بمقدمة رأسه يرتدي عوينات طبية تزين وجهه لحية خفيفة يعلوها شارب خفيف بشرته قمحية ذو أنف مدبب وشفاه دقيقة مع غمازة محفورة بوجنته اليمنى تظهر عندما يتحدث أو يبتسم.

لوحث له بذراعي فرد لي التحية، تخطيت الحاجز المعدني متوجهة إليه، صافحته بابتسامه هادئة.

- أهلا ليلى كيف حالك، رحلة موفقة وحمدا لله على سلامتك لقد أضاعت القاهرة بوجودك بها.

- شكرا سليم، أنا بخير الأهم من ذلك كيف حال فريدة الآن منذ أن علمت خبر مرضها وأنا قلقة جدا عليها.

- وأنا أيضا مجرد التفكير بالأمر يصيبني بالتعاسة فهي كل شيء بحياتي وحياة وليد..

- لقد عرضت الأشعة والتحليل على طبيب مخ وأعصاب شهير ببروكسل قبل أن أغادر.

- وماذا أخبرك بحالتها؟؟

- سأخبرك بكل شيء لكن بعد ان نخرج من المطار فأنا مرهقة للغاية.

حمل سليم عني الحقيبة وتوجهنا إلى خارج المطار، لفحتني نسمة الهواء الباردة المختلطة برائحة المصريين وأكلاتهم الشهية التي أشتاق إليها كثيرا، كانت سيارة سليم المرسيدس السوداء تقف بالخارج، وضع سليم حقيبتى بحقيبة السيارة الخلفية ثم صعدت إلى جواره على المقعد الأمامي الملاصق لمقعد القيادة.

تخرج سليم من كلية الهندسة قسم هندسة معمارية يمتلك شركة خاصة بالإنشاءات، تعرف على فريدة عن طريق إحدى الأقارب تعمل بكلية الآداب مع فريدة، زواج صالونات عادي جدا خالٍ من أدنى المشاعر أو الحب، من الواضح أنه شخصية جادة جدا وذلك هو النوع الذي تفضله فريدة، أحيانا كنت أشك في أنها تملك قلبا ينبض بالمشاعر يستطيع الحب أن يخرق جدرانه ويستقر به، لكنها لا تؤيد مثل تلك الشعارات مادام الزواج ناجحا يكون للعقل الفضل في ذلك هكذا هو شعارها الغلبة للعقل دائما وذلك ما يجعلني مختلفة عنها، مشاعري وقلبي هما من يقوداني، حين يدق الحب باب قلبي لا أفكر بشيء آخر أصبح عمياء أتعكز على عكاز الحب أي نعم أحيانا أضل الطريق وأحيانا أخرى يجعلني أرطم بواقع أليم لكن بالنهاية تظل له الكلمة النهائية والفاصلة، فريدة العقل

كأبيها وليلى القلب كأمرها، لم نتفق يوما دائما ما كانت تتنمر عليّ حتى تكسب حب وثقة أبيها وكانت تربح دائما بفضل عقلها المسموم.

- ليلي أين أنت؟؟ يبدو أنك لست هنا. لم أنت شاردة النظر هل اشتقت للقاهرة؟؟

قالها سليم وهو يقود السيارة، انتبهت إليه مبتسمة:

- أبدا طفت بذهني قليلا، وداهمتني ذكرياتي مع القاهرة وشوارعها، كيف حال فريدة الآن؟؟

تنهد سليم مطلقا زفيرا يضحج بالأسى.

- فريدة على ما يرام، ولكن الذي يشغل بالي هو إمكانية انتشار الورم ليشمل جميع خلايا مخها، عند ذلك لن يكون أمامنا سوى التدخل الجراحي، الذي نسبة نجاحه لا تتعدى الـ ١٠ %.

ربتتُ على كتفه بعد أن استشعرت نبرة الحزن التي تملأ صوته:

- لا تقلق هي مجرد مرحلة واختبار ستجتازه وستكون بخير إن شاء الله، أدعو من الله أن يشفيها ويحفظها لك ولابنها.

- أتمنى فقط أن تتخلى عن تلك العصبية الزائدة التي تملكها دائما فهي تعارض مع حالتها الصحية وتزيدها سوءا.

- أعلمها جيدا فهي شقيقتي الوحيدة دوما ما كنا نختلف كثيرا نادرا ما اتفقنا على شيء، الأهم الآن أن نهئى لها الجو المناسب حتى تتخلى تلك المرحلة بسلام دون أدنى ضرر نفسي أو جسدي.

أوما سليم برأسه دلالة على الموافقة...

تجاذبنا أطراف الحديث عن فريدة وحالتها النفسية وطريقة التعامل معها، وتطرقنا إلى أحوال مصر خاصة بعد الثورة والتغيرات التي طرأت على الشارع المصري، وتردي الأحوال المعيشية بها والانقسامات السياسية والصراعات على السلطة، والجماعات التي انتشرت بكثرة وكل ذلك لا يصب جام جشعه وسلطته إلا على رأس المواطن المصري الذي لا حول له ولا قوة.

جلست أنظر للشوارع من زجاج نافذة السيارة.. كم اشتقت إليها وإلى السير بها.

- أت علم يا سليم كم أشتاق إلى مصر وإلى وجوه أهلها البشوشة، اشتقت إلى شوارعها، مبانيها، اشتقت إلى التنزه في خان الخليلي والحسين، إلى الأهرامات، إلى أكالاتها الشعبية التي تشعل حاسة التذوق، اشتقت إلى كل شيء كل شيء ولكن على الرغم من ذلك لا أتمنى العيش بها فأنا منذ الحين أشتاق لبروكسل أيضاً، غريبة الأطوار اليس كذلك؟؟
قلت له وظل ابتسامة يداعب شفاهي.

استطرد سليم قائلاً بعد أن أطلق ضحكة قصيرة:

- من الواضح أنك لا تعلمين شيئاً عن مصر بعد الثورة، لقد تغير كل ذلك يا عزيزتي، تلك الوجوه البشوشة التي تتحدثين عنها أصبحت وجوها عابسة من كثرة ما عليها من هموم وما حملت من أعباء.
أخرجت علبة سجائري الخاصة من حقيبتي الشخصية، مددت يدي لسليم:
- سيجارة؟

قلت له وأنا أخرج سيجارة أخرى أضعها بين شفطيّ نظر لي نظرة تعجب:

- هل تدخين؟؟

قهقهت بصوت خافت مردفة:

- نعم منذ زمن.. ماذا هل لديك اعتراض أم لا تحترم الفتاة المدخنة كمعظم الرجال الشرقيين أصحاب القيم والعادات؟؟

- بالطبع لا تلك حرية شخصية وأنا أحترم الحريات لكن فريدة.....

لم يكذ يكمل عبارته حتى فاجأته قائلة:

- نعم أعلم أن فريدة تكره التدخين والمدخنين، وتعتبر المرأة المدخنة امرأة منحلة لكني لن أقبل أن يحجر أحد على تصرفاتي لكن لا تقلق سأحاول أن أمتنع عن التدخين أمامها...

صمت سليم بينما وضعت سماعات handfree بأذني أستمتع لأنغام مغنيتي المفضلة adele، أغلقت عيني واتكأت على مسند

- ليلي لقد وصلنا المنزل.

قالها سليم يلكرني بيده، أزلت السماعات من أذني واعتدلت بجلستي، ألقيت نظرة على المكان.

كانت الساعة التاسعة مساء حين وصلنا إلى منزل سليم القاطن بحي المهندسين، تحديدا بشارع جزيرة العرب ذلك الحي الراقي الهادئ وكأنك انتقلت من ضجيج العاصمة المليئة بالصخب إلى أحد الأحياء الهادئة.

ترجلت من السيارة ألقيت نظرة خاطفة على المكان، في أثناء ذلك قام سليم بإخراج حقبتي من شنطة السيارة الخلفية، تخطيت سور المنزل أسير خلف سليم متتبعة خطواته إلى داخل الفيلا مخترقين تلك البوابة المعدنية ذات الأسنان الحديدية المدببة على هيئة سهام مصدرة صريحا مزعجا، ثم دلفنا إلى تلك الحديقة الصغيرة التي تحيط بالفيلا تنبت بها أشجار الياسمين، زهور النرجس والورد البلدي، أعلم جيدا كم تحب

فريدة زهور النرجس، لمحت فريدة حيث كانت واقفة تنتظرنا أمام باب الفيلا ترتدي فستانا أسودا واسعا يناسب وزنها الثقيل مع عوينات طبية تخفي عيونها السمراء، كانت واقفة تبتسم تلك الابتسامة المتكلفة التي طالما اعتدت عليها، لا أدري لم شعرت بانقباضة في صدري حين رأيته وكأن شريط ذكرياتي معها قد مر أمام عيني في تلك اللحظة، ولكنني نفضت تلك الذكريات من رأسي ثم ركضت مسرعة نحوها أحضنها بين ذراعي.. شممت فيها رائحة أبي، وكأنها أثبت إلا أن تراث كل شيء عنه، حتى ثنايا جبهته عند الغضب.

أحسست بفطور غريب تجاهها لم تبادلني تلك المشاعر الدافئة، عانقتها بشدة.

- يكفي هذا، مازال أمانا الوقت الكثير.

قالت لي بلهجة فاترة، ثم أردفت:

- من الأفضل أن ندلف إلى الداخل يبدو أن السماء على وشك أن تمطر.

خطوت إلى الخلف خطوتين وعلى وجهي ابتسامة لا أدري مصدرها.

- أشاق إليك كثيرا، أنت مثل ما كنت منذ عشر سنوات لم تتغيري أبدا يا فريدة.

- وأنت أيضا يا ليلي لم تتغيري ما زلت تلك الفتاة الطائشة.

قالت لي فريدة وهي ترصدني بنظراتها من منبت شعري إلى أخمص قدمي، تجاوزت تلك الإهانة المستترة واصطنعت المرح، طوقت خصرها بذراعي متوجهين إلى داخل الفيلا سويا ومن أمانا سليم يحمل الحقيبة، كانت مبنية على الطراز الأندلسي القديم ولم لا وفريدة أستاذة التاريخ الإسباني بالجامعة، كانت الواجحة باللون البرتقالي الزاهي عبارة عن حائط كبير يخترقه مجموعة من النوافذ الخشبية الأنيقة بتصميم

عصري، يزين الحائط مصابيح تتلألأ بنورها بعنمة الليل، كان المدخل فخما كالقصور يتوسطه باب خشبي دائري محاط بإطار أبيض يزيد من بريق الواجهة تسبقه مجموعة من السلالم الرخامية ومن اليمين واليسار نافورات على شكل أطباق مزخرفة لتكمل تلك الإطلالة الرائعة، أما الأرضية الرخامية فتكسوها سجادة تركية تعج بالألوان الفاتحة المتداخلة بشكل هندسي بديع، وتلك الثريا الكلاسيكية السوداء التي تتدلى من السقف، وبأقصى اليسار مجموعة من الكراسي والأرائك الخشبية المزخرفة بأشكال من الحيوانات والطيور على الحائط قبالتها شاشة عرض كبيرة أما على الجهة الأخرى فتوجد طاولة كبيرة تسع عشرة أشخاص، أما بالطابق العلوي فتوجد حجرات نوم على الطراز الحديث، ولكن مع كل ذلك شعرت بطاقة من الكآبة تغلف المكان وكأنه بلا روح، لمحت ولید ابنها ذا الخمسة أعوام والذي يشبه والده كثيرا يجلس أمام التلفاز منبطحا على بطنه مستندا بذراعيه على وسادة قطنية.

اقتربت منه حتى أصبحت بجواره جثوث على ركبتني، طبعت قبلة على خده فانتبه لي.

- من أنت؟؟

قال لي.

داعبت أرنبه أنفه بطرف إصبعي.

- بالطبع أنت لا تعرفني جيدا، أنا الخالة ليلي شقيقة والدتك، ولكن ما رأيك أن تتاديني lily فنحن من الآن أصبحنا أصدقاء.

قلت له بابتسامة هادئة وكأني أصبحت طفلة مرة أخرى.

- اااه تعرفت عليك أنت من تتشاجرين دائما مع والدتي بالهاتف.

قال لي.

خجلت من قوله لا أدري بماذا أرد عليه خاصة أنه لم يقل شيئا خاطئا فدائما ما تنتهي محادثاتي مع فريدة بالشجار سواء بسبب أسلوب حياتي أو تصرفاتي وطريقة ملبسي. ابتسمت بخجل:

- نعم ولكن تلك مشاجرات عادية يا وليد تحدث مع بين الأشقاء، والآن أخبرني ماذا تفعل؟؟

- وليد هيا إلى غرفتك لقد حان موعد نومك.

قالتها فريدة بنبرة غضب حاسمة جعلت الولد يهرول خائفا ترتجف أوصاله نحو الأعلى.

- وأنت أيضا يا ليلي يبدو عليك الإرهاق.. من الأفضل أن تنالي قسطا من الراحة بعد تلك الرحلة الشاقة.

أومأت برأسي دليلا على الموافقة.

حملت حقيبتني متوجهة خلف فريدة نحو الأعلى صعدت درجات السلم حيث غرف النوم بالطابق الثاني عبارة عن ردهة طولية تتراص على جانبيها أربع غرف نوم متقابلة تزين أبوابها منحوتات الأرابيسك الخشبية، دلفنا إلى داخل الغرفة الأخيرة، كانت غرفة نوم كبيرة يتوسطها سرير خشبي بني اللون مطعم بقطع الأرابيسك الخشبية ذهبية اللون مفروش عليه شراف حمر اللون مخملية في مقابلها على الجدار توجد مرآة كبيرة دائرية تزين أطرافها أشكال أفاع نحاسية تقبع بجوارها خزانة ملابس خشبية بنية اللون مطعمة بإطارات ذهبية تزين حوافها ومقابضها معدنية على شكل طاووس، في المقابل مرآة بيضاوية الشكل، وضعت الحقيبة فوق الفراش، بينما نظري يدور بكامل الغرفة، وقفت فريدة أمامي.

- أتمنى أن تكون الغرفة قد نالت إعجابك.

قالتها فريدة ببرود واضح.

- جيدة، لن تكون أسوأ من غرفتي ببروكسل.

- حسنا سأتركك الآن لترتاحي، العشاء بتمام الساعة العاشرة.

قالت لي ثم غادرت الغرفة بعد أن أغلقت الباب خلفها، كنت أشعر بإرهاق شديد، تركت لجسدي العنان ليرتطم بكل خفة بالفراش، وتنسدل خصلات شعري متبعثرة بلا هدى، ما الذي يخبئه لك القدر يا ليلي، ذاك الاستقبال الذي استقبلته لك فريدة لا يبشر بأي خير من الواضح أن ما كان يحدث بالماضي سيحدث الآن، آه يا ليلي كأن الزمان يعيد نفسه من جديد لن تتغير فريدة ولن تكف عن تنمرها معي.

نهضت من على الفراش، فتحت الحقيبة وأخرجت منها شرشفا أبيضاً مع بنطال أبيض اللون من القطن وقميص حريري نفس اللون مع ملابس داخلية، حملت الشرشف على كتفي ثم توجهت نحو غرفة الحمام الملحقة بالغرفة، دلفت إلى الداخل، كان حماماً على الطراز الأندلسي، أرضيته من الرخام الأبيض الشفاف وحوائطه بيضاء اللون، نفضت جميع ملابس من على جسدي حتى أصبحت كيوم ولدتني أمي، توجهت بخطى رشيقة نحو حوض الاستحمام، أدت مقبض المياه الدافئة لتملأ الحوض، استلقيت داخل الحوض، كم كنت أحتاجها بشدة بعد عناء ذلك اليوم المرهق، ذرات المياه تتغلغل داخل مسام جسدي تنعشها تبث الروح بها، ذلك البخار المتصاعد منها يلامس صفحة وجهي بلطف، شعرت بالنعاس يداعب جفوني، أخذت نفسا عميقاً ثم غصت بكامل جسدي داخل الحوض حتى غمرتني المياه بالكامل.

ضباب كثيف يعمي عيوني يمنع عني الرؤية، برودة شديدة تنخر عظامي، جسدي كله يرتعش أحتضنه بكلا ذراعي، فجأة بدأ الضباب ينقشع تدريجياً والرؤية تتضح، ها أنا أقف على طريق أسفاتي، عارية الجسد، الطريق ليس له نهاية، الرعب يأكل بروحي والخوف جعل دقائق

قلبي تتصارع أيهما تلوذ بالفرار أولاً، حاولت الصراخ لكن صوت قد تلاشى، حاولت الهروب لكن أقدامى قد التصقت بالأرض وكأنها قطعة منها، ثم بدأ الضباب يعود من جديد، يسرع الخطى نحوي، يبتلعني، لا صوت سوى صوت الرياح المخيفة، فجأة خرجت أياد بشعة من قلب الضباب، أياد سوداء متشققة تلف حولها أفاف صغيرة، أظافر الطويلة كالمخالب، قذرة تغوص بالدماء، تتساقط قطرات الدماء من بين ثناياها، إنها تقترب مني تحاول الإمساك بي، تقترب أكثر حتى لامست جسدي، كأنها سوط يلهب روحي، جسدي يتمزق أحاول الصراخ، صوتي لا يطاقوني، أحاول مرة أخرى ها قد خرج صوت طفلة صغيرة، صرخت كما لم أصرخ من قبل.

فجأة انبلجت جفوني، نهضت من الحوض أقطر ماءً مختلطاً بعرق، لقد كان كابوساً كاد يودي بحياتي، ها قد عادت الكوابيس مرة أخرى، وكأنها كانت أمس لم يمر عليها زمن، جففت جسدي من الماء ثم لففت الشرشف حول جسدي، خرجت من الحمام، توجهت ناحيه المرأة، كانت هناك آثار خدوش على ذراعي الأيمن، تلمستها بأطراف أناملي كانت حمراء ساخنة، ارتديت ملابس التي أخرجتها، لففت شالاً صوفياً أسود اللون حول كتفي، ثم توجهت نحو الشرفة، فتحت ضلفتيها، صفعنتي نسمة هواء خريفية باردة، كانت السماء ملبدة بالغيوم الرمادية يتوارى خلفها القمر خجلاً أو كأنه يحتمي من برودة الشتاء، بينما زخات المطر تطفق من عيون السحب كدموع تتلألأ، نظرت إلى الخارج هناك رجل عجوز يرتدي بذلة صوفية رمادية اللون يضع فوق رأسه الجريدة يسرع مهرولاً يحاول الاحتماء من حبات المطر، وتلك الفتاة المراهقة التي لم تتجاوز السادسة عشرة بعد تتعانق أصابعها بأصابع ذلك الفتى الذي يسير بجوارها، نظرات عيونهما تتم عن حب عذري جميل، أعلم تلك النظرات جيداً، أتذكر أول مرة أحببت أحدهم كنت بالصف الأول الثانوي، كانت الحياة وردية وجميلة كان زميلاً لي بالمدرسة أتذكر اسمه جيداً.. رامي، بدأ الأمر بتبادل النظرات الخجولة ثم تطور الأمر إلى تبادل بضع

الكلمات الرقيقة حتى أصبحنا نتبادل الرسائل الورقية، ذات ليلة كنت جالسة على مكتبي الخشبي بغرفتي أقرأ رسائل الشعر التي خطها بقلمه لي، فجأة دلفت فريدة إلى الغرفة، أمسكت بالورقة وضعتها خلف ظهري.

- ما هذا الذي تخبئينه خلف ظهرك أيتها اللئيمة؟

قالت لي فريدة وهي تغمز لي بطرف جفنها.

نظرت لها بارتباك قائلة:

- لا شيء، ما الذي تريدينه الآن؟؟

قلت لها بصوت مهزوز مرتبك.

- أعلم جيداً علاقتك بذلك الفتى الذي يدعى رامي، أليس هذا هو اسمه، وتلك الخطابات التي يبعثها لك المليئة بكلمات الحب. يا إلهي يا ليلي لو علم والدك بتلك الخطابات ماذا سيفعل، أشفق عليك حقاً.

قالتها فريدة بشكل تمثيلي تصطنع الحزن.

- فريدة أنت أختي الوحيدة من فضلك لا أريد أن يعلم أحد بذلك.

قلت لها بخوف، فردت قائلة:

- لا تخافي ليلي، سرّك في برّ، والآن أتركك مع رسائلك الغرامية. ولا تنسي أن تبعثي بسلامي لرامي.

قالتها فريدة وهي تغادر الغرفة، تنفست الصعداء وبت تلك الليلة أحتضن وسادتي القطنية، في صباح اليوم التالي استيقظت من النوم وارتديت زي المدرسي، ثم توجهت نحو الأسفل لتناول الإفطار ومن ثم الذهاب إلى المدرسة، كنت أخطو درجات السلم كفراشة رقيقة، كراقصة بالية محترفة تكاد تحلق في الفضاء، إلا أن الصدمة شلت حركتي في منتصف درجات السلم، حين ظهر أبي فجأة بوجهي أسفل السلم على وجهه نظرة

غضب مرعبة عاقد الحاجبين، يعقد ذراعيه خلف ظهره، تسمرت في مكاني من الخوف.

- ليلي تعالي إلى هنا الآن.

قال لي بصوته الجهوري الخشن، تملك الخوف من قلبي أصبحت كفريسة أوقعها الصياد بشباكه، هبطت درجات السلم بخطى بطيئة مترددة ساقي تصطكان ببعضهما، أرغب أن تنشق الأرض وتبتلعني، هبطت حتى أصبحت أمامه، سادت لحظات من الصمت المطبق لم يقطعها سوى صوت تلك الصفعة التي استقرت على وجنتي تشق جدار الصمت، من شدتها سال خيط من الدماء من جانب فمي.

- ما هذا أخبريني أيتها الفتاة المستهترّة المنحلة!!

قال لي وهو يحرك الخطاب بوجهي.

- إنه... مجرد...

لم أكد أكمل جملتي حتى صرخ:

- اخربي! لا أود سماع جملة واحدة منك، من اليوم ستلازمين غرفتك، لا خروج ومن الغد ستذهبين إلى مدرسة أخرى أما ذلك الفتى فأنا كفيل بالرد عليه، والآن اصعدي إلى غرفتك.

لممت أشلاء كرامتي المبعثرة على طرقات قسوته، ودمعة متحجرة أبت أن تغادر حجرات جفوني، سعدت وأنا أشعر بنار تشتعل داخل روحي وأنا أرى فريدة تقف خلف والدها تنظر لي بعيون تقطر شماتة وابتسامة خبيثة تتراقص على شفثيها.

ذكريات حفرت داخل ذاكرتي أبت أن تتركني، أفقت منها على صوت فريدة العالي تخبرني أن الطعام جاهز، غادرت الغرفة متوجهة إلى

الأسفل، كانت فريدة تضع أطباق الطعام على المائدة بينما يجلس سليم ووليد، جلست على الطرف الآخر من المائدة.

- نورت مصر يا ليلي.

قال لي سليم بابتسامة.

- مصر دائما منيرة بأهلها، أنا سعيدة بوجودي وسطكم الآن.

قلت له وأنا أتناول قطعة من جبن الماعز.

- كيف هي الحياة ببروكسل؟؟

- الحياة ببروكسل جميلة، مزيج بين الثقافات المتنوعة والمختلفة، هناك الحضارة والحدائق، التمدن والثقافة، الحرية مكفولة للجميع.

- الحرية أم التحرر يا ليلي؟؟

قالت لي فريدة بنبرة تهكم واضحة، ابتلعت الإهانة بداخلي قائلة:

- فريدة أنا أعلم جيدا موقفك من الحرية، أنت دائما هكذا منذ زمن لا يعجبك تصرفاتي ولا نمط حياتي.. لكن نحن الآن بالقرن العشرين كل شيء تغير أعتقد أن عليك إعادة التفكير.

- لست أنا من عليها إعادة التفكير أنت من تحتاجين إلى دروس بالأخلاق.

- من فضلكم لا كلام على طعام.

قالها سليم.

صراحة كنت فقدت شهيتي، تناولت بضع اللقيمات ثم غادرت طاولة الطعام متوجهة نحو غرفة المعيشة، جلست على الأريكة القطنية، أضع ساقا فوق أخرى محتضنة وسادة صغيرة، تناولت جهاز التحكم عن بعد

الخاص بالتلفاز، تنقلت بين القنوات التي تعرض جميعها نفس البرامج التي يميزها هؤلاء الأشخاص ذوات البذل الرسمية والنظرة الثاقبة، جميعهم يتحدثون في نفس الموضوع يلقون على مسامع المواطنين بهرائهم المعتاد، ينفثون سمهم الحلو داخل العقول، استمررت في التنقل بين القنوات حتى استقررت على قناة tv monde الفرنسية، كانت تعرض فيلم كلاسيكيا أعشقه كثيرا coco avant chanel، جلست أشاهده بينما جلس بجواري سليم يشاهد الفيلم أيضا، دقائق وقدمت فريدة تحمل بين ذراعيها أكواب الشاي بالياسمين التي أعشقها، بينما نحن جلوس أرتشف بضع رشقات من الكوب، عرض الفيلم مشهدا يجمع بين البطل والبطلة يتبادلون القبلات الساخنة بينما يتحسس البطل جسد البطلة، فجأة تناولت فريدة جهاز التحكم وقامت بإغلاق التلفاز، نظرت لها بتعجب:

- ما هذا الذي تفعلينه؟؟

- تسأليني ماذا أفعل، ما تلك المشاهد القذرة التي تشاهدينها!

قالت لي بصوت عالٍ ممتزج بعصبية.

- مشاهد قذرة؟؟ بأي عصر تعيشين أنت إنه فن!

- أي فن هذا! ليلي هذا الاستهتار وحياة التحرر التي كنت تعيشينها ليست هنا، هنا قواعد وعادات لابد الالتزام بها، وفي النهاية هذا منزلي وأديره كيفما أشاء كما أن المنزل به طفل ما العمل إذا ما شاهد مثل تلك المشاهدة المبذلة!

لم أرد عليها حملت الإهانة بداخلي ثم توجهت خارج المنزل، وقفت أمام البوابة أستنشق بعضا من الهواء البارد عله يحمل معه غضبي، أخرجت علبة السجائر الخاصة بي من جيب بنطالي ثم تناولت سيجارة منها

أشعلتها بالقداحة، نفثت دخانها في الهواء، إن كانت تلك هي البداية يا ليلي فما الذي يحمله لك القادم، لم أشعر بسليم الذي اقترب مني.

- أنا أسف بالنيابة عن فريدة، منذ مرضها وهي عصبية للغاية لا تتحمل أدنى كلمة، أتمنى ألا تكوني غضبتي من كلماتها.

قال لي سليم بنبرة أسف واضحة.

- لا عليك لست بحاجة للأسف، فريدة أختي الوحيدة وأنا أعلمها جيدا منذ زمن، تريد أن تدير الكون بأكمله على هواها ومن يخرج عن نطاقها يصبح عدوا لها، تلك هي فريدة وأنا معتادة على ذلك منها، كما أنني أرى أن أنتقل لأحد الفنادق حتى أقوم بتجهيز منزل والدي هكذا أفضل منعا لأي مضايقات في النهاية هذا منزلها وأنا لا أريد أن أكون سببا بأي مشاكل.

- أرجوك لا تقولي مثل ذلك الكلام مرة أخرى، فأنا لن أقبل أبدا أن تقيمي بأي مكان ومنزلي موجود، اهدأي وانفضي تلك الأفكار من ذهنك.

- حسنا موافقة لكن بشرط واحد.

قلت له بلهجة طفولية.

- ما هو ذلك الشرط؟؟

- أود الذهاب لرؤية النيل، ما رأيك بالذهاب إلى هناك؟

نظر لي بتعجب قائلا:

- الآن؟؟ وفي ذلك الطقس الممطر؟؟

- نعم وما المانع، أرجوك سليم من فضلك هذا أول طلب لي أطلبه منك.

- حسنا دقيقة أبدل ملابسي وأجهز السيارة.

الفصل الرابع مشاعر خفية

(نحن بدون حب غرقى ننتظر طوق النجاة ليحمل مشاعرنا إلى بر الأمان أو قد يدفعنا نحو قاع أشد ظلمة... محمود مدين)

الزمان: الحادية عشرة مساء.

انطلقت السيارة تشق طريقها نحو وجهتها المنشودة، جلست أنا على المقعد بجوار سليم، أتمايل على أنغام تلك الأغنية التي تصدح من راديو السيارة تتغنى باسمي.

الليل يا ليلي يعاتبني.

ويقول لي سلم على ليلي.

الحب لا تحلو نسائمه.

إلا إذا غنى الهوى ليلي.

كم أعشق تلك الأجواء الخريفية الماطرة حين تعانق حبات المطر الأرض وتداعب الوجوه، حين تصبح الطرق مبللة خالية وكأنها غسلت من كل الشوائب العالقة بها تترنم الطبيعة بها بأنشودة خالدة، كم نحتاج نحن البشر إلى مثل تلك الأجواء داخل أرواحنا عليها تغتسل مما علق بها من شوائب الدنيا، شعرت أن الأدرينالين بجسدي وصل إلى أعلى معدلاته، أخرجت رأسي من النافذة فاردة ذراعي مغمضة العينان أستقبل تلك الزخات من المطر على وجهي، تعانقه بود وحنين كرفيق قديم طال غيابه.

- أدخلي وجهك أيتها المجنونة ستصابين بنزلة برد.

قال لي سليم بلهجة ضاحكة.

- وما العيب في الجنون، إنه لب الحياة ومتعتها، ماذا أخذنا من العقل سوى التعب، جرب أن تزيل قناع الجدية وتحرر من سطوة الحياة حينها فقط ستستطيع أن تتذوق طعمها الحلو.

دقائق ووصلنا إلى كوبري قصر النيل، ترجلت من السيارة بينما ركنها سليم على جانب الطريق، سرنا سويا، كانت ليلة هادئة خالية من البشر، فقط بعض الأحبة الذين عاندوا الطبيعة وتحطمت كافة العوائق تحت مظلة حبهم.

وقفت أستند على سور الكوبري يقف بجواري سليم، أنظر إلى النيل الذي تنعكس صورة القمر على صفحته الهادئة، بينما حبات اللؤلؤ تزين صفحة السماء كأنهن حراس لذلك القمر السرمدي، تلك المركب النيلية تسبح في مياهه يقف عليها رجل يرتدي جلبابا ريفيا ينثر شباكه في المياه بينما آخر يجدف بكلا ذراعيه.

- كم هو غريب هذا النيل بقدر ما هو حنون بقدر ما هو غادر يستطيع ابتلاع كل شيء بلا رحمة، هل تعلم أنني حاولت الانتحار من قبل بإلقاء نفسي بأحضانه.

قلتها وأنا أنظر للنيل.

- ولماذا حاولت الانتحار؟؟

قال لي سليم، نظرت له قائلة:

- قصة حب فاشلة لم يكتب لها الاستمرار.

- وماذا حدث بعدها.

- تراجعت في اللحظة الأخيرة، فكرت في ذلك الذي يستحق أن أنهى حياتي من أجله، بدلا من أرمي نفسي في أحضان النيل أجعله هو من يرمي أحضانه بداخلي.

- يبدو أنك تعمقت أكثر من اللازم ما رأيك بتناول (الحلبسة) الساخنة.

- بالطبع فأنا أشتاق لتلك المأكولات الشهية.

ذهب سليم لشراء (الحلبسة) من البائع الذي يقف بالجهة المقابلة على عربته التي يزينها بحبال الأنوار الصغيرة متعددة الألوان وشرائط الورود البلدي التي ذبلت، عاد سليم يحمل الأكواب، تناولت منه الكوب وارتشفت بضع رشقات منها، بينما تصدح أنغام أغنية فيروز من عربة بائع البطاطا.

بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق.

بتكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق.

- امم لذيذة جدا وحارة شكرا لك سليم.

- أخبريني يا ليلي هل أحببت من قبل؟؟

قال لي فقلت:

- لقد فاجأتني بسؤلك.. تلك القصة الفاشلة هنا لا اعدھا حبا، صراحة لا أعلم إن كان الحب قد طرق باب قلبي من قبل أم لا، وأنا ببروكسل كانت تجمعني علاقة بأحدهم، لا أدري إن كانت حبا أم مجرد علاقة عابرة لكن ما أعلمه أنها انتهت قبل قدومي إلى هنا.

حاولت تغيير دفة الحديث فاستطردت قائلة:

- وأنت يا سليم أخبرني هل تحب فريدة؟؟

صمت سليم طويلا كأنه لا يبحث عن جواب مناسب ضاع داخل دوامة الحياة التي يعيشها.

- هل السؤال بتلك الصعوبة؟؟

- صراحة لا أعلم يا ليلي هل ما يجمعني بفريدة هو حب أم مجرد عشرة، زواجي بها كان عاديا جدا فتاة ذات حسب ونسب أستاذة جامعية على خلق.

ساد صمت طويل بيننا، كلانا ينظر إلى النيل وكأنه فتح بداخلنا جراحا قديمة ظننا أنها قد طمست.

انسجمت بالجو الجميل البارد، إلا أن شابين سمجين أحدهما يمتلك ندبة بشكل طولي على جانب وجهه يرتدي بنطالا يكاد يسقط من على خصره بشعر أشعث أسمر البشرة نحيف الجسد والآخر بدين أصلع الرأس يبدو من مظهرهما أنهما يتعاطيان المخدرات ظلا يحومان حولنا يحاولان التقرب مني مع بعض الغمزات والصفارات.

- كيف حال الجميل؟ ما رأيك في سهرة حمراء ساخنة.

قالها الشاب صاحب الندبة.

نظرت إلى سليم الذي احمر وجهه من كثرة الانفعال وعقد حاجبيه.

- لا بد أن أوقفهما عند حدهما، يبدو عليهما الإدمان!

قال لي سليم، أمسكته من ذراعه.

- أرجوك سليم لا داعي لذلك هيا بنا نرحل، لقد تأخر الوقت، من فضلك.

قلت له بلهجة توسل.

وافق سليم على طلبي، غادرنا المكان متوجهين نحو السيارة، بينما نحن في طريقنا شعرت بيد أحدهم تتحسس ظهري، في البداية كتمت غضبي وتجاهلت الأمر، إلا أن الأمر تكرر مرة أخرى، حينها لم أستطع تمالك أعصابي، التفتت إلى الخلف لأجد الشابين يسيران خلفنا، ما إن رأيتهما حتى غمز لي الشاب النحيف ذو الندبة بطرف جفنه وابتسم ابتسامة سمجة أظهرت صفا من الاسنان الصفراء المتأكلة التي نخرها السوس، رفعت يدي للأعلى ثم صفعته على وجهه، وضع يده على مكان الصفعة يتحسسها قائلاً:

- ضرب الأوبة نوع من المحبة يا حلوة.

قالها بصوت أجش، أنفاسه تشبه رائحة الميتة.

نظرت له بتقزز ثم بصقت على وجهه، اقترب مني بعد أن تغيرت ملامحه ثم رفع ذراعه يريد أن يصفعني على وجهي.

لم يتمالك سليم غضبه، أمسك بذراعه ثم انقض عليه كالثور الهائج ودار العراك بينهما، سليم يكيل له اللكمات بينما الآخر يحاول الدفاع عن نفسه أما صديقه فاختفى كالدخان، دفعه سليم أرضاً ثم جثم فوق صدره يبادل الصفعات المتتالية حتى سالت الدماء من أنفه وفمه، شعرت أن الشاب سيلفظ أنفاسه بين يدي سليم، هرولت ناحيته.

- يكفي هذا يا سليم سيموت بين يديك.

قلت له، نظر لي سليم ثم نهض من فوقه، نظر له ثم بصق على وجهه، وقف سليم يعدل من وضع نظارته وقميصه، وبينما هو كذلك نهض الشاب ثم أخرج من جيب بنطاله الخلفي مدية معدنية يلمع نصلها على ضوء القمر، اقترب من سليم ثم ضربه على وجهه بها محدثا جرحا بجبهته ثم فر هاربا، ما إن رأيت الدماء تنزف من وجه سليم حتى أصابني الهلع.

- سليم أنت تنزف، لا بد أن تذهب للمشفى!

قلت له بجزع وخوف.

- ليس هناك داع لذلك الإصابة بسيطة، هيا نعود إلى المنزل.

قال لي وقطرات الدماء تنساب من جبهته.

- بالطبع لا لن أتركك هكذا! لا تكن صعب المراس هيا بنا.

قلت له، ثم أمسكت بذراعه متوجهين نحو السيارة، صعدت أنا على مقعد القيادة بينما جلس سليم بجواري بعد أن وضع بعض المحارم الورقية على الجرح، انطلقت بالسيارة في شوارع القاهرة التي كانت تغط في سبات عميق، على حسب تعليمات سليم، نصف ساعة كاملة حتى وصلنا أمام مشفى حكومي صغير، ركنت السيارة جانبا، ثم توجهنا نحو الداخل، كان المشفى هو الآخر يغط في سبات عميق، سرنا داخل تلك الردهة البيضاء ذات الحوائط التي تساقط طلاؤها وأرضيتها المتسخة، لم أجد شخصا واحدا، جلس سليم على أحد المقاعد البلاستيكية التي بالردهة بينما دلفت أنا للداخل حتى صادفتني بالطريق ممرضة ترتدي زي التمريض الذي تحول للون الرمادي وتنتعل حذاء بلاستيكي

أزرق اللون بينما تفر بضع خصلات شعرها المصبوغ باللون الأصفر الفاتح خارج حجابها ولتكتمل الصورة لابد من العلكة التي لا تفارق فمها.

- من فضلك معي مصاب، نريد أن نقطب له الجرح.

قلت لها بلهفة، نظرت لي نظرة فاحصة عارية كأنها تريد أن تخترق جسدي.

- اه بالطبع أين هو؟؟

قالت لي بغم أعوج تضيف حرف الشين بنهاية كل كلمة، ذهبت معي إلى سليم ثم توجهنا جميعا داخل حجرة الاستقبال، جلس سليم على الكرسي بينما وقفت أنا بجواره، أحضرت الممرضة أدوات التعقيم والتقطيب، ثم قامت باللازم، احتاج الجرح لثلاثة غرز.

- كيف حالك الآن؟؟

قلت لسليم.

- الحمد لله بأحسن حال.

قال لي وهو يتحسس الضمادة التي وضعتها الممرضة فوق الجرح.

- لا أعلم ماذا أقول، أنا آسفة للغاية فكل ما حدث لك بسببي أنا.

قلت له بلهجة آسفة ونبرة حزن.

- لا تقولي هذا، لن تصدقي إذا أخبرتك أن الليلة هي أفضل ليلة قضيتها منذ سنوات، لأول مرة أشعر أنني مازلت أحمل بداخلي شاب لم يفقد عنفوانه بعد.

لاحظت نظرات الممرضة التي كانت تنتقل بيني تارة وبين سليم تارة أخرى.

- هل تحتاج إلى شيء آخر؟؟

قالت الممرضة موجهة كلماتها نحو سليم بشيء من الخجل الممزوج بضحكة لم افهم معناها، إلا بعد أن أخرج سليم من جيبه ورقة نقدية فئة الخمسين جنيه ودسها داخل جيب زيها الرسمي، لم أكن أعلم أنها الوسيلة الوحيدة والمدخل لذلك السيل العارم من الدعوات التي انهالت علينا من كل مكان.

- ربنا يتم شفاءك على خير، ويحفظ لك زوجتك من الواضح أنها تحبك كثيرا كان ظاهرا من لهفتها عليك وخوفها.

قالت وهي تنظر نحوي.

شعرت بالخجل من نفسي، إلا أن ضحكات سليم التي صدحت ترن أرجاء الحجرة أصابتني بنوبة ضحك أنا الأخرى لم تفهمها الممرضة، غادرنا المشفى، في تلك المرة أصر سليم على القيادة، طوال الطريق ننظر لبعضنا البعض ونضحك.

عدنا إلى المنزل متأخرا كانت الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، ترجلت من السيارة بينما وقف سليم قبالي.

- أنا سعيد جدا على تلك الليلة المميزة التي عشتها بسببك، لا تعلمين كم كنت بحاجة إليها.

قال لي وهو يبتسم.

- سعيد؟؟ بالرغم مما حدث لك وتقول سعيد، غريب أنت يا سليم.

- ما الغرابة في ذلك، لن تصدقيني إذا أخبرتك أن الليلة اختبرت مشاعر لم أكن أتخيل أنها مازالت كامنة بداخلي في انتظار شرارة الانطلاق.

شعرت بالخلج من كلماته، فحاولت تغيير دفة الحديث.

- الممرضة تظن أنني زوجتك، لو كانت فريدة هنا لأبرحتها ضربا.

قلت له بنوع من الفكاهة.

- ليتها كانت محقة، أنت فتاة يتمناك أي رجل يا ليلي، أنت لا تشبهين فريدة مطلقا بأي شيء.

قال لي سليم وهو يزرر قميصه، رددت قائلة:

- أحيانا أشعر أننا لسنا أخوات، ما رأيك أن ندلف للداخل، لن نضل هنا طوال الليل.

قلت له، ثم دلفنا إلى داخل المنزل، كان الكل نيام والصمت يخيم على كل الموجودات والظلام يلقي بعباءته إلا من بصيص ضوء خافت يطل من ذلك المصباح الصغير بحجرة المعيشة، سعدنا درجات السلم نحو

الأعلى، وقف سليم أمام غرفة نومه بينما وقفت أنا أمام غرفة نومي،
نظر تجاهي بحب.

- تصبحين على خير يا أجمل ليلى بالكون.

قال لي وابتسامته لا تفارق ثغره.

- وأنت من أهل الخير.

قلت له بصوت خافت ثم دلفت إلى داخل الغرفة سريعا، أغلقت الباب ثم
اتكأت عليه بظهري، أشعر بإحساس غريب فريد من نوعه لم أشعر به
من قبل، فرحة وسعادة ممتزجة بخوف، أغمضت عيني أسترجع كل
كلمة قالها لي سليم، ثم فجأة فتحت جفوني على آخرها، ما هذا الذي
تفكرين به يا ليلى إنه زوج أحتك الوحيدة! انفضي تلك الأوهام من ذهنك
واذهبي للنوم! هكذا حدثت نفسي، توجهت نحو الفراش ثم استلقيت عليه
أحتضن الوسادة حتى ثقلت جفوني ونثر سلطان النوم غباره السحري
عليها لأغوص في غياهب الأحلام.

برودة شديدة تجتاح جسدي، ضباب كثيف يحجب عني الرؤية، الأرض
تهتز من تحتي، أشعر بخوف شديد صوت رياح يصم أذاني، أين أنا
وكيف جئت إلى هنا، فجأة انفضع الضباب وبدأت الرؤية تتضح، أقف أنا
فوق قارب خشبي صغير بوسط مياه حمراء اللون تخرج منها فقاعات
زيتية، بينما تحوم حولها قروش بأفواه كبيرة ذات أسنان حادة تريد الفتك
بي، لا مفر ولا مخرج أود أن أبكي، أنا أصرخ لكن صوتي قد غادر
حلقي من الخوف، لحظات وخرجت من المياه ذراع ذات أصابع طويلة
تمتلئ بالشعر أظافرها طويلة وحادة سوداء اللون، تقترب من جسدي

تحاول الإمساك بي، أتحاشها أحاول الهروب منها لكنها كما لو كانا تمتلك عينيّن ترى بهما، صرت أترجع وأترجع حتى اهتز القارب واهتز معه جسدي، فقدت توازني ها أنا أسقط داخل المياه، بالفعل سقطت لكن القروش اختفت، التقطت أنفاسي وهذا روعي قليلا، لم ألبث إلا أن وجدت يدا تسحبني للأسفل داخل مياه حمراء مذاقها كمذاق الدماء.

في صباح اليوم التالي.

الزمان: ٢٦ من نوفمبر ٢٠١٣.

الساعة التاسعة صباحا بتوقيت القاهرة.

استيقظت من نومي العرق ينضح من كافة مسام جسدي، لم يكن مزاجي رائقا بسبب تلك الكوابيس التي بدأت تهاجمني من جديد، تناولت الهاتف من على الكومود كانت الساعة التاسعة صباحا، نهضت من على الفراش متوجهة إلى الحمام إلا أن أصواتا عالية كانت قادمة من الخارج لفنت انتباهي، توجهت نحو باب الغرفة ثم أرهصت السمع، كان صوت فريدة العالي من الواضح أنها تتشاجر مع أحدهم الآن علمت تفسير الحلم أنياب القروش هي أسنان فريدة التي ستدهسني تحتها، توجهت إلى الحمام مرة أخرى أخذت حمامي الصباحي ثم أبدلت ملابسي، خرجت من الغرفة كان صوت فريدة يبدو عاليا جدا، لدرجة أن صدها يتردد بين غرف الطابق بأكمله، وقفت أمام غرفتها أرهصت السمع، من الواضح أنها تتشاجر مع سليم بسبب حادثة أمس.

استيقظت فريدة صباحا في تمام التاسعة، جلست تتمتع على فراشها، ثم نهضت متوجهة إلى الحمام، صفعت وجهها ببعض الماء، هناك ما يؤرق مضجعتها، سر كبير احتفظت به داخل أحشائها تود أن تتخلص من حمله سريعا قبل أن ينكشف، جففت وجهها ثم خرجت من الحمام، سارت نحو سليم -بخطى بطيئة كلص متسلل- الذي مازال نائما تحت الفراش، جلست القرفصاء أمامه تداعب وجهه الذي صعقت به حين وجدته يضع ضمادة على جبهته، وكزته بقبضه يدها، فنهض مفزوعا.

- ماذا؟؟ ما الذي حدث؟؟

قالها سليم.

- من المفترض أن أسألك أنا هذا السؤال، ما الذي حدث لك بالأمس وأنت مع ليلى؟ ولماذا تضع تلك الضمادة على جبهتك يا سليم؟؟

قالت فريدة له بلهجة عدائية، اعتدل سليم في الفراش يتحسس موضع الجرح، شعر بالارتباك فماذا سيقول لها.

- إنه مجرد جرح بسيط، بسبب حادث حدث لي بالأمس.

- أي حادث ذلك الذي حدث لك يا سليم؟ أنا أرى الكذب بعيونك، أخبرني الحقيقة.

- ماذا بك يا فريدة هل أنا بتحقيق! لقد تشاجرت مع أحدهم بالأمس حاول الاعتداء على ليلى، هل اطمأن قلبك الآن.

قالها سليم، وقفت فريدة تجوب الغرفة ذهابا وإيابا تشعر بالغضب، دماؤها تغلي داخل عروقها، ها هي أولى بشائر عودة ليلى.

- جميل جدا، السيد المهندس المحترم يتشاجر ويضرب أيضا ومن أجل من؟؟ ليلي التي لا تجلب من ورائها سوى المشاكل وكأنها قدمت فقط من أجل أن تدمر حياتنا.

قالتها فريدة وهي تضع ذراعها حول خصرها والذراع الآخر فوق رأسها.

- من فضلك يا فريدة أنا لا أحب لهجة التهكم تلك، أنا لست طفلا صغيرا لتحدثيني بتلك الطريقة! ومن تلك هي أختك! هل كان من المفترض أن أتركها!

قالها سليم، لحظات ودلفت ليلي إلى داخل الغرفة، ما إن رأتها فريدة حتى جن جنونها.

- من الذي أذن لك بالدخول إلى هنا؟؟

قالتها فريدة وهي تنتظر إلى ليلي بنظرات نارية وغضب شديد.

- لقد سمعت شجاركما وأنا بالخارج، طرقت الباب كثيرا فلم يجيب أحد عليّ، فاضطرت إلى الدخول بدون إذن.

قالتها ليلي بصوت خفيض متوتر.

- وما الذي تريدان الآن؟ هل هذا ما علمته لك بروكسل؟؟

- لقد فهمت سبب الشجار، سليم ليس له ذنب، الذنب ذنبي أنا، لكن أيضا من المفترض أن تشكره على ما فعله من أجل أختك لا أن تلوميه.

- بالفعل الذنب ذنبك أنت، فتاة مستهترة مثلك ما الذي سيأتي من ورائها سوى المشاكل والتعب! يا ليتك لم تعودى.

قالتها فريدة بصوت عال ولهجة حادة.

حملت ليلى نفسها وأشلاء كرامتها وتوجهت خارج الغرفة، ساد صمت مطبق، شعرت فريدة بالتعب الشديد وطرق مستمر على رأسها مع دوار يكتنف رأسها، حتى كادت تقع لولا أن هرول سليم تجاهها، أسندها حتى جلست على الفراش، أمسكت برأسها من فرط الألم.

- ماذا بك يا فريدة؟؟ هل أنت بخير؟؟

قال لها سليم بلهفة.

- لا تقلق مجرد تعب عابر وسيزول سريعا.

قالت له بصوت مجهد، أنفاسها متهدجة تلنقظها بصعوبة.

- هل تناولت الدواء اليوم؟؟

- ليس بعد، سليم من فضلك ابتعد عن ليلى هي أختي وأنا أعرفها جيدا.

قالت فريدة لسليم بصوت واهن.

- من فضلك لا تتحدثي كثيرا حتى لا ترهقي نفسك أكثر من ذلك، نتحدث في ذلك الأمر فيما بعد.

اقترب سليم من الكومود، فتح الدرج ثم أخرج منه علبة بلاستيكية بيضاء اللون، فتحها فلم يجد بها سوى حبة دواء واحدة لونها زهري

على عكس باقي الأقراص الأخرى البيضاء، لم يشغل باله كثيرا بالأمر، حمل كوب الماء من على الكومود وتوجه مرة أخرى إلى فريدة، ناولها حبة الدواء، ابتلعها برشفة ماء.

- هل تشعرين بتحسن الآن عما قبل؟؟

قال لها سليم، أومأت له برأسها قائلة:

- أنا أسفة يا سليم، لم أقصد إهانتك، لن تتخيل مدى خوفي عليك حين رأيت تلك الضمادة، أنا أعلم ليلي جيدا لن يأتي من ورائها أي خير، وأنا أخشى أن تهدم لي كل ما بنيته بالسنين الماضية بسبب استهتارها ورعونتها، أتمنى أن تتفهم مقصدي.

قالتها فريدة، نظر لها سليم دون أن يتفوه بحرف واحد.

خرجت من غرفة فريدة، أشعر بإهانة شديدة، لن تتغير فريدة أبدا سأظل بنظرها الفتاة المنحلة، كنت مخطئة حين عدت، كم أتوق إلى العودة إلى بروكسل، لكنك يا ليلي جئت إلى هنا لهدف واضح ومحدد لا بد من إتمامه، هبطت درجات السلم، توجهت نحو الأريكة جلست عليها، بينما أخرجت سيجارة من جيبي أشعلتها ثم أدت التلفاز على قناة تعرض أفلاما أجنبية، وجلست أتصفح صندوق بريدي الإلكتروني على هاتفي، مرت نصف ساعة ولاحظت هبوط فريدة من الأعلى ترتدي ملابس الخروج يتبعها سليم، مرت من أمامي مرور الكرام وكأنني شبح غير مرئي أو دخان سيجارة تلاشى في الهواء، خرجت من المنزل، بينما جلس سليم بجواري على الأريكة.

- حقيقة لا أعلم ماذا أقول لك.. حقا أنا آسف لا أجد كلمات تصف لك اعتذاري..

قال لي سليم بأسف.

- لا عليك، فريدة هكذا منذ زمن، عصبية وتريد أن تدير الكرة الأرضية على طريقتهما ومن يخرج عن نطاقها تلفظه كالميتة، على الرغم من أنني أختها الوحيدة إلا أنها لم تشعرني يوما بذلك.

قلت له دون اكتراث وأنا أشاهد التلفاز.

- ما رأيك بتناول الإفطار سويا؟؟

قال لي سليم فقلت بابتسامة هادئة:

- شكرا سليم ليس عندي رغبة بتناول الطعام، ولكن إن كنت مصرا فكوب قهوة بالحليب يكفي بالغرض.

ابتسم سليم هو الآخر وقام ليعد كوب القهوة بالحليب، دقائق وعاد سليم يحمل كوبين من القهوة وضعهما على الطاولة الزجاجية، احتضنت الكوب بين راحتي يدي، ليبث الدفء في مسام جسدي الباردة، ارتشفت رشفة صغيرة منه.

كانت القناة تعرض فيلما أجنيا بعنوان The vow يتحدث عن قصة زوجين يحبان بعضهما كثيرا عارضا الظروف والعادات والتقاليد في سبيل الظفر بحبهم، يتعرضان لحادث سيارة تفقد على إثره الزوجة

ذاكرتها، لتتمحي كل الذكريات المتعلقة بفترة تعرفها على زوجها
بأكملها.

- هل تعتقدين أنه من الممكن أن ينسى الإنسان الشخص الذي أحبه بكل
تلك السهولة؟؟

قال لي سليم متسائلا:

- امم سؤال غاية بالصعوبة، من وجهة نظري أن الحب ليس ذكرى أو
ذاكرة الحب يتغلغل داخل الروح، يتشبع به القلب حتى وإن محت
الذاكرة أحداثه فسيظل محفورا بالداخل، الحب أكبر من أن نفقده.

- من الواضح أنك لست مهندسة ديكور فقط بل إنك شاعرة أيضا.

شعرت بالخجل من ذلك الإطراء، فنظرت أرضا.

- أريد أن أخبرك شيئا يا ليلي لكن بدون زعل.

قال لي سليم.

- بالطبع تفضل.

- قبل أن أقابلك وجها لوجه وأتعرف عليك من قرب، كنت أعتقد أنك
فتاة سمجة مغرورة تعيش حياتها لنفسها فقط نرجسية حتى عندما
اتصلت بك كنت أتوقع أن ترفضني القдом.

قال لي، فنظرت له مبتسمة.

- وما رأيك الآن هل ما زلت الفتاة السمجة المغرورة النرجسية؟؟

ابتسم سليم وفي عينيه نظرة ولمعان غريب أعرفه جيدا.

- لن أكذب إذا ما قلت أنك كزهرة برية ما زالت تحتفظ برحيقها الأخاذ،
أو كفرحة تطل من بين شفاه الثغر، شمس تشرق على جدران الروح
فتبعث بها الدفء، رقيقة أنت كقطعة بسكوت ذابت داخل فنان قهوتي،
أنت أكثر من ذلك يا ليلي.

- يا إلهي وتقول عني شاعرة بل أنت الشاعر يا صديق، من أين لك بكل
هذا؟؟

قلت له مبتسمة.

- ومن يرى الجمال ولا يتفنن بوصفه، الشعر في حضرة الجمال جمال.
قال لي سليم وهو يسدد نظراته داخل عيني كأنها تخترق غشاء روحي.
ماذا بك يا ليلي، ما تلك المشاعر التي طفقت فجأة داخل قلبك! هل ساقك
القدر إلى هنا ليضع داخل روحك تلك البذرة! الحب كالإعصار الهائج
يجتاح في طريقه كل شيء يمحو كل ما كان وما مضى ونحن ليس
بأيدينا سوى الاستسلام للقدر.

- ليلي أين ذهبت بعقلك؟؟ لم كل ذلك الشرود؟؟

قال لي سليم لينتشلني من دوامة أفكاره التي لا تنتهي.

- أبدا فقط تذكرت حياتي ببروكسل، أشتاق إليها كثيرا.

- أخبريني يا ليلي، هل حقاً لم يطرق الحب باب قلبك من قبل حتى وأنت ببروكسل.

يا إلهي مصر أنت يا سليم على ذلك السؤال، ماذا أقول له، مترددة أنا لا أعلم هل ما كان يجمعني بأدريان هي علاقة حب أم إنه مجرد تعويض فراغ القلب أم إنها كانت مجرد علاقة عابرة أخذت وقتها وانتهت، كل ما أعرفه أنني الآن أشعر بشرارة حب اشتعلت بداخلي ولا أدري إن كانت شرارة تضيء لي طريقي أم إنها شرارة ستحرقني من الداخل.

- لا أخفيك سرا لقد كنت على علاقة بشاب يدعى أدريان ببروكسل، ولكن لا أظن أنه كان حبا كما أنها انتهت قبل قدومي إلى هنا.

قلت له ولا أعلم سر إصراري على أن أخبره بانتهائها وكأنها جريمة تود الالتصاق بي وأنا أزيلها عن كاهلي.

حاولت تغيير دفة الحديث فأسرعت قائلة:

- ما رأيك في أن نسهر الليلة أيضاً؟

- مرة أخرى يا ليلي ألم يكفيك ما حدث بالأمس واليوم!

اعتدلت بجسدي حتى أصبحنا وجها لوجه، ثم وضعت يدي على كتفه.

- لا تقلق الليلة ستكون مختلفة تماماً، سنسهر بإحدى الملاهي الليلية، أرجوك وافق وسأجعلك تعيش ليلة لم ولن تعيشها بحياتك مطلقاً، ستجرب شعوراً مختلفاً.

- لا يا ليلي، فريدة لن توافق على ذلك، كما أنني لم أعتد الذهاب إلى تلك الأماكن بحياتي من قبل، لا ليست فكرة صائبة.

نظرت له وعلي شفتي ابتسامة مأكرة.

- برأيك من سيخبر فريدة بذهابنا إلى ذلك المكان من فضلك s'il

.vous plait beau

نظر لي سليم بعدم فهم قائلاً:

- ماذا؟! ضحكت من قلبي.

- أعني من فضلك يا وسيم.

ظهر الخجل على محياه وابتسامة ارتسمت على شفتيه.

- حسنا أنا موافق.

الفصل الخامس قبلة ليلية

(ماذا لو كان العنكبوت الذي قتلته بغرفتك يظن طوال حياته أنك رفيقه في السكن... ديستوفسكي)

استقلت فريدة سيارتها ثم انطلقت في طريقها حيث تعمل أستاذة جامعية للتاريخ الأندلسي بكلية الآداب جامعة عين شمس، كان الطريق مزدحما، استغرقت ما يقرب من الساعة حتى وصلت إلى وجهتها المنشودة إلا أنها لم تذهب إلى الجامعة، بإحدى شوارع وسط البلد العريقة توقفت بسيارتها، ركنتها على جانب الطريق، ثم هبطت منها متوجهة نحو إحدى البنايات حديثة الطراز، دلفت إلى الداخل ثم استقلت المصعد نحو الطابق الرابع، خرجت من المصعد، كان الطابق يضم شقتين، تجاوزت فريدة الشقة الأولى، ثم توقفت أمام الشقة الثانية التي كتب أعلاها على لوح معدني فضي اللون (عيادة الطبية صفاء السنوسي أستاذة النساء والتوليد وعلاج العقم والحقن المجهري بكلية الطب جامعة عين شمس)، وقفت فريدة مترددة يبدو على وجهها الخوف تتساقط حبات العرق الباردة من فوق جبينها، فكرت للحظة أن تتراجع وتعود أدراجها، لكنها استجمعت قوتها وضغطت على جرس الشقة.

وفي ذات الليلة كانت الساعة الحادية عشرة، نهضت من على الفراش متوجهة نحو خزانة الملابس، انتقيت منها فستانا حريريا أسود اللون

قصير لا يتجاوز الركبة مع شريطة من الدانتيل تزين الخصر منقوش عليه من ورود مفرغة عند الصدر، ارتديته ثم تناولت حذائي الأسود عالي الكعب، توجهت نحو المرأة وضعت بعضا من الحمرة الخفيفة على شفتي ثم صفت شعري للخلف على هيئة ذيل حصان، تناولت زجاجة العطر خاصتي ماركة chanel نثرت بعضا من رذاذها العطر على جسدي، تلك الزجاجة أهداني إياها جلبرت بعيد ميلادي الماضي، ألقيت نظرة خاطفة على مظهري ثم توجهت خارج الغرفة، كانت فريدة تغط في نوم عميق بينما ينتظرني سليم بالأسفل، هبطت درجات السلم على أطراف أصابعي ثم خرجت من المنزل، كان سليم يقف بجوار السيارة، يرتدي بنطالا قماشيا أسود اللون مع قميص أبيض اللون، تكتمل تلك الإطلالة الجميلة بحذاء جلدي كلاسيكي أسود اللون مدبب الرأس، كأنها أول مرة أرى بها سليم بريق بعينه، وابتسامة عذبة تلو محياه الجميل، شعرت برعشة خفيفة تجتاح جسدي، اقتربت منه بخطى بطيئة أنظر نحو الأسفل على استحياء، مد لي ذراعه، فناولته يدي لتستقر داخل أحضان يديه، انحنى عليها يقبلها بشفتيه الوردية الدقيقة.

- اسمحي لي سيدتي أن أخبرك أنك أجمل نساء الكون هذه الليلة.

قال لي سليم بنبرة حب واضحة.

- أخرجتني سيد روميو بكلماتك الرقيقة هذه، أنت أيضا مميز هذه الليلة.

قلت له بطريقة درامية مضحكة، فتح سليم باب السيارة لي، دلفت إلى داخلها، ثم جلس هو الآخر على مقعد القيادة، انطلقت السيارة تدفعها مشاعر لم أتخيل يوما أنها مازالت قابضة داخل أوتار قلبي.

الزمان: الساعة الثانية عشر منتصف الليل بتوقيت القاهرة.

وصلنا أمام إحدى الملاهي الليلية الكامنة بشارع الهرم أحد أقدم الشوارع بالجيزة، قرأت ذات مرة أن في عام ١٨٦٣ رغب السلطان العثماني عبدالعزيز الأول بزيارة مصر والتمتع بجولة سياحية حول أهرامات الجيزة، فأنشأ الخديوي إسماعيل على عجل شارع الهرم وزينه بالأشجار على الجانبين وعمل به قناطر وبرابخ تمر فيها المياه للري، كما أقام قصرا به ثم أنشأ سكة حديد وسط الشارع، ويعد شارع الهرم من أطول شوارع القاهرة حيث يبلغ طوله أحد عشر كيلومتر، كما يوجد به أكثر من ثلاثين فندقا وأكثر من ثلاثين مسرحا وملهى.

ترجلت من السيارة أنا وسليم، ثم دلفنا سويا إلى داخل أحد الملاهي الذي كانت تعتلي واجهته لوحة معدنية كبيرة من أضواء النيون مختلفة الألوان كتب عليها بالأضواء Pink Rose Club.

كان الملهى يغلب عليه اللون الأحمر الداكن والطاولات مفروشة بمفارش حمراء وكذلك الكراسي بنفس خامة ولون قمائش الطاولة وبالوسط ساحة من خشب الباركيه دائرية للرقص وتقديم العروض وعلى أقصى اليسار البار.

دائما ما أعشق الجلوس على البار جذبت يد سليم الذي وقف مشدوها من منظر الراقصة شبة عارية تتلوى كالأفعى على أنغام شرقية.

جلسنا أمام البار وطلبت من البارمان كأسين من فودكا، أعدهما باحترافية شديدة.

وضع البارمان الكأسين أمامنا رفض سليم تناوله.

- لا اعفيني يا ليلي أنا لم أعتد شرب الخمر من قبل.

قال لي سليم ضحكت من كلماته فنظر لي بتعجب.

- الفودكا ليست خمرا يا سليم، إنها مشروب روحي مشروب الأحبة، من فضلك تناول هذا الكأس فقط، اترك لي روحك هذه الليلة فقط.

قلت له بلهجة توسل، نظر لي بتردد فأومأت له برأسي، تناول الكأس بيد مرتعشة ثم تجرع رشفة منها.

- يا إلهي إنه حار للغاية! نيران تحرق جوفي.

قال لي سليم وهو يتناول كأس ماء بارد.

- الفودكا لا تشرب هكذا يا سليم تجرعها مرة واحدة هيا.

قلت له وأنا أدني الكأس من فمه، تناوله مرة واحدة بينما تناولت أنا عدة كؤوس، شعرت بعدها بنشوة لذيذة تدغدغ جسدي ومعدلات الأدرينالين قد وصلت إلى ذروتها، جلست أتمايل بجسدي على أنغام الفرقة الموسيقية التي تعزف بعد أن انتهت الراقصة من فقرتها، كانت مقطوعة موسيقية كلاسيكية من ألحان باخ، شعرت برغبة قوية تلح على جسدي.

عرضت على سليم أن يشاركني الرقص على تلك الأنغام.

- سليم ما رأيك بأن نرقص سويا؟؟

- أتمنى ولكنني لست بارعا بالرقص.

- لا تقلق الأمر أبسط مما تتخيل، أنا سأعلمك الخطوات وستتقنها جيدا.

وافق سليم على طلبي، نهضت من على الكرسي أنا وسليم متوجهين نحو ساحة الرقص.

وقف سليم كحرف الألف ينظر للراقصين لا يدري ما عليه فعله يشعر بتوتر شديد، أمسكت ذراعه اليسرى وضعتها على جانب خصري ثم يده ووضعت ذراعه الأخرى على كتفي وطوقت خصره بذراعي، تدريجيا بدأ يستجيب سليم لخطواتي حتى أتقنها، انسجمت مع الموسيقى وأسندت رأسي على كتف سليم، شعرت بدفء جميل داخل أحضانه لأول مرة أختبر تلك المشاعر هل هذا هو الحب ذلك الشعور الذي يجعلك تشعر كأنك طائر حر يحلق فوق مرتفعات اللذة، لم أشعر بنفسي إلا وشفاهي تقترب من شفاه سليم تطبع قبلة طويلة ساخنة حملت معها كل المشاعر الجارفة التي انفجر بركانها داخل قلبي، قبلة طويلة تمنيت لو توقف الزمن عندها.

لا أعلم لماذا فرت دمعة حارة من بين جدران جفوني، لم أشعر بالوقت إلا عندما انتهى العزف وتناهى لمسامعي أصوات تصفيق الجميع، فتحت عيني لأجد سليم مغمض العينين أيضاً، تراجعت بجسدي إلى الخلف، أشعر بالارتباك الشديد، نفس ما حدث مع سليم، توجهت إلى البار مرة أخرى، ساد صمت طويل بيننا لم يتفوه أحد بأي كلمة تجاه الآخر لم يمر وقت طويل.

- من فضلك أريد العودة إلى المنزل حالا.

قلت له فأوماً لي برأسه دون أن يتفوه بحرف واحد، غادرنا الملهى متجهين نحو المنزل، استمر الصمت بيننا طوال الطريق لم ينظر أحدهنا للآخر وكأننا نشعر بالخجل من تلك المشاعر التي لم يكن لأحدهنا دخل

بها، هل ما حدث الليلة هي مشاعر حقيقية أم إنه احتياج مكبوت منذ سنوات خلف قضبان الحياة حتى وجد الوقت المناسب للفرار؟ عدنا إلى المنزل، ترحلت من السيارة وام أنتظر سليم دلفت إلى داخل المنزل مسرعة نحو الأعلى، دلفت إلى غرفتي، خلعت حذائي ثم جلست على حافة الفراش، وضعت رأسي داخل الوسادة وبكيت، بكيت بحرقه، دموع ساخنة تنسال من جفوني تشق طريقها نحو الوسادة تتلاشى بداخلها كرفيقين طال بهما البعاد، تناولت الهاتف من حقيبتى الشخصية، اخترت رقما من بين قائمة الأرقام، لحظات وصدق صوت من الجانب الآخر، مسحت دموعي بطرف أناملتي.

.bonsoir monsieur nouh -

مر أسبوع كامل منذ حادثة الملهى.. بالكاد أرى سليم بالمنزل فهو دائما بالخارج، كلانا يتحاشى النظر في وجه الآخر، الشعور بالذنب يزداد يوما بعد يوم، ما يؤلمني هو ذلك الاشتياق الذي أشعر به تجاهه وكأنه أصبح جزءا لا يتجزأ من روحي، أصبح دائم الخروج، حتى حين تجمعنا طاولة الطعام يسود الصمت. غصة بقلبي تعترضه، فكرت كثيرا بالعودة إلى بروكسل وقطع كل طرق الوصل بيننا لكن بالنهاية أتذكر سبب وجودي هنا والمهمة التي قدمت من أجلها، بالكاد أغادر غرفتي طوال الوقت بها، الملل يزداد يوما بعد يوم، لا يوجد جديد بحياتي هنا، ادور بحلقه مفرغه، كم أشتاق إلى حياتي ببروكسل كانت مليئة بالصخب، كل مرة أرى بها سليم أتذكر تلك اللحظة التي جمعتنا، لم تكن

المشكلة بالنسبة لي في تلك القبلية لكن المشكلة الحقيقية في تلك المشاعر التي تمخضت داخل جدران قلبي، ما ذلك الإحساس الذي أشعر به في كل مرة أراه بها؟ أشتاق له، أصبحت أحب سماع صوته، أهتم بأصغر وأدق تفاصيل حياته، ثم أعود من جديد أقول يا ليلى انفضي تلك الأفكار من رأسك، إنه زوج أختك هل تعين ما تقولين، أنت هنا في مهمة محددة فقط.

حاولت أن أشغل نفسي بالرسم، كما طلبت من فريدة أن تجد لي عملاً أشغل به وقت فراغي فأنا لست معتادة على المكوث بالمنزل كما أنني لا أعرف أحداً هنا وليس لي أصدقاء، على الرغم من ذلك الوجه الذي أعامل به الجميع، الفتاة الجريئة المتحررة التي لا تخشى أحداً لكن الحقيقة أن بداخلي طفلة صغيرة محطمة ظلت حياتها بأكملها تبحث عن حب ضائع عن حضن تستقر بداخله.

ذات يوم استيقظت فريدة من النوم على وقع ألم شديد يجتاح بطنها، نهضت من على الفراش بجوار سليم، توجهت نحو غرفة الحمام الملحقة بالغرفة، دلفت إلى الداخل ثم أغلقت الباب خلفها بالقفل، ثم وقفت أمام المرأة تضع يدها على بطنها، يبدو على وجهها الإرهاق والتعب الشديد وجهها أصفر اللون كليمونة معطوبة، تعلم جيداً أن ما فعلته لم يكن صواباً وأنه ذنب كبير ستعاقب عليه لكنها لم تجد سوى أن تفعل ذلك فهي لا تريد أن تفقد روحها من أجله، لا تود أن تكرر حادثة حدثت منذ سنوات، ترجو من الله أن يغفر لها، صفعت وجهها ببعض الماء ثم خرجت من الحمام، اقتربت من حقيبتها الشخصية، فتحتها ثم أخرجت

منها شريط أقراص مكتوب عليه mesotac تناولت قرصا منه ببعض
الماء ثم عادت مرة أخرى إلى الفراش بجوار زوجها تحتضنه من
الخلف ودمعة حارة عانقت وجنتها.

الفصل السادس [نهاية جديدة]

(بشريعة الحب كلنا مذبنون في انتظار صك الغفران... محمود مدين)

بعد يومين، كنت جالسة أتناول الإفطار على مائدة الطعام مع فريدة وسليم، لم تكن لدي رغبة بالأكل، تناولت بضع لقيمات ثم قمت من على المائدة متوجهة إلى الأعلى مرة أخرى إلا أن صوت فريدة أوقفني.

- ليلي، هل تتذكرين حين طلبت مني البحث لك عن عمل يتناسب مع دراستك وموهبتك؟

أدرت جسدي تجاهها مرة أخرى وأنا ما زلت على أولى درجات السلم.

- نعم أتذكر، فأنا لست معتادة على المكوث بالمنزل دون عمل هكذا.

ما أزعجني حقا هو أن فريدة تحدثني دون النظر لي لكنني معتادة على ذلك.

- حسنا لقد حدثت إحدى زميلاتي بالعمل، تتعامل مع دار أزياء شهيرة بوسط البلد، وقد عرضت الأمر على صاحب الدار ووافق على مقابلتك غدا في تمام الساعة العاشرة صباحا.

شعرت بسعادة بالغة أخيرا سأتحرك من قضبان ذلك المنزل علي أجد في العمل السلوى فيما أمر به.

- شاكرة جدا لك يا فريدة، لا تدريين مدى سعادتي بهذا الخبر، غدا إن شاء الله سأكون هناك في نفس الموعد.

ثم أسرعت نحو الأعلى، دلفت إلى غرفتي، جلست القرفصاء على الفراش، تناولت جهاز اللوحى من على الكومود ثم أشعلت سيجارة، وجلست أعد ملف CV الخاص بي وأدرجت به كل أعمالي سواء في الديكور أم في تصميم الأزياء، عليها تكون خطوة جديدة في مستقبلي المهني، ذلك اليوم لم أغانر غرفتي مطلقاً.

صحراء شاسعة لا حدود لها رمالها حمراء اللون، تتحرك كأنها أفاعٍ، السماء مظلمة داكنة اللون لا تنيرها سوى تلك الشهب المشتعلة التي تتساقط على الأرض، وكأنها نهاية الكون، بينما أقف أنا بوسط الصحراء خائفة أرتجف من الخوف، عارية الجسد يقطر جسدي عرقاً أحمر اللون بينما تسيل قطرات الدماء من بين فخذي، أمامي باب خشبي أسود اللون، اقتربت منه لعلّي أجد خلفه الخلاص، أصوات متداخلة مخيفة تصدح من خلفه، اقتربت بأذني منه وأرهصت السمع.

- ليلي، أنت تشبهينها كثيراً، كم أنت جميلة، أعشق تفاصيل جسدك ووجهك البض الرقيق.

- اخرجي من منزلي ولا تعودي له مرة أخرى، أنت نطفة خبيثة تخلقت داخل رحم خبيث!

- ابتعد عني، لن أتركك تقترب مني مرة أخرى، لن تعبت بجسدي ولا روحي ثانية، أنت مريض!

كلها أصوات ترددت في أذني، جعلت جرحاً غائراً داخل قلبي ينفث من جديد، لم أشعر سوى بذلك الوهج الساخن القادم من ذلك الشهاب الذي

يقترب مني، أمسكت بمقبض الباب أحاول فتحه، كان ساخنا للغاية، حاولت وحاولت ثم تلاشى كل شيء.

استيقظت من نومي على ذلك الكابوس المزعج، جلست أستند على الوسادة ثم أخرجت من حقيبتني علبة دواء تناولت منه حبة واحدة دون ماء، وماذا بعد يا ليلي..! تلك الكوابيس المزعجة عادت لتداهمك مرة أخرى بعد أن تخلصت منها، ما الذي ينتظرك هنا؟

نهضت من على الفراش، دلفت إلى غرفة الحمام، أخذت حمامي اليومي الدافئ، ثم ارتديت ملابس تليق بمقابلة عمل، بنظارة حريريا أسود اللون مع قميص أبيض اللون، صفت شعري سريعا ثم حملت جهاز اللوحى وحقيبتني الشخصية، ثم هبطت للأسفل. قابلني سليم بالأسفل، ألقيت عليه السلام دون النظر له.

- من الممكن أن أوصلك إلى وجهتك، فهي في طريق عملي.

قال لي سليم قبل أن أعبر باب المنزل، توقفت ثم استدرت.

- لا أريد أن أعطلك عن عملك، سأستقل سيارة أجرة إلى هناك، من الضروري أن أعتاد على ذلك.

قلت له فرد قائلا:

- هذه المرة فقط وبعد ذلك افعلي ما يحلو لك.

- حسنا..

وافقت على طلبه فأنا بالفعل لا أعلم المكان بالتحديد، جلست بجواره في السيارة، وكالعادة صمت مطبق لا يقطعه سوى صوت السيارات والمارة، كلانا يختلس النظرات للآخر.

- ما حدث في الملهى.. لم يكن بيد أحد منا، تلك مشاعر كانت كامنة بداخلنا وحانت اللحظة المناسبة لها، ليس علينا أن نتجاهل بعضنا البعض كل تلك الفترة.

قال لي سليم بينما ينظر أمامه على الطريق.

- ما حدث لا يجوز أن يحدث يا سليم، ما حدث كان خطأ فادحا، كلانا يعلم ذلك، أرجوك أنا لا أريد التحدث بذلك الشأن مرة أخرى.

قلتها له ثم ارتديت نظارتي الشمسية، ووليت وجهي نحو النافذة حتى أقطع أي خيط للحديث، مرت نصف ساعة حتى وصلت أمام دار الأزياء، ترجلت من السيارة ثم أغلقت الباب بينما انطلق سليم في طريقه.

كانت دار الأزياء تحتل واجهة بناية سكنية كبيرة، بحي من أرقى أحياء القاهرة، مكتوب عليها بحروف كبيرة (أتيليه رفائيل).

أخذت نفسا عميقا ثم دلفت إلى الداخل، الدار كبيرة جدا تزينها من الداخل فساتين الزفاف والسهرات بكل الأنواع والأشكال، ألقيت نظرة خاطفة على المكان ثم توجهت نحو تلك الفتاة الخمرية التي تجلس خلف مكتب زجاجي بنهاية الصالة، كانت ترتدي فستانا أسودا ضيقا تجمع خصلات شعرها البني على هيئة ضفيره كبيرة، وقفت أمامها.

- مساء الخير، أنا ليلى جئت إلى هنا اليوم في مقابلة عمل مع مسيو رفائيل.

نظرت تجاهي مبتسمة:

- آه طبعاً، مسيو رفائيل ينتظرك بالداخل، من فضلك اتبعيني.

ثم نهضت من مكانها متوجهة إلى الداخل بينما تتبعتها أنا، بالداخل كان القسم الخاص بالتصميمات، وقفت جانباً بينما توجهت الفتاة نحو رجل يبدو أنه في أواخر الخمسينات من عمره، يرتدي بذلة رمادية اللون مع رابطة عنق قصيرة باللون الأحمر، بشرته البيضاء يغزوها نمش بني اللون، قصير القامة ممتلئ الجسد قليلاً، يعتمر قبعة جلدية على رأسه بينما يركز على عكاز خشبي من الزان، الغريب بالأمر أنه يلتحف حول رقبتة بشال أبيض اللون بخطوط سوداء متقاطعة، الذي أعلمه أن ذلك الشال هو الشال الفلسطيني المميز ومسيو رفائيل فرنسي الجنسية يهودي الديانة، اقترب مني يركز على عكازه، بينما خرجت الفتاة مرة أخرى.

- كيف حالك اليوم يا.. ليلى، أليس كذلك؟؟

قال لي مسيو رفائيل بابتسامة عجوز.

- بأحسن حال، أنا ليلى التي حدثتك عنها السيدة نوال بخصوص العمل.

- أعلم ذلك، أخبريني يا ليلى ما هي مؤهلاتك؟ وما نوع دراستك؟؟

- ذلك الملف به سيرتي الشخصية والعملية مع بعض التصميمات التي قمت بها من قبل، كما عملت مساعدة مهندس ديكور في بعض الأفلام الوثائقية.

قلت له وأنا أدني جهازري اللوحي منه، فماذا أقول له إنني كنت أعمل مساعدة مهندس ديكور لمهندس مثلي الجنس في الأفلام الإباحية بالطبع سيكون الرد واحدا من اثنين إما أن يطردني شر طردة من هنا وللأبد أو سينظر لي بنظرة أخرى مضمونها الجنس خاصة أنه في مرحلة مراقبة متأخرة، تناوله من يدي، ثم ألقى نظرة عليه، أطلت من عينيه نظرة انبهار وإعجاب واضحة.

- جيد جدا، حسنا يا ليلي منذ تلك اللحظة اعتبرني نفسك واحدة من عائلة تلك الدار، وسأعرفك على ماجد أو ميجو ذراعي الأيمن، سيعلمك بطبيعة العمل هنا.

ثم نادى بصوته على شاب كان يقف بنهاية الغرفة، يضع شريط القياس الخاص حول عنقه بينما يقف يتحدث مع فتاة يبدو من مظهرها أنها عارضة أزياء، نظر تجاهنا ثم حدث الفتاة قليلا متوجها نحونا:

- أعرفك على الأنسة ليلي، ستعمل معنا وستكون مسئوليتك منذ الآن، لتعلمها بكافة تفاصيل العمل.

قال له مسيو رفائيل ثم غادر المكان متوجها نحو الداخل.

- أه بالطبع يسعدني جدا، أنا ماجد أو ميجو كما تحبي أن تتناديني به.

قال لي ماجد وهو يبتسم لي ويمد ذراعه تجاهي يصافحني.

كان ماجد شاباً أسمر البشرة يبدو أنه في أواخر العشرينات من عمره، جسده نحيل يرتدي دوماً ملابس بألوان زاهية لا تتناسب مع الرجال، يضع قرطاً معدنياً بشحمة أذنه اليسرى، شعره الأشعث بلون التراب، لاحظت آثار ندبة قديمة على رصغه الأيسر.

- كيف حالك يا ليلي، يبدو أننا سنصبح أصدقاء.

قالها لي ماجد بينما نظري معلق بمسيو رفائيل، انتبه ماجد لذلك.

- آه مسيو رفائيل، ما رأيك بتناول كوب من القهوة وسأحكي لك قصته بالكامل.

أومأت له برأسي، خرجنا سوياً من الغرفة، جلسنا بالخارج نحتسي كوبين من القهوة أعدها ماجد بنفسه ثم قال:

- منذ عشرين عاماً مضت كان مسيو رفائيل وقتها بعمر الثلاثين، يعيش بإحدى ضواحي باريس، حينها قرر أن يذهب إلى إسرائيل للعيش بها استناداً إلى تلك الشعارات الزائفة بأنها بلد السلام والمحبة، سافر مسيو رفائيل إلى هناك لبدء حياة جديدة، أقام في حيفا حيث يسكن اليهود بجانب العرب المسلمين، عمل هناك خياطاً، كانت الحياة هادئة ومستقرة حتى ذات يوم كان عائداً من العمل بمنتصف الليل، كانت ليلة مظلمة لا قمر بها وكأنه توارى خجلاً من بشاعة ما كان يحدث، بينما مسيو رفائيل يمر بأحد الشوارع، سمع صوت صرخات أنثوية قادمة من أحد المنازل، صرخات مكتومة وكأن أحدهم يحاول كتمها، تتبع مصدر الصوت حتى وجده صادراً من منزل يجري تهمدهم، كان الباب مفتوحاً، دلف إلى الداخل فوجد أبشع ما كان يتوقع رؤيته، ذئبان بشريان يرتديان

زي الجيش الإسرائيلي، أحدهما يجثم فوق فتاة فلسطينية صغيرة لم تتجاوز الرابعة عشرة بعد، يحاول هتك عرضها بينما هي تقاوم بما أوتيت من قوة، أما الآخر فيقف أمامها مسددا فوهة بندقيته تجاه رأسها، وعلى الجانب الآخر جسد يغوص في دمائه لرجل يرتدي الجلباب الفلسطيني من الواضح أنه والدها، شعر مسيو رفائيل بصدمة من المشهد، هرول تجاه الفتاة يحاول أن ينقذها من بين براثن ذلك الذئب، إلا أن الجندي الآخر سدد البندقية تجاهه، لم يستسلم مسيو رفائيل للتهديد، انقض على الجندي الذي عاجله بطلقة نارية من البندقية استقرت بساقه اليمنى، ظل ينزف من ساقه، بينما تبادل الجنديان الاعتداء على الفتاة ثم أطلقوا النار عليها هي الأخرى، فقد بعدها الوعي، لم يشعر بنفسه إلا وهو بالمعتقل موجهة له تهمة اغتصاب وقتل الفتاة وأبيها، تم إيداعه بالمعتقل مع مجموعة من الفلسطينيين، ذاق صنوفا من العذاب لمدة ثلاث سنوات، خرج بعدها بنذب لم يصب ساقه فقط بل أصاب روحه لم يستطع العيش هناك أكثر من ذلك ولا العودة إلى بلده الأصلي، بعد أن رأى بعينه بشاعة الاحتلال الصهيوني، قدم إلى مصر، ثم عمل مع مصمم أزياء شهير ورث عنه ذلك الأتيليه حتى أصبح الآن مسيو رفائيل أحد أشهر مصممي الأزياء بمصر.

توالت الأيام بعدها ما بين المنزل والعمل، تعرفت أكثر على ماجد وجمعتني به علاقة صداقة قوية، حكى لي كل شيء عن حياته، كيف جاء إلى القاهرة بعد أن ترك منزل والده بأسوان بعد أن اعترف له بحقيقة ميوله المثلية، وكم كانت الصدمة قاسية عليه حتى إنه حاول قتله ففر هاربا منه إلى هنا، صراحة شعرت براحة شديدة بعد أن علمت بحقيقة ميوله فلقد ذكرني بمسيو راني فأنا أجد سلاسة في التعامل معهم

على الأقل لن ينظر لي أحدهم بنظرة شهوانية، كان ماجد أو ميجو كما يحب أن يطلق عليه من هؤلاء الشباب الثوري الذي كان شرارة من شرارات إشعال نيران ثورة يناير، حتى إنه أصيب قبل ذلك بطلق ناري بذراعه أثناء أحداث شارع محمد محمود، وفي ذلك الشأن قال لي:

- كان يوم السبت التاسع عشر من شهر نوفمبر ٢٠١١، كنت جالسا بالخيمة المخصصة لحزب الشباب الثوري بميدان التحرير أنا ومجموعة من الشباب والفتيات نتناقش في المطالب التي يجب المناداة بها، المطالب التي هي حق بسيط من حقوق أي مواطن أو إنسان خلقه الله على وجه الأرض في أن يعيش حياة حرة كريمة بعيدا عن القهر والجوع والفقر وسطوة الأفكار العقيمة التي مازالت تنسج خيوطها فوق العقول وتسלט الطبقة الحاكمة ومعاملتها للشعب كأنها هي السيد وهم العبيد لا بد أن يكتفوا بفتات الخبز الذي يلقون لهم به، ولا أخفيك سرا عن الحكايات التي نسجت حولنا، شباب عميل يتخابرون لصالح الكيان الصهيوني، تلك الخيام ما هي إلا أوكار للدعارة وتناول المخدرات، إن كنا شباب عميل حقا فالحكومة بماذا تسمى شقيقة الكيان الصهيوني؟؟ كنا داخل الخيمة في ذلك اليوم حيث تناهى إلى مسامعنا صوت إطلاق النيران بالخارج، خرجت مسرعا أنا وباقي الشباب، تفاجأنا بقوات الأمن ترحف داخل الميدان بقواتها وعرباتها المصفحة في محاولة عنيفة لفض الاعتصام بالقوة حتى وإن أزهدت الكثير من الأرواح فنحن بالنسبة لهم أشباه بشر، حدثت اشتباكات بيننا وبينهم، تراجعنا وأنا وبعض الشباب إلى شارع محمد محمود، اختبأت بمدخل إحدى البنايات، بينما كانت القوات تستخدم الهراوات الخشبية والصواعق الكهربائية مع الرصاص المطاطي، طلقات الخرطوش، الرصاص الحي مع القنابل المسيلة

للمومع، وغيرها من الأسلحة غير المشروعة، بينما أنا مختبئ بالداخل أحاول الاحتماء، رأيت فردين من الأمن، من هؤلاء الشباب الصغير الذي يقضي فترة خدمته العسكرية ينفثون في آذانهم كل الشر نحننا، وهم كعجينة لينة تتشكل حسب أهوائهم كما أنني ألتمس لهم العذر فمعظمهم أميون، كان كل منهم ممسكا بذراع صديقي يسحلونه جرا على الرصيف، وآخر يضربه بهراوة، لم أستطع الاختباء أكثر من ذلك وأنا أرى صديقي في طريقه للقاء حتفه، غلت الدماء بالعروق، خرجت مهرولا تجاهه وأنا أصرخ بأعلى صوتي صرخة تحمل معها كلمة لا لكل ما يجثم فوق صدورنا من ألم ووجع وظلم، لم أشعر حينها إلا بصوت الرصاصة تخترق ذراعي الأيسر، سقطت على الأرض، نذفت كثيرا حتى فقدت الوعي، استيقظت لأجد نفسي بمنزل أحد الأصدقاء وذراعي محاطة بضمادة، علمت بعد ذلك أن العديد من الأصدقاء ورفاق الكلمة لقوا حتفهم، استشهدوا، والبعض الآخر أصيب أو ألقى القبض عليه.

كان ماجد حانقا على كل شيء، المجتمع بما فيه، القيود والتقاليد والعادات التي تئد روح الحياة بداخلنا، يبغض تلك الشعارات الفكرية الزائفة التي ينادي بها أصحاب المناصب بما يسميه خراء فكريا، لم تكن لدي أدنى مشكلة مع كونه مثلي الجنس فأنا أيضا أدم الحريات سواء دينية أو جنسية.

فالإنسان حر في اختيار دينه أو جنسه أو ميوله مادام مقتنعا بما يفعله ولا يحجر على حريات الآخرين.

- هل تعلمين يا ليلي ما أطمح إليه طوال حياتي، هو أن أحيا حياة مستقرة خالية من القيود والأفكار العقيمة، أود أن أجد حب حياتي وبعدها أسافر إلى أوروبا بأي بلد تدعم الحريات حيث لا خوف ولا ألم.

قال لي ماجد وحزن عميق ينضح من بين ثنايا حروفه.

- أخبرني يا ماجد، ما سبب ذلك الندب الطولي الموجود على رسغك؟؟

قلت له، فنظر إلى رسغه وعلى شفتيه ابتسامة حزينة قائلا:

- لقد حاولت الانتحار أكثر من مرة من قبل، وتلك الندبة إحدى المرات التي فشلت بها في تنفيذ مخططي، على الرغم من الإصرار الذي أحظى به إلا أنني كثيرا ما أشعر بالتحطم واليأس، أمثالي هنا ليس لهم حق بالحياة هم مجرد نقطة مشوهة لفظتها الحياة من رحمها.

ذات يوم كنت بالأتيليه أعمل على تصاميم صيف ٢٠١٤ التي ستنتطلق مع بداية رأس السنة الجديدة، بينما أنا منهمكة بالعمل مع بعض عارضات الأزياء، إذ صدح هاتفي المحمول بنغمته المميزة girls on fire، أخرجته من جيب بنطالي، كان رقما غريبا غير مسجل بقائمة الهاتف ضغطت على زر الإجابة.

- ليلي، أنا ميجو، أنا بورطة كبيرة جدا، وأحتاجك بالحال، من فضلك تعالي لي الآن ولا تنسي أن تجلبي لي ملابس ضروري يا ليلي!

قال لي ماجد بلهجة متوترة وصوت متقطع.

- أين أنت الآن؟؟ وما هذا الرقم الذي تحدثني منه؟

أخبرني ماجد بالعنوان، تركت العمل وأسرعت مهرولة نحو الخارج، استقلت سيارة أجرة، عرجت أولا على محل للملابس الرجالية اشتريت منه بنطالا وقميصا يناسب جسد ماجد، ثم توجهت بسيارة الأجرة نحو العنوان الذي دلني عليه ماجد.

ساعة كاملة حتى وصلت إلى المكان، كان يدعى حي بولاق أي الميناء يقع على الضفة الشرقية للنيل، دلفت سيارة الأجرة داخل شوارع وحارات ضيقة تميزها مبانيها القديمة والقمامة المتناثرة بكل مكان، توقف السائق أمام شارع يدعى السبتية، طلبت من السائق أن ينتظرني هنا دقائق لحين عودتي، ترجلت من السيارة أحمل حقيبة الملابس البلاستيكية، ثم أخرجت الهاتف من جيبي، اتصلت على الرقم الذي هاتفني منه ماجد، تتبعت وصفه حتى وصلت أمام بناية قديمة شبه متهدمة مكونة من ثلاثة طوابق تشعر أنها تندثر تحت الأرض.

كانت عيون الجميع معلقة بي تترصدني وكأنني كائن فضائي هبط على الأرض، تجاهلت النظرات ودلفت إلى الداخل، كانت الإضاءة شبة معتمة، درجات البناية الخارجية تنحدر للأسفل، المكان رطب للغاية به رائحة عطنة، صعدت درجات السلم الحجرية كادت قدمي أن تنزلق على الدرجة ما قبل الأخيرة لولا أن تمسكت بسور السلم الخشبي، صعدت إلى سطح البناية فكانت تعج بالطيور المختلفة، وسيدة ترتدي جلبابا ريفيا أسود اللون، تشمر عن ساقها تجلس أمام إناء كبير به ملابس مبللة، رمقتني بنظرة غريبة مع حركة فعلتها بجانب فمها لم أفهم مغزاها، توجهت نحو غرفة بنهاية السطح، معروشة بألواح خشبية،

مطلية باللون الأخضر الجيري الذي تساقط طلاؤه، طرقت على بابها الخشبي، تنهى لمسامعي صوت ماجد من الداخل.

- ماجد أنا ليلي، افتح لي.

- لا أستطيع يا ليلي، من فضلك ناوليني الملابس فأنا عاري الجسد كيوم ولدتني أمي.

قال لي ثم فتح الباب قليلا مخرجا ذراعه العارية، ناولته حقيبة الملابس، ثم أغلق الباب مرة أخرى، دقائق وخرج من الغرفة يرتدي الملابس، هبطنا سويا الدرج، ثم خرجنا من البناية بأكملها، صعدنا داخل سيارة الأجرة على الأريكة الخلفية، انطلق السائق عائدا إلى الأتيليه.

- ما الذي حدث معك؟ وكيف جئت إلى هنا من الأساس؟؟

- لقد تعرفت على أحدهم من خلال تطبيق محادثة خاص بالمثلبيين، تحدثنا كثيرا وتبادلنا الصور، حتى قررنا أن نلتقي، وجدته شخصا آخر غير الذي كان بالصور، من حظي السيئ أنني وافقت على الذهاب معه إلى هذا المكان وهناك أشهر في وجهي مدية معدنية، طلب مني أن أخلع كافة ملابسني، ثم أخذها وكافة متعلقات الشخصية من الهاتف إلى ساعة اليد والقرط الذي كان بأذني غير الخاتم الفضي ثم ترك لي هذا الهاتف القديم رافة بحالي، وغادر الغرفة.

قال لي ماجد وهو يركز على أسنانه، ضحكت كثيرا على كلماته، نظر لي بغضب مفتعل.

- هل تضحكين، وما المضحك بذلك أيتها السمجة؟؟

- صراحة يا ميجو أنت تستحق أكثر من ذلك، أي إنسان عاقل يذهب مع شخص لا يعرفه إلى مكان لا يعرفه أيضا، ساذج أنت.

- اصمتي يا ليلي فأنا لست حزينا إلا على قرط أذني لقد كان عزيزا على قلبي للغاية.

نظرنا إلى بعض ثم انتابتنا موجة من الضحك العارم.

الفصل السابع عاصفة ينايرية

(الغيرة العمياء كالإجهاض تلفظنا خارج رحم الحب بلا رجعة.. محمود مدين)

في تلك الليلة عدت إلى المنزل متأخرة، كانت الساعة الواحدة صباحاً، بعد يوم عمل طويل وشاق، لحسن حظي أن فريدة أعطتني نسخة من مفتاح المنزل، دلفت إلى داخل الفيلا، أخرجت المفتاح من حقيبتى اليدوية، أولجته داخل رتاج الباب ثم أدركته ثلاثاً مصدراً تكات متتالية، أمسكت مقبض الباب ثم دفعته للداخل، دلفت إلى داخل المنزل، كالعادة الصمت يخيم على المكان، توجهت بخطوات حثيثة نحو الداخل، قمت بخلع حذائي ذو الكعب العالي حتى لا أصدر أي صوت، أمسكته بيدي، ما إن صعدت الدرجة الأولى من السلم، حتى صدحت إضاءة قادمة من جهة غرفة المعيشة، التفتت نحو مصدر الضوء، فوجدته يجلس على الأريكة ينظر تجاهي بغضب شديد، تجاهلته متعمدة وأكملت صعود الدرج.

- ليلي....

قال لي بصوت عال، توقفت بمكاني ثم استدرت نحوه.

- نعم سليم، ماذا تريد الآن؟؟

قلت له بصوت مرهق.

- هذا السهر اليومي لا يصلح، كل ليلة تعودين بها متأخرة إلى المنزل، أين كنت كل تلك الفترة؟؟

قال لي وهو يقترب مني حتى أصبح أمامي مباشرة.

- أنت تعلم طبيعة عملي ليست محددة بوقت، ثم لماذا أنت غاضب هكذا! هذه حياتي وأنا حرة بها، أعود وقتما أشاء وليس لك أن تسألني! أنت لست أبي ولا أخي ولا حتى زوجي!

قلت له بلا مبالاة متعمدة، أمسك سليم ذراعي بقوة ثم اقترب مني أكثر.

- ما لا تعلمينه أن هذا هو منزلي، وأنا مسئول عن كل فرد به، وبالنسبة لسؤال من أنا، أنا سليم يا ليلي ما يجمعني بك أكثر من الأبوة والأخوة.

- من فضلك اترك ذراعي أنت تؤلمني.

قلت له بآلم، أفلت ذراعي من قبضته ثم تحسس خصلات شعري بأنامله ينظر داخل عيوني، شعرت برعشة اجتاحت كامل جسدي وسخونة عاتية غمرت وجهي، اقترب من وجهي فلفحتني أنفاسه العطرة، أسقطت الحذاء من قبضة يدي، اقترب أكثر حتى تلامست شفاهنا، ابتعدت عنه قائلاً:

- من فضلك يا سليم، اتركني أصعد إلى الغرفة، أنا مرهقة للغاية أرجوك قبل أن تستيقظ فريدة وتجدا هكذا.

أفسح لي سليم مجالا للهرب من أحضانه التي بداخلي تمنيت لو اختبأت بداخلها، التقطت الحذاء من على الدرج ثم هرولت مسرعة نحو الأعلى، دلفت إلى غرفتي، أغلقت الباب بالمفتاح، توجهت نحو الفراش جلست

على حافظته، وصرت أبكي بحرقة، أنت تحبينه يا ليلي لا تكذبي على نفسك، كل تلك المشاعر التي نبتت داخل قلبك ليست وهما إنها حقيقة، هل ساقك القدر إلى هنا لتقعي في شباك ذلك الحب المحرم! آاه يا ليلي لو كنت أعلم القدر ما كانت وطئت قدماك هذا المنزل.

مسحت دموعي بأطراف أناملتي، ثم أخرجت الهاتف من جيب بنطالي، فتحت الشبكة العنكبوتية وبحثت بها عن الفنادق المتاحة بالقرب من العمل حتى وجدت فندق يدعي grand palace بوسط البلد، قمت بالاتصال على الرقم الخاص بهم وحجزت غرفة، بعدها توجهت نحو خزانة الملابس، أخرجت منها كافة ملابسني ثم وضعتها داخل حقيبة السفر هي وكافة المتعلقات الخاصة بي، ثم اتصلت بإحدى الشركات الخاصة بسيارات الأجرة، حملت الحقيبة ثم توجهت إلى خارج المنزل، بعد أن تركت المفتاح على طاولة الطعام، كان الظلام مازال يلقي بفرشه على الأرض مع لمسة برودة خفيفة، الشوارع خالية من المارة وكتل الضباب تحوم في الأفق، انتظرت السيارة حتى وصلت، تناول السائق حقيبة السفر ووضعها بحقيبة السيارة الخلفية ثم صعدت إلى جواره وانطلق يشق الضباب.

استيقظ سليم صباحا بعد تلك الليلة الطويلة من الأرق والتفكير، يعلم جيدا أن تلك المشاعر التي يشعر بها تجاه ليلي هو الحب بعينه، مشاعر جديدة لم يشعر بها مع فريدة، يتمنى لو تعرف على ليلي من قبل لتغيرت الكثير من الأمور، نهض من على فراشه متوجها إلى الحمام، بعد ذلك هبط للأسفل، كانت فريدة بالمطبخ تعد طعام الإفطار، جلس على المائدة يتصفح الجريدة اليومية بجوار طفله وليد، حتى انتهت فريدة من إعداد

المائدة، جلست إلى جواره ثم بدأت بتناول الطعام، لاحظ سليم عدم تواجد ليلي.

- اذهب يا وليد لتخبر خالتك ليلي، أن تهبط لتناول الإفطار معنا.

قالها سليم لطفله وليد، هم الطفل أن يذهب إلا أن فريدة طلبت منه الجلوس.

- لا تذهب وليد، ليلي ليست بغرفتها.

قالت له بلا مبالاة، فقال سليم:

- هل ذهبت إلى عملها باكرا اليوم أم ماذا؟؟

- لا لقد تركت ليلي المنزل بالأمس، وذهبت لتقيم بأحد الفنادق.

شعر سليم بالصدمة من الخبر.

- كيف ذلك؟؟ ولماذا؟؟

قالها لفريدة بلهفة.

- لا أدري كل ما أعرفه أنها أرسلت لي رسالة نصية منذ ساعة، تخبرني أنها ذهبت لتقيم بفندق grand palace لأنها لا تشعر بالراحة هنا، هذا كل ما بالأمر، وللحق هكذا أفضل.

ترك سليم الطعام بل والمائدة بأكملها، مسرعا نحو الخارج.

- إلى أين أنت ذاهب؟؟ ألن تكمل إفطارك؟؟

قالتها فريدة لسليم، بينما يقف أمام الباب، نظر لها مرتبكا.

- لقد تذكرت موعد عمل هام جدا.. مع السلامة.

قالها سليم متجها نحو الخارج، استقل سيارته يعلم جيدا وجهته.

وصلت إلى الفندق وكانت الساعة الثالثة فجرا، دلفت إلى الداخل، حدثت موظف الاستقبال، قمت بتأكيد الحجز ودفع أجرة أسبوع كامل، استقلت المصعد نحو الطابق التاسع حيث الغرفة رقم ٥٥، دلفت إلى الداخل كانت غرفة ذات مساحة واسعة تطل على النيل مباشرة، ذات حوائط بيضاء اللون يتوسطها سرير خشبي باللون العسلي يفترش بغطاء أبيض اللون يبعث الراحة بالنفس، ملحقة بها غرفة حمام، أخرجت ورقة نقدية للعامل ثم أغلقت الباب خلفه، كنت أشعر بإرهاق جسدي ونفسي شديد، تركت الحقيبة على الأرضية ثم توجهت نحو الفراش، ارتيمت بجسدي عليه، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقف على حافة مرتفع جليدي، الجليد يملأ الأرض، ندف الثلج تتساقط من السماء تعانق جسدي العاري، أشعر ببرودة شديدة تجتاح جسدي، أحتضن جسدي بكلا ذراعيّ أحاول بث الدفء به، فجأة اهتزت الأرض من تحت قدمي، كدت أن أسقط من فوق المرتفع إلا أنني تمالكت اتزاني بصعوبة، لحظات وبدأ الجليد بالذوبان، لتظهر طبقة بركانية من تحته، حمم بركانية مشتعلة تغلي وتنفور، الخوف يتغلغل داخل روحي هل هي النهاية؟ صرخت حتى بح صوتي، فجأة توقف كل شيء وكأنه مشهد سينمائي يعاد بالتصوير البطيء، ندف الثلج توقفت بالهواء، الحمم توقفت عن الغليان، ثم فجأة خرجت أذرع من الجليد ذات مخالب طويلة مدببة، أمسكت بساقاي ثم سحبتهما إلى الأسفل.

استيقظت من ذلك الكابوس المزعج وأنا أتصعب عرقاً، تناولت كوباً من الماء، ثم نظرت بالساعة كانت الثامنة صباحاً، تناولت الهاتف ثم قمت بإرسال رسالة نصية لفريدة أخبرها أنني تركت المنزل بلا رجعة.

نهضت من على الفراش متوجهة نحو الشرفة التي كانت تطل على النيل، تلك الغصة التي نشعر بها كلما تذكرنا أحدهم تترك بروحنا ندوب غير قابلة للاندمال.

مرت الأيام بين الفندق والعمل بالأتيليه والتسكع مع ماجد ورفاقه، حاولت تجاهل تلك المشاعر التي نبتت في داخل قلبي تجاه سليم والتي أصبحت تنمو يوماً بعد يوم كأنها زهرة نبتت داخل صحراء قاحلة لكنها أبت إلا أن تزدهر وتكبر وتفوح روائحها العطرية بجنبات روحي، صدق من قال إن الحب كالروح لا تفارقنا حتى بعد الموت، مهما حاولت تجاهله ستجده دس جذوره أكثر بداخلك، فالحب ليس وهماً نتجاهله بمجرد مروره بل هو حقيقة راسخة، حاول سليم في تلك الفترة الاتصال بي ومحادثتي، حتى إنه ذات مرة جاء إلى محل عملي، لكنني بكل مرة كنت أتعمد تجاهله، أحاول إبعاده عن حياتي بأي طريقة كانت، فعلى الرغم من حبي له إلا أن ذلك الحب يحيا على أنقاض ارواح أخرى ليست لها ذنب، فريدة مهما كانت قاسية فهي أختي بالنهاية.

ذات ليلة كنت داخل غرفتي بالفندق، أجلس القرفصاء على الفراش بينما أضع حاسوبى النقال فوق ساقي، أعمل على إنهاء التصميمات الخاصة بالعمل حيث لم يتبق سوى أسبوعين فقط على بداية رأس العام الميلادي الجديد، كنت منهمكة للغاية، حتى دق جرس الهاتف الأرضي الخاص

بالفندق، تناولت سماعة الهاتف، كان موظف الاستقبال يخبرني بوجود شخص يدعى سليم النجار يود مقابلتي الآن، ما أن سقط اسمه على اذني حتى انتفض قلبي وارتعشت جميع ذرات جسدي، دقات قلبي أصبحت كطبول الحرب، تتسابق على من ستحظى برؤيته أولاً، لا أعلم لم ارتسمت ابتسامة على شفتي بعدها وكأني أنتظر ذلك اللقاء منذ زمن، طلبت من موظف الاستقبال أن يخبره بأن يصعد إلى الغرفة، ثم أعدت السماعة إلى مكانها مرة أخرى، وضعت الحاسوب على الكومود بجواري، ثم قفرت من على الفراش، أجوب الغرفة ذهاباً وإياباً لا أعلم ما الذي عليّ فعله، توجهت نحو المرأة نظرت إلى انعكاس صورتي، أحاول هندمة ملابسي حيث كنت أرتمي منامة حريرية باللون الأحمر، ثم عدلت خصلات شعري المتمردة، نثرت بعضاً من رذاذ زجاجة عطري فوق عنقي، ثم جلست على حافة الفراش أنتظر وعيوني معلقة على الباب وكلّي أذان صاغية لأدنى صوت أو حركة، دقائق مرت وكأنها أعوام حتى سمعت صوت طرقات على باب الغرفة، انتفض قلبي مع كل طرقة، أخذت نفساً عميقاً ثم توجهت نحو الباب بخطى بطيئة مترددة، أمسكت مقبض الباب، عقلي يخبرني لا تفتحي له يا ليلي إنه فيضان جارف سيجعل من قلبك حطاماً وقلبي يخبرني أن أفتح له فهو فيضان جارف سيجعل معه كل أوجاع قلبك، وقفت مترددة لكن الكلمة النهائية والرابحة كانت لقلبي، أدت مقبض الباب ثم دفعته نحو الداخل ببطء، كان يقف أمام الباب بوجهه الملائكي الذي طالما عشقته، ينظر لي بعيون منكسرة تفيض حبا وحزناً، خفق قلبي لرؤيته، مرت دقائق من الصمت، كانت الكلمات بها للعيون، صدق من قال إن الصمت ضجيج داخلي لا تسمعه سوى النفس وأنا وسليم أصبحنا نفساً واحدة، مهما حاولنا أن نتجاهل ذلك، فالشوق بداخلنا أكبر من أي كلمات قد

تقولها الأفواه، فلغة العيون تبوح بعبارات لا توجد بقواميس كل اللغات، لغة خاصة تتقنها الروح وينقلها القلب فتترجمها العين.

- اشتقت إليك كثيرا، كأن روحي غادرت جسدي وها أنا أجدها الآن مرة أخرى.

قال لي سليم بصوت دافئ اشتقت له كثيرا، نظرت إلى الأسفل خجلا.

- أنا أيضا اشتقت لك كثيرا، أكثر من أي وقت مضى.

- كم كانت الأيام الماضية صعبة لأنك لم تكوني بها، ولم تتكحل عيوني برويتك، ليلي أنت لست حبيبتي فقط أنت طفلي التي أنجبها رحم قلبي.

وكانها كانت كلمة السر للولوج داخل حصون قلبي معها انهارت كافة دفاعاتي وسقطت راياتي ليجلس سليم على عرش قلبي ملكا متوجا، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرتمي داخل حضنه لأستقر به، احتضنني سليم بقوة وكأنه يخشى فراري منه مجددا، دلف إلى داخل الغرفة ثم أغلق بابها بقدمه، بينما شفتاه تلامس شفتاي تعصرها يشغف وحب، يدها تتلمس خصلات شعري، تغزو كافة مكامن جسدي وروحي، جعل كل خلية في جسدي وكل شعرة في رأسي وكل نبضة بقلبي تنبض باسمه، جسده الذي اقتحم كل مواقع الدفاع بجسدي الذي رفع راية الاستسلام عاليا ومن أول لحظة، غاب عقلي في مستنقع الشهوة.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا مستقرة بين أحضانه على الفراش عارية الجسد كيوم ولدتني أمي، نظرة حزن ودمعه متحجرة تتراقص داخل جفوني، الصمت هو صاحب الكلمة الأخيرة، ما الذي حدث منذ قليل؟؟ أنا وزوج أختي على نفس الفراش، مشاعر متضاربة تجتاحني ما بين لذة الحب

وَألم الخيانة، لماذا أنت يا سليم من بين كل رجال الكون يختارك قلبي!
عقلي يكاد ينفجر من كثرة التفكير، ما الذي جمعنا هل هو الاحتياج
العاطفي الذي يحتاجه كلنا منا، أم إنها رغبة جنسية تأججت داخل
صدورنا وستنطفئ بمجرد انطفاء جذوة الشهوة، عقلي مشتت ما بين
حب يرتضيه قلبي وذنوب يعاقب عليه بالجلد من ألسنة البشر قبل سوط
الخطيئة، ذلك الحب لم يكن حبا بل كان ذنبا تم اقترافه ولا بد من وأده
داخل مقبرة النسيان ولا تجوز عليه الرحمة، اعتدلت في جلستي ثم
تناولت سيجارة من علبة السجائر على الكومود، أشعلتها بالقداحة، ثم
جلست أنفث بها دخان حزني وألمي، دخانها يتراقص أمام عيني يرسم
وجوها خجلت من النظر إليها، فريدة ووليد، أدريان، عيونهم جميعا
ترمقني بنظرات ازدراء وغضب، لم أكملها وضعتها مشتعلة على
الكومود، ثم انسللت من تحت الفراش، توجهت نحو الحمام، أدت
مقبض الماء، ثم وقفت تحتها تغمرني زخات الماء عليها تغسل روحي
من كل الآثام التي اقترفتها، خرجت من الحمام مرتدية ثوبا قطنيا أبيض
اللون لا يتعدى الركبة، جلست على حافة الفراش، بينما يستلقي سليم
على ظهره واضعا ذراعيه خلف رأسه.

- ما حدث منذ قليل كان خطأ لا بد أن نتناساه، وألا يتكرر مرة أخرى،
من فضلك يا سليم أنا لا أود رؤيتك مرة أخرى، عد إلى حياتك واطرحني
أعيش حياتي.

قلت له بصوت منخفض حزين.

- ليس بهذه البساطة يا ليلي، الذي حدث لم يكن ذنبا بل كان حبا، لا تكذبي على نفسك كلانا يعلم ذلك، ليلي أنا أحبك ولن أستطيع العيش من دونك بعد الآن.

قال لي سليم وهو يعتدل في جلسته، قمت من على الفراش أجوب الغرفة، بينما أفرك يداي ببعضهما بحركة عصبية متوترة.

- لا يا سليم، حتى وإن كان حبا، أنا لن أَرْضَى أن تبني سعادتي على انقراض أرواح أخرى، تذكر فريدة ووليد.

قلت له بصوت عال وحروف متقطعة، فرد قائلاً:

- أنا لم ولن أظلم أحدا منهما، لكني أيضا بشر، إنسان يبحث عن السعادة والحب، وقد وجدتهما معك، أنا أيضا فكرت كثيرا وراجعت نفسي مرارا لكني لم أستطع، أنا حقا أحبك يا ليلي.

قاطعته بحدة قائلة:

- من فضلك يا سليم لا يجب أن نرى بعضنا مرة أخرى، وهذا هو الحل الأمثل، والآن من فضلك اتركني، أود أن أكون لحالي.

نهض سليم من على الفراش، تناول ملابسه ثم ارتداها، غادر سليم الغرفة ولكن قبل أن يغادرها نظر لي بحبك قائلاً:

- مهما حاولنا يا ليلي أن نبتعد، سنجد أرواحنا تقترب، الحب ليس قرارا، الحب مرض يصعب شفاؤه ونحن مرضنا تغلغل حتى وصل وامتزج بدمائنا.

خرج وأغلق الباب خلفه، تركني أعاني من ألم الخيانة، آه يا سليم لو كنت تعرفت عليك في ظروف أخرى لكان من الممكن أن نصبح أسعد حبيين، ولكن سعادتنا الآن مرهونة بتعاسة آخرين، انشغلت في عملي محاولة أن أتناسى ما حدث.

الفصل الثامن .. في عينيك فيم أسود وبدايات شتاء

(وعدتك ألا أحبك ثم أمام القرار الكبير جنت، وعدتك ألا أعود وعدت
ألا أموت اشتياقا ومت فماذا بقلبي فعلت.. نزار قباني)

الزمان: ٣١ من ديسمبر ٢٠١٣.

مرت أيام عديدة قضيتها ما بين العمل والمكوث بالفندق أحاول قدر
الإمكان أن أتناسى ما حدث، بالأيام الماضية انقطعت صلتني بسليم
وفريدة تماما، حتى مجرد الاتصال أصبح منعما، حتى اليوم الأخير من
السنة الحالية، كانت الساعة الثانية عصرا حين كنت بغرفة تحضير
العارضات لبدء عرض أزياء صيف ٢٠١٤ الخاص بمجموعة مسيو
رفائيل الجديدة، كانت الغرفة تعج بالحضور ما بين صحافة جاءت تلتقط
بعض الصور والعارضات وخبراء التجميل، كنت أنا أقف مع إحدى
العارضات أقوم بضبط مقاسات الفستان على جسدها، حين صدح هاتفي
المحمول بنغمته المميزة، أخرجت الهاتف من جيب بنطالي، كان سليم
هو المتصل، تجاهلت الاتصال إلا أنه أعاد الاتصال مرة أخرى، لا مفر
من الرد، ضغطت على مفتاح الرد.

- ليلي أين أنت الآن؟؟

قال لي سليم بصوت متهدج وأنفاس مخطوفة.

- أنا بالعمل يا سليم، ما به صوتك؟؟ هل حدث مكروه لفريدة أو وليد؟؟

قلت له بلهفة، فرد قائلا:

- فريدة بالمشفى الآن وحالتها سيئة للغاية، أرجوك يا ليلي تعالى حالا إلى هنا.

- من فضلك اهدأ قليلا، أنا قادمة إليك، أين أنت الآن؟؟

أبلغني سليم بالعنوان، أغلقت الهاتف ثم أسرعت نحو مسيو رفائيل
أعذر له على مغادرتي العاجلة، وافق بعد أن علم بتفاصيل الأمر،
هرولت مسرعة نحو الخارج، استقللت سيارة أجرة متوجهة إلى
المشفى.

داخل إحدى المستشفيات الخاصة بالمهندسين، وقف سليم أمام حجرة
العناية المركزة، يتصبب عرقا يستند بظهره على الحائط المقابل لها،
بينما يحتضن رأسه بين راحتي يديه، يشعر بذنب كبير تجاه فريدة، على
الرغم من أنه لا يحبها لكن للعشرة عليه حق أيضا، فهي أم ابنه الوحيد،
وبينما هو على تلك الحالة كانت ليلي تعبر الردهة تتلقت يميناً ويساراً
حتى لمحته، أسرعت نحوه مهرولة، حتى أصبحت أمامه، وضعت يدها
على كتفه فانتبه لها بعيون دامعة.

- ما بها فريدة؟ أخبرني يا سليم ماذا حدث لها؟؟

قالت ليلي بلهفة، أشاح سليم ببصره عنها ينظر إلى الفراغ.

- لا أعلم لقد كنت بالشركة، حين رن هاتفي المحمول، كانت إحدى
زميلاتهما بالعمل أخبرتني أن فريدة فقدت وعيها أثناء المحاضرة، ثم
أحضروها إلى هنا وهي الآن بالعناية المركزة.

قالها سليم بصوت مبحوح، فردت ليلي قائلة:

- وماذا أخبرك الطبيب عن حالتها؟؟

- لم يخبرني أحد بشيء، الطبيب بالداخل منذ ساعة، أخشى أن تكون حالتها حرجة.

- لا تقلق ستكون بخير إن شاء الله.

لحظات من الترقب والقلق وغيمة سوداء من الخوف حلقت فوق رؤوسهم، حتى خرج الطبيب من غرفة العناية المركزة تتبعه الممرضة، أسرع سليم نحوه.

- أخبرني يا رامي كيف حال فريدة الآن؟؟

قالها سليم للطبيب رامي فهو صديقه منذ أيام الدراسة والمشرف على حالة فريدة.

- لا تقلق هي بخير لكنها ستبقى تحت العناية لفترة حتى تجري لها بعض الفحوصات الطبية اللازمة.

قالها الطبيب رامي ثم أردف قائلاً:

- من فضلك سليم.. أود التحدث معك على انفراد، تفضل معي إلى المكتب إن أمكن.

أوماً سليم برأسه يتبع الطبيب رامي نحو غرفة مكتبه بينما وقفت ليلي بالخارج تنتظره.

داخل غرفة الطبيب رامي بالمشفى، غرفة ذات جدران بيضاء، تزين حوائطها ملصقات طبية، يتوسطها مكتب خشبي بني اللون عليه لوحة معدنية محفور عليها اسم الطبيب رامي أستاذ المخ والأعصاب بجامعة عين شمس مع العديد من المجلدات والمجلات في المجال الطبي، مع سرير معدني بأقصى الغرفة، جلس الطبيب رامي خلف مكتبه، ثم أخرج نظارته الطبية من جيبه، بينما يجلس سليم أمامه يحرك ساقه اليمنى بعصبية.

- لا أخفيك سرا يا سليم، فالورم بدأ بالانتشار أكثر بين خلايا المخ، ذلك الشيء الغريب بالأمر فمن المفترض أن الدواء الذي تتناوله فريدة ذو فاعلية قوية بمنع انتشار الخلايا السرطانية بالمخ، لكن ما حدث عكس ذلك!

- أنا لا افهم كلامك جيدا يا رامي، من فضلك أخبرني الحقيقة حتى وإن كانت قاسية.

- اسمع يا سليم.. فريدة الآن حالتها خطيرة، تلك الحقيقة ونحن الآن ليس لدينا حل سوى التدخل الكيميائي لمنع انتشار الورم أكثر من ذلك خاصة أن مدام فريدة حامل.

- حامل؟؟

قالها سليم للطبيب رامي كنوع من الصدمة.

- نعم حامل منذ ما يقرب من شهر، أليس عندك علم بذلك؟؟

- لا تلك المرة الأولى التي يخبرني بها أحد بذلك؟؟

- لا عليك من الواضح أن فريدة هي الأخرى لم تكن تعلم خاصة أن الحمل مازال في بدايته، على كل حال فريدة ستظل معنا حوالي شهر حتى نطمئن على صحتها جيدا، وجودك الآن غير مجدٍ كما أن الزيارة ممنوعة.

قام سليم من على الكرسي مغادرا الغرفة، لا يعلم هل يفرح لأن فريدة حامل وستنجب له مولودا آخر أم يحزن لأنه على شفا فقدانها...!

انتظرت سليم بالخارج بينما دلف هو خلف الطبيب إلى الغرفة، من الواضح أن الأمر معقد للغاية، على الرغم من أن العلاقة التي تجمعني بفريدة سطحية وكلها تعقيدات، إلا أنني أشعر بالحزن الشديد عليها فهي أختي بالنهاية والدم الذي يجري بعروقنا دم واحد، دقائق وخرج سليم من غرفة الطبيب، أسرعت الخطى نحوه.

- ماذا قال لك الطبيب؟؟ أخبرني كيف حال فريدة الآن؟؟

قلت له بلهفة يغلفها خوف.

- أخبرني رامي أن فريدة بحاجة لعناية شديدة تلك الفترة لذلك ستمكث بالمشفى عدة أيام، لإجراء الفحوصات والتحاليل اللازمة، كما أنها حامل أيضا.

هكذا أخبرني سليم، هبط الخبر على مسامعي كالصاعقة حاولت تمالك أعصابي قائلة:

- حسنا ما الذي ستفعله الآن؟؟

- لا شيء، سأذهب إلى حضانة وليد فقد حان موعد خروجه، كما كانت تفعل والدته.

قال لي سليم وهو يتنهد بحرقة.

- ومن الذي سيهتم به خلال تلك الفترة ويهتم بك أيضا؟؟

- حقيقة لا أعلم فأنا تفكيري مشوش للغاية، أرى أن أودع وليد عند منزل عمه هناك أبناء عمه في مثل عمره وهو يحبهم كثيرا.

- لست معك، هيا بنا نذهب إلى وليد ثم نخرج على الفندق لجلب حقيبة ملابسي، فأنا لن أترككم حتى يمر الأمر على خير.

قلت له، نظر لي سليم نظرة حب ثم مال على جبهتي ليطبّع قبلة رقيقة فوقها، غادرنا المشفى أنا وسليم، صعدت إلى جواره بالسيارة، ذهبنا أولا إلى حضانة وليد ثم عرجنا على الفندق، دفعت كافة المستحقات ثم صعدت إلى الغرفة بينما انتظرني سليم ووليد بالأسفل، أعددت الحقيبة سريعا ثم هبطت مرة أخرى، توجهنا نحو المنزل، أعددت طعام العشاء ثم تناولناه سويا، تعمّدت أن أنام بنفس غرفة وليد حتى لا تتوافر أي فرصة لقاء منفرد بيني وبين سليم، فأنا أعلم نفسي جيدا لن أستطيع مقاومة نظرة واحدة فقط من عينيه.

كما أنني أعلم جيدا أن تواجدي بالمنزل سيكثر من فرص التقائي بسليم وهذا ما كنت أخشاه، لا أعلم هل سأستطيع أن أصمد في وجه ذلك الحب أم سأنهار مع أول دفقة مشاعر، لا يا ليلي تذكرني ما أنت هنا من أجله فقط.

مرت الأيام ما بين العمل بالأتيليه والاهتمام بشئون وليد وسليم مع الذهاب للمشفى يوميا للاطمئنان على صحة فريدة، نجح عرض مسيو رفائيل نجاحا منقطع النظير حتى إن إحدى مجلات الأزياء والموضة حررت مقالا عن العرض ذكر به اسمي واسم ماجد، بدأت حياتي العملية تستقر أكثر، كل يوم كنت أعود باكرا إلى المنزل للاعتناء بوليد ومتابعة دروسه توطدت العلاقة بيني وبينه كثيرا حتى إنه ذات مرة كنا نجلس بغرفته ذات الجدران المغلفة بورق الحائط المرسوم عليه مشاهد من أفلام الرسوم المتحركة الشهيرة كتوم وجيري وميكي ماوس، يتوسطها سرير خشبي على هيئة سيارة مرسيدس، بجواره مكتبة خشبية صغيرة ذات أرفف متتالية، استقرت عليها العديد من الألعاب ومجلات الأطفال، كنا نجلس على الفراش منكبين على بطوننا بينما نرفع قدمينا للأعلى نستند على مرفقيننا، أسرد له إحدى القصص.

- في النهاية تزوج الأمير علاء الدين من الأميرة ياسمين وعاشا في تبات ونبات وأنجبا فتيانا وفتيات.

قلت له وأنا أبتسم في وجهه.

- تعلمين يا خالة ليلي، أنا أتمنى أن تصبحي والدتي.

قال لي بصوته الطفولي المحبب، تعجبت كثيرا من طلبه، فقلت:

- لماذا تقول هكذا يا وليد أأست تحب أمك؟؟

صمت وليد قليلا.

- بلى أحبها لكنها ليست مثلك، هي دائما غاضبة، لا تلعب معي مثلك ولا تسمح لي بمشاهدة التلفاز إلا قليلا حتى جهاز ipad رفضت أن تجلبه لي كباقي أصدقائي بالحضانة.

- لا تحزن، ماما تحبك كثيرا وهي تفعل معك ذلك فقط لأنها تخاف عليك، تذكر دائما أن والدتك هي أكثر شخص يحبك بهذا الكون كله.

- حسنا لكني أحبك أيضا يا خالة ليلي.

- وأنا أيضا أحبك كثيرا، أكثر من حبي للقهوة.

قلت له وأنا أداعب جسده بأطراف أصابعي بينما هو يقهقه عاليا، مرت ساعة حتى خلد ولید إلى النوم، كنت أشعر بأرق شديد بتلك الليلة، ورغبة عارمة بتناول كوب من القهوة، هبطت إلى الأسفل متوجهة إلى المطبخ، وضعت القهوة على النار بينما وقفت أفكر، كم أنت مسكين يا ولید تفتقد إلى المحبة والأمان أنت أيضا، أشعر بك جيدا فقد مررت بمثل ظروفك بل وأقسى لكن الفرق الوحيد بيني وبينك هو أنك تفتقر ذلك الإحساس تجاه والدتك بينما كنت أفتقره أنا تجاه والدي، الاهتمام لا يورث والحب لا يشحذ يا صديقي فمن نظنهم أقرب البشر إلينا نجدهم أكثرهم بعدا، لم أشعر بالوقت إلا والقهوة تموج تفور تحت الموقد، سكبتها داخل حوض الماء، ثم أعددت واحدة أخرى، احتضنت الكوب بين راحتي يدي ثم توجهت نحو غرفة المعيشة، جلست على الأريكة أضع ساقي تحت جسدي أتناول القهوة، بينما أعبت بهاتفي المحمول، قبل أن أنتهي من تناول القهوة، رن هاتفي بنغمة اتصال what's app المميزة كان جلبرت هو من يتصل بي، قمت بالرد عليه.

- جلبرت لقد اشتقت إليك كثيرا وإلى مارلي وإلى بروكسل بأكملها،
كيف حالك وحال الجميع؟؟

قلت له بشوق ولهفة عارمة.

- أنا بخير وكذلك مارلي يبعث لك السلام، أنت كيف حالك؟ ما به
صوتك يا lily أشعر بنبرة حزن بين طياته.

- لا شيء أنا بخير فقط بعض الإرهاق والتعب، الحياة هنا مرهقة جدا يا
جلبرت، كم أود العودة إلى بروكسل أشتاق إلى كل ركن بها.

- lily أود أن أحدثك في أمر هام، حدث أمس.

- ما هو هذا الأمر الهام جلبرت؟؟

قلت له والقلق يعتصر قلبي.

- بالأمس رأيت أدريان بشارع port lueis يتسكع مع فتاة سويسرية
تدعى صوفيا ذات بشرة صهباء وشعر أسود مجعد، كان من الواضح
أنه سعيد للغاية، وحين اقتربت منهما وسألته أخبرني أنها فتاته الجديدة
وقريبا سيعلنا خطوبتهما.

هكذا أخبرني جلبرت، لم أشعر بأي نوع من المشاعر السلبية سوء
غضب أو غيرة أو حزن وكأن أدريان لم يمر على حياتي قبلا،
مشاعري تجاهه أصبحت متلاشية لا محبة ولا كره فقط لا مبالاة، من
الجائز لو سمعت هذا الخبر من قبل لكان موقفى تغير، لكن الآن تشعب
قلبي حبا.

- أدريان أصبح لا يهمني، يتعرف، يخطب أو حتى يتزوج الأمر بالنسبة لي سيان، من فضلك جلبرت لا تذكر لي اسمه مرة أخرى فلقد لفظته خارج حياتي بأكملها.

قلت له بينما سمعت خطوات تهبط من على السلم يصحبها أزيز خافت، نظرت تجاه الصوت فرأيت أنه كان سليم يرتدي منامة النوم تظهر على جفونه آثار النوم، أغلقت المكالمة مع جلبرت سريعا.

- حسنا جلبرت، مضطرة أن أنهى المكالمة الآن، وأنا سأحدثك بأقرب وقت ولا تنس أن تبعث سلامي لمارلي.

هكذا قلت له، أغلقت الهاتف، ثم نهضت مسرعة نحو المطبخ.

- ليلي....

قال لي سليم وهو يقف أسفل الدرج بصوت هادئ، تسمرت في مكاني ثم استدرت نحوه.

- نعم سليم، هل هناك خطب ما؟؟

قلت له بعدم اكتراث متعمد، فرد قائلا:

- مع من كنت تتحدثين في تلك الساعة المتأخرة من الليل؟؟

- كنت أتحدث مع أحد أصدقائي المقربين ببروكسل.

قلت له ثم دلفت إلى داخل المطبخ، وضعت الكوب على الطاولة ثم خرجت أحدث الخطى نحو الأعلى، ما إن صعدت الدرجة الثانية من

السلم، حتى أمسك سليم بذراعي، توقفت بمكاني، شعور غريب أشعر به كلما لامس جزء من جسدي، وكأن جسدي أرض بور وهو الغيمة الممطرة التي ستحط فوق صحراء قلبي فتزهر، أصبحت كافة دفاعاتي على وشك الاستسلام فقط تسلل الحب بداخلها وشتت صفوفها.

- إلى متى ستتجاهليني يا ليلي؟ تتحاشين حتى النظر إلى وجهي..

قال لي سليم بصوت يطغى عليه الحنين.

- أنا.. لست أتجاهلك، الأمر فقط أنني...

لم أستطع أن أكمل عبارتي حتى وضعت يدي فوق وجهي أحاول منع عبرة حاولت التسلل خارج قضبان جفوني، جذب سليم ذراعي فاستجبت له، هبطت درجات السلم حتى أصبحت أمامه لا يفصل بيننا شيء، احتضن راحة يدي داخل راحة يده مقربا إياه تجاه قلبه.

- ليلي، أنا وأنت قد نكون أصحاب خطيئة، لكن الخطيئة في شريعة الحب صلاة، ليس بيدي ولا بيدك، كما أخبرتك سابقا الحب ليس اختيار الحب قدر يجمع بين روحين وأنا منذ أن رأيتك علمت أنك قدري.

- أنا مرهقة جدا يا سليم، أنا أيضا أحبك ولكن ما نهاية ذلك الحب سوى الوجد والفراق، أنا لست أتجاهلك لكن أخاف أن أفقدك، أنت مثل التفاحة المحرمة بالنسبة لي، أخاف أن أقضمها فألقى حتفي وأخاف أن أتركها فلا أشعر ببلذتها، كل مرة أفكر بها أكاد أجن من التفكير وأسأل نفسي وماذا بعد ذلك الحب.

قلت له بصوت مختنق وعيون دامعة، وضع سليم إصبعه على شفتي،
قائلا:

- أشش، لا تفكري بما هو قادم، اتركينا نقتنص تلك اللحظات العابرة من
بين برائن الزمن.

اقترب مني أكثر فسكنت بين ضلوعه، أود أن أخترقها وأقبع بداخلها
طوال العمر، حملني سليم بين ذراعيه صاعدا إلى الأعلى، دلف إلى
غرفته، وضعني على الفراش، عيناه تعانق عيوني، أنفاسه تبتث الروح
بين ضلوعي، شفتاه تسقيني خمرا لذة للشاربين، كانت ليلة من ألف ليلة
وليلة، ليلة حلقت بها فوق مرتفعات السعادة والنشوة، تعانقت به أرواحنا
قبل أجسادنا، حتى صرنا روحا واحدة وجسدا واحدا، جميع اللحظات
الحميمية التي عشتها من قبل كانت بالنسبة لي وسيلة لأول مرة تصبح
غاية، غاية القرب منه.

ذلك الصباح لم يكن صباحا عاديا، فقد انبلجت جفوني على سنا ضوء
شعاع وجهها الوهاج، للوهلة الأولى اعتقدت أنني بالجنة وتلك هي الحور
العين تبتسم لي بثغرها الضاحك، تلمست خصلات شعرها الحريري
ونظرت داخل لؤلؤتي عينيها المرمريتين، قائلا:

- أحبك..

ابتسمت لي شفتاه تقطران رحيقا مختوما.

- أنا أيضا أحبك وكأن رجال الكون تلخصوا بك أنت.

تلك الأيام عشت أجمل أيام حياتي مع سليم، شعرت كأننا أسرة واحدة صغيرة، حياة محورها سليم ووليد، لأول مرة أعشق حياة المنزل، أنتظر اللحظة التي تجمعني وسليم تحت سقف واحد، كأن الحياة لم تسطر بأوراقها اسم فريدة، أصبحت شيئاً هامشياً، دقائق قليلة يومية نقضيها بالمشفى، الحياة أصبحت كقطعة من الجنة.

عشت مع سليم قصة حب لم تسطرها دفاتر العشاق، كل من كان يرانا يحسدنا على سعادتنا لا يعلم أنها سعادة آثمة تبنى على أنقاض قلب آخر، سعادة كنت أعلم أنها زائلة ولكني أحببتها حتى تمنيت أن تدوم، لحظات سرقتها من رحم الحياة، لم أكن أعلم أنها لحظات عابرة جادت بها الحياة قبل أن تصفني على وجهي وتلقي بي داخل جوفها المظلم.

ذات يوم كنت جالسة بالأتيليه، أتصفح بعض المجلات الخاصة بالموضة والأزياء، تلك السعادة التي أعيشها أعمت عيوني جعلتني لا أرى سوى الجانب المشرق منها، قدم ماجد من الخارج كان يبدو عليّ الإرهاق والتعب ومسحة من الحزن تزين صفحة وجهي، منذ يومين وأنا أشعر بتعب شديد، معدتي تؤلمني وشهيتي تجاه الطعام أصبحت منعدمة.

- ماذا بك، يبدو عليك الإرهاق والتعب؟؟

قال لي ماجد بعد أن جلس بجواري.

- هل يبدو عليّ التعب لتلك الدرجة؟؟ يبدو أنني أعاني من نزلة برد شديدة.

قلت له وأنا أشعر ببعض التقلصات البسيطة.

- هل سترافقين مسيو رفائيل إلى باريس من أجل أسبوع الموضة؟؟

- لا لن أستطيع، أنت تعلم الظروف التي أمر بها جيدا.

قلت له بنبرة صوت متقطعة، فرد قائلا:

- وأنا أيضا لن أستطيع، فقد تواعدت مع أحدهم أن نقضي عطلة الأسبوع بالإسكندرية.

- مرة أخرى يا ماجد، أنت لن تتوب إلا بعد أن يحدث لك أحدهم عاهة مستديمة.

قلت له، قهقهه عاليا ثم داعب وجنتي بأصابعه مغادرا المكان، غريب هو أمر الحب رغم أننا نعلم جيدا أنه طريق أعوج بنهايته سنلقى حتفنا إلا أننا نسير به بكامل إرادتنا نستقبل الموت بصدر رحب فقط في سبيل الحب، أفقت من شرودي على رنين هاتفى المحمول، تناولته من على الطاولة، كان رقم سليم هو ما يزين شاشته، يا إلهي كيف نسيت ذلك! فمن المفترض أن نذهب اليوم لاصطحاب وليد إلى السينما ومن بعدها نذهب لحضور إحدى عروض التنورة بالغورية، أسرعت في الرد عليه:

- أهلا سليم، كيف حالك، اعذرني لقد انشغلت بالعمل ونسيت موعد اليوم، لحظات وسأكون جاهزة.

قلت له بلهفة وارتباك.

- أنا لست أهاتفك بسبب موعد اليوم، لقد اتصل بي الطبيب رامي وأخبرني أن فريدة تعافت بشكل جيد ومن المقرر خروجها اليوم من المشفى.

قال لي سليم، سقط على رأسي الخبر كصفعة أيقظتني من الحلم الجميل الذي كنت أعيش به، تلجم لساني وهبطت ضربات قلبي.

- ليلي، سأمر عليك بعد قليل لنذهب للمشفى، لن أتاخر.

قالها سليم، ثم أنهى الاتصال، شعرت بألم شديد ببطني، أسرعت مهرولة نحو الحمام، وضعت كلا ذراعيّ على الحوض، ثم أفرغت كل ما بمعدتي حتى العصارة الصفراء نفسها، بعد أن انتهيت صفعت وجهي ببعض من قطرات الماء، ثم نظرت إلى انعكاس وجهي بالمرآة المعلقة فوق الحوض، وقلبي يحدثني أن القادم سيكون أصعب وأشدّ حلقة.

دخل المشفى، دلف كلا من سليم وليلي، متوجهين نحو الطابق الرابع، استقلا المصعد، سارا داخل تلك الردهة الطويلة ذات الحوائط الزرقاء بلون السماء، كان تتراص الغرف على جانبيها، كل غرفة موضوعة عليها لوحة نحاسية كتب عليه رقم الغرفة، استمرا في السير حتى توقفا أمام الغرفة رقم ٦٩، طرق سليم الباب، ثم أمسك بمقبضه، أداره نحو اليسار ثم دفعه للداخل، كانت غرفة ضيقة جدرانها مطلية باللون الأبيض، رائحته تشبه رائحة العقاقير والمنظفات، حين تدخلها تلفحك نسمة برودة غريبة، يتوسطها سرير معدني أبيض اللون بجواره كومود معدني نفس اللون أيضا ملحق بها غرفة حمام، مع نافذة صغيرة تطل على حديقة المشفى، كانت فريدة تجلس على حافة الفراش ترتدي زيا أبيض اللون، بينما تقف بجوارها ممرضة بزيها المعتاد، تقوم بوضع الملابس وكل المتعلقات الخاصة بفريدة داخل حقيبة سفر، دلف سليم إلى الداخل بينما تتبعه ليلي على استحياء.

- كيف حالك اليوم فريدة؟ أرى أنك أصبحت بأحسن حال.

قالها سليم وعلى شفثيه ترتسم ابتسامة، نظرت له فريدة بفرحة، ثم نهضت من على الفراش متجهة نحوه، طوقت عنقه بذراعيها.

- أنا بخير حبيبي، لقد اشتقت إليك كثيرا، لم أكن أعلم أنني أحبك إلى تلك الدرجة.

قالتها فريدة، بينما تقف ليلى أمام باب الغرفة كالظل الغريب، شعرت بغصة داخل قلبها، ها قد عاد الحق لأصحابه وأنت يا ليلى لست صاحبتة، لماذا تشعرين بالغيرة هكذا من الأول وأنت تعلمين أن سليم ليس لك وفي النهاية سيعود إلى زوجته وبيته، حاولت ليلى كتم انفعالاتها وإظهار الفرحة المصطنعة.

- حمدا لله على سلامتك فريدة، جميعنا اشتقنا إليك أيضا، أرجو أن تكوني بخير.

قالتها ليلى وهي تحاول رسم الابتسامة على شفثيها.

نظرت لها فريدة بعدم اهتمام وهي لازالت تطوق عنق سليم بذراعيها.

- أنا بخير يا ليلى، لا تقلقي، سليم أود العودة إلى المنزل أرجوك لقد سئمت المكوث هنا أكثر من ذلك.

لحظات ودلف إلى داخل الغرفة الطبيب رامي، ألقى التحية للجميع بابتسامته المعتادة.

- كيف حال مريضتنا اليوم؟ أرى أنها تعافت بشكل جيد وليست بحاجة إلى المكوث هنا يوما آخر.

- صدقت يا رامي، فأنا بحاجة للعودة إلى حياتي ومنزلي وعملي.

قالتها فريدة رداً على الطبيب رامي.

- حسناً، لكنني أرى أنك بحاجة إلى فترة نقاهة بعيداً عن جو المستشفى والمنزل، ذلك سيحسن من حالتك النفسية والعضوية.

- ماذا تقصد يا رامي؟؟

قالها سليم معقباً على كلمات الطبيب رامي.

- بمعنى أنه من الأفضل أن تأخذ فريدة إلى إحدى المناطق الطبيعية الجميلة مع المداومة على تناول الدواء بمواعيده.

- ليس عندي مانع، فلنذهب إلى أسوان، هي المكان الأنسب في ذلك الوقت من العام.

قالها سليم بينما أنهت الممرضة تحضير الحقيبة، حملها سليم تتبعه فريدة وليلي التي كانت تشعر أنها مجرد فرد احتياط ليس أكثر في تلك اللعبة...

عدنا إلى المنزل بعد أن عرجنا على حضانة وليد لاصطحابه معنا، دلفت إلى داخل المنزل آخر فرد، أشهد على لحظات الحب والسعادة التي تجمع بين ثلاثتهم، وكأني دخان سيجارة تلاشى في الهواء، وقف سليم يحتضن فريدة ووليد، تلك اللحظة تمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتني أهون عليّ مئة مرة من ذلك الشعور القاتل، ها قد عادت صاحبة المنزل لأحضان زوجها، ذلك الفراش الذي احتضنني أنا وسليم

بالأيام الماضية لفظني خارجا وكأنه يقول لي، هذا ليس بمكانك فصاحبتة عادت يا عثرة الحظ.

- ما رأيكم نذهب جميعنا غدا إلى أسوان، فهي بذاك الوقت من العام عبارة عن قطعة من الفردوس على الأرض، ما رأيك ليلى؟؟

قال لي سليم، لينتشلني من دوامة شرودي.

- نعم سليم، ماذا قلت؟؟

- ما رأيك بالذهاب معنا إلى أسوان؟؟

- لا اعذرني لن أستطيع الذهاب معكم، أنتم أسرة واحدة ولا أريد أن أكون مصدر إزعاج لكم.

- بالطبع لا كيف تقولين هذا، ما رأيك يا فريدة؟؟

قالها لفريدة، التي رمقتني بنظرة غريبة شعرت معها أنها تكشف جسدي بها.

- ولم لا يا ليلى.. على الأقل لتعتني بوليد أنت تعلمين أن حالتي الصحية لا تسمح بذلك.

قالت لي فريدة وكأنها تغمد سيفاً آخر داخل جرحي الذي لم يلتئم بعد، أومأت برأسي دلالة على الموافقة، في تلك الليلة لم يغمض لي جفن، وأنا أعلم أن فريدة الآن تسكن بين أحضان سليم، تستنشق عبق أنفاسه تتدثر بعباءة قلبه، أكاد أجن شعور لا يوصف غضب عارم يعتمر داخل قلبي أود لو ذهبت إليها الآن فأجذبها من شعرها وأخبرها أن سليم لي أنا

هو يحبني أنا ولست أنت، وتارة أخرى أشعر بالخزي والعار، نهضت على السرير متوجه إلى المرأة، تمنعت في انعكاس صورتي عن قرب.

- ليلي ما أنت إلا ساقطة، خانت أختها الوحيدة التي ائتمنتها على بيتها، أمثالك وقود الجحيم وحطبها.

هكذا حدثتني نفسي المعذبة بالمرأة.

- لا أنا لست ساقطة، أنا ليس لي ذنب فيما حدث، ومن له على قلبه سلطان، الحب كالمرض يداهنا بأي وقت وأنا مرضت بحب سليم.

قلت لها.

- اصمتي أيتها الغبية، عن أي حب تتحدثين! سليم الذي تقبّع أختك الآن داخل أحضانه، الذي ما إن عادت من المشفى، يعاملك وكأنه لم ينهل يوما من رحيق جسدك، بائسة أنت تستحقين الشفقة.

لم أستطع كبح غضبي أكثر من ذلك، تناولت زجاجة العطر ثم دفعتها نحو المرأة لتضطرم بها وتتهشم إلى قطع صغيرة، كقلبي الذي تهشم على يد سليم.

الفصل التاسع لعبة الحب

(إذا خانك الشخص مرة فهذا ذنبه أما إذا خانك مرتين فهذا ذنبك أنت...
إلینور روزفلت)

الزمان: ٢٨ من ديسمبر ٢٠١٣.

في يوم التالي نهضت متأخرة من نومي بسبب تلك الليلة القاسية، اتصلت على ماجد أخبرته بعدم حضوري وأن يخبر مسيو رفائيل بذلك وأناي بإجازة حتى إشعار آخر، أخذت حماما دافئا ثم خرجت لأعد حقيبة سفري، قرر سليم أن نسافر بالقطار، فهو لا يحبذ السفر إلى أماكن بعيدة بالسيارة، خرجنا جميعا من المنزل، صعدت أنا إلى داخل السيارة، وبالطبع جلست على المقعد الخلفي بجوار وليد، أما فريدة فجلست بجوار سليم، تحتضن ذراعه وكأنها تخشى فراره، نصف ساعة حتى وصلنا إلى محطة القطار، قام سليم بحجز تذاكر السفر، بينما جلسنا في انتظار القطار، دقائق قليلة ووصل القطار، صعدنا إلى داخله، وكما حدث بالسيارة حدث بالقطار، أنا ووليد داخل كابينة وسليم وفريدة داخل كابينة أخرى، وددت لو قفزت من القطار ودهسنى تحت عجلاته كلما أتذكر أنه الآن بين أحضانها، تتلمسه تتحسس جسده، كانت من أصعب أوقات حياتي التي مررت بها، وما ألمني أكثر هو تجاهل سليم لي المتعمد وكأنه يخشى أن تعلم فريدة ما بيننا، التجاهل بالحب أصعب من الموت نفسه، فالموت يقتلنا مرة واحدة أما هو فيقتلنا بالدقيقة الواحدة ألف مرة.

استمرت الرحلة من القاهرة إلى أسوان ما يقرب من خمس ساعات، وصلنا في تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أمام فندق، استقلنا سيارة أجرة من أمام المحطة نحو فندق.

Movenpick resort aswan الذي يطل على النيل مباشرة، كان سليم قد حجز لنا غرفتين سابقا، إحداهما له وفريده والأخرى لي ووليد.

صعدنا إلى الغرف مرهقين ومجهدين من عناء الطريق والسفر، كانت الغرفتان ملاصقتين لبعضهما، دلفت إلى الغرفة وأنا أشعر بنار الغيرة تلتهم كل ما هو أخضر ويابس داخل روحي، شعور قاسٍ جدا أن تجد من تحب بين أحضان غيرك، ما الذي يخبئه لك القدر أكثر من ذلك يا ليلي؟

غرفة بيضاء ناصعة البياض، ضوء مسلط على عيني يحجب عني الرؤية، أشباح بيضاء تلتف حولي، أين أنا؟؟ ها أنا أتسطح على سرير معدني بمنتصف الغرفة، عارية الجسد ببطن منتفخة أشعر بألم رهيب، وكأن أحدهم يمزق أحشائي بسكين بارد أتلوى من الألم، أصرخ بشدة، فجأة وجدت سليما يقف بجواري يرتدي زي الأطباء أبيض اللون، نظرت له بتوسل وعيون دامعة، أمسكت بذراعه بينما وضع هو أنامله فوق شفتي، وعلي شفتيه ابتسامة مخيفة، تناول من على الطاولة المجاورة له شفرة حادة نصلها يلمع بالضوء، ثم اقترب من بطني، تحسسها برفق، ثم دنا بأذنه عليها، أمسك بالشفرة رفعها عاليا، ثم هبط على بطني يشقها شقا، أصرخ كما لم أصرخ من قبل، الألم يمزق نياط قلبي، الدماء تتناثر بكل مكان، ثم سمعت صوت صرخات طفولية، نظرت بطرف عيني، وجدت سليم يحمل طفلا من قدميه بشع المنظر أسود الوجه بعيون مشقوقة طوليا، تتساقط قطرات الدماء من جسده،

نظر الطفل تجاهي وابتسامة اعتلت صفحة وجهه كشفت عن لسان مشقوق نصفين، وضع سليم الطفل بجواري قائلاً:

- إنه طفلنا يا ليلي، جميل أليس كذلك؟

كان ذلك قبل أن أفقد الوعي وأتوه في دوامة الأحلام.

استيقظت في صباح اليوم التالي أشعر بكل ذرة من جسدي تنن بالوجع، ذلك الكابوس الذي داهمني الليلة كان مؤلماً حقاً، وكأنه حقيقة وليس من صنع عقلي، لازلت أشعر ببعض التقلصات إلى الآن، نهضت من على الفراش متوجهة إلى الحمام، نفضت جميع ملابسي من على جسدي، أدرت مقبض المياه، لتتهمر زخات المياه الدافئة على جسدي، ليبتها تغسل روحي هي الأخرى عليها تشعر بالأمان.

أسوان تلك المدينة الساحرة كأنها قطعة من جنة الله على الأرض مشرقة كأن الشمس تعانقها، مازالت تحتفظ بعذريتها الجميلة، تقف شاهدة على تاريخ عظيم شيد على ضفاف نيلها البديع بزرقه مياهه العذبة، تشعر بها بدفء غريب وجوه سكانها البشوشة وابتساماتهم البريئة، معابدها العريقة التي تأسر العقول من شدة جمالها، أخذنا سليم في جولة سياحية إلى معبد أبو سمبل، ذلك المعبد الضخم المنحوت في وسط الجبل والمرسوم على الجنيه المصري والتي تتعامد الشمس على منطقة قدس الأقداس به مرتين بالعام في الثاني والعشرين من فبراير والثاني والعشرين من أكتوبر، تشعر وأنت هناك بعبق التاريخ وأصالته وأنت في حضرة التاريخ الفرعوني القديم، وصلنا إلى هناك، كانت فريدة تتأبط ذراع سليم وكأنها تخشى فراره، تتعمد أن تظهر حبها له أمامي، هل كانت تشعر بأي شيء؟ أما سليم فكان مستسلماً لها بكل سهولة، دلفنا إلى داخل

المعبد، نال دهشتي ذلك الصرح العظيم المنحوت بباطن الجبل، تلك
العمدان الضخمة المنقوشة على جدرانها كتابات مصرية قديمة، تدل
على روعة وعظمة ذلك التاريخ، وقف سليم أمامنا يعدل من هندامه
بينما يرتدي نظارته الطبية.

- اسمحوا لي أن أحدثكم قليلا عن تاريخ ذلك المعبد العظيم.

قالها سليم بلهجة من الافتخار، ثم استطرد قائلا:

- معبد أبو سمبل بناه الملك رمسيس الثاني عام ١٢٢٣ قبل الميلاد
 لعبادة الإله أمون وتم نحت تماثيلين له ولزوجته الملكة نفرتاري تخليدا
لبطولاته وانتصاراته في المعارك كمعركة قادش، ولاكتشاف المعبد
قصة طريفة لعب القدر بها دورا كبيرا، تبدأ القصة في عام ١٨١٢
ميلاديا حينما جاء إلى مصر مكتشف سويسري اسمه جون بيركهات
وقرر أن يذهب إلى النوبة لزيارة المعابد الموجودة هناك وفي يوم ٢٢
مارس ١٨١٣ وصل إلى بلدة أبو سمبل لزيارة معبد الملكة نفرتاري
زوجة رمسيس الثاني وبعد أن انتهى من زيارته أخذ يبحث عن ابنه
الذي كان معه في هذه الرحلة فلم يجده، فبدأ يصعد فوق الرمال
المتراكمة على الجبل وفجأة وجد نفسه أمام رؤوس أربعة تماثيل ضخمة
مدفونة في الرمال وكلها منحوتة في الجبل نفسه، غادر بيركهات أبو
سمبل ليذيع خبر هذا الاكتشاف في جميع أنحاء العالم، وفي عام ١٨١٦
وصل إلى أبو سمبل عالم الآثار الإيطالي جيوفاني بلزوني على رأس
بعثة من الفنيين وتوصلوا في يوليو عام ١٨١٧ إلى اكتشاف المعبد،
وحينما زار بلزوني لأول مرة هذه المنطقة أعجب بمنظر إفريز المعبد
الكبير وتماثيل القردة الستة الضخمة عندما أشرف عليها من بعيد، أخذ

يتسلق المنحدر الرملي حتى ظهرت له رأس تمثال كان المعبد مطمورا في الرمال إلى حد لم يكن يظهر منه سوى رأس أحد التماثيل الضخمة فوق الرمال والتي كانت تغطي البوابة والواجهة التي فوقها، كان تمثال حور- أختي المنقوش بأعلى الباب مدفونا حتى الرقبة وقدر أن الباب موجود أسفل التمثال صاحب الرأس الصقرية على عمق ٣٥ قدما من الرمال الناعمة التي تغوص فيها الأقدام، حرص بلزوني على صنع حاجز من سعف وفسائل النخيل عند المكان الذي ظنون مدخلا للمعبد حمايه له من الردم مرة أخرى، وفى اليوم التالي حضر ثمانون عاملا وبعد الانتهاء من العمل تم تطهير المعبد فيما بعد أكثر من مرة وعلى يد أكثر من عالم آثار حيث اكتشف مقصورة في الجانب الشمالي من الواجهة، وقد سمي معبد أبو سمبل بهذا الاسم نسبة إلى بلدة أبو سمبل التي يقع المعبد على أرضها.

- يا إلهي من الواضح أنك كنت تعمل مرشدا سياحيا من قبل يا سليم حقا لقد نلت إعجابي حقا، من أين لك بكل تلك المعلومات التاريخية!
قالت له بلهجة تعجب.

قام بتعديل وضع نظارته الطبية قائلا:

- أنا اعشق التاريخ المصري خاصة الفرعوني لقد قرأت فيه كثيرا، كما أن حلمي كان أن أصبح عالم آثار ولكن رغبة والدي الملحة في أن أسير على نهجه وأصبح مهندسا هي من ربحت بالنهاية.

قال لي سليم بشيء من الفخر، اقتربت منه فريدة تضع يديها على صدره بينما تنتظر لي مبتسمة.

- سليم زوجي بارع بكل شيء وهل أحببته من قليل!

قالت لي فريدة وكأنها تشد على كلمة زوجي كأنها تود أن توصل لي رسالة مفادها أنه زوجي أنا، ملكي أنا وليس لأحد حق به سواي.

في الأيام التالية لم تسنح لي فرصة انفراد واحدة بسليم، فريدة ترافقه كظله لم تكن تتركه لحظة واحدة، زرنا خلال تلك الفترة أماكن كثيرة بأسوان مثل معبد فيلة ومتحف النوبة وباب الكلابشة وجزيرة سهيل وأخذنا جولة نيلية بالمركب الشراعي، استمتاعي بكل تلك اللحظات تلاشى، أدركت أن سليم ليس لي بطريقة تأبط فريدة بذراعه دائما أشعلت نيران الغيرة بقلبي وكأني شخص منبوذ، هي من تنهل من رحيق حبه بالعلن، أما أنا أختطف لحظات مسروقة من فم الزمن، لم أكن أعلم أن الغيرة موجهة إلى تلك الدرجة.

ذات ليلة شتوية هادئة جلسنا جميعا نتناول العشاء على طاولة المطعم الخارجي الذي يطل على النيل الملحق بالفندق، كانت السماء صافية تتخللها ندف السحاب الرمادية، بينما تزينها حبات اللؤلؤ المضيئة التي تحيط بالقمر الذي يلقي بأشعته على صفحة النيل كأنه يسبح بداخله.

- ليلي إلى متى ستظلين هكذا؟؟

قالت لي فريدة.

- لا أعلم ما هو المغزى من وراء سؤالك.

قلت لها وأنا أعلم بداخلي أن هذا الحوار لن ينتهي على خير، ردت فريدة قائلة:

- ما أقصده أن الوقت قد حان لأن تتزوجي، وتكوني أسرة وبيت،
الاستقرار يا ليلي حياتك هكذا غير مقبولة تماماً وألسنة الناس لا ترحم.

تأجج الغضب بداخلي وكأنها أشعلت فتيل الصمت بداخلي، نظرت إليها
بحدة بعد أن تركت الملعقة من يدي.

- فريدة هذه حياتي أنا، ليس لأحد دخل بها، أتزوج أو حتى أترهبين ليس
لأحد أن يتحكم بأفعالي، ولا يهمني كلام أحد، أنا حرة هل فهمت؟؟
قلت لها بصوت عال ممتزج بغضب.

- أنت لست حرة، أنت لست ببروكسل لتفعلي ما يحلو لك، وأنا لن
أنتظر حتى تتخذ الناس سيرتك علكة بأفواههم، كيف سيكون وضعي
وقتها.

- آاه أنت تبحثين عن وضعك الاجتماعي وواجهتك، لا عن مصلحتي،
حسنا يا فريدة زواج أنا لن أتزوج وتلك المرة الأخيرة التي تتحدثين بها
معي عن هذا الشأن.

قلت لها ثم ضربت الطاولة بقبضة يدي، أزحت الطبق من أمامي ثم
نهضت مغادرة المكان بعد أن حانت مني التفاتة نحو سليم الذي طأطأ
رأسه للأسفل، أود أن أختلي بنفسي بعد أن تسممت دمائي بكلمات
فريدة.

قلتها وغادرت الطاولة لأستنشق بعض الهواء.

كانت ليلة مقمرة، القمر يعتلي بها عرشه السرمدى يسدل ستائره على
الوجود، نسيمات الهواء تداعب صفحة الوجه، أمواج النيل تتراقص

بانسجام تحمل داخل أعماقها أسرار أرواح أبت أن تبوح بسرها لغيره
فلن تجد أفضل منه يحفظ حرمة سرها، سرت بمحاذاة النيل، الهواء
يتلاعب بخصلات شعري تطايرها النسيمات فوق وجهي، أفرك أصابع
يدي ببعضها من شدة التوتر.

- كيف حالك الآن يا ليلي، هل أنت سعيدة بحالك الآن؟؟

قالت لي نفسي اللوامة.

- من فضلك اصمتي لا أريد أن أسمع صوتك الآن.

قلت لها بحة.

- أنت دائما هكذا يا ليلي، تصمين أذنك عن سماع الحقيقة، هل تعلمين
لماذا عرضت عليك فريدة فكرة الزواج؟؟

- لأنها دوما هكذا تنتقدني دائما وغير راضية عن حياتي وكأنها رب
الكون تريد أن تدير حياة الجميع على هواها.

- خطأ أيتها التعيسة، فريدة تشعر بوجود رابط بينك وبين زوجها سليم،
لذلك تريد أن تزحك بعيدا عن طريقها.

قالت لي نفسي اللوامة بعد أن قهقهت عاليا.

- لا أظن ذلك هي فقط تود أن أسير على نهجها ليس أكثر.

قلت لها بصوت متردد وحروف متقطعة.

- ساذجة أنت يا ليلي، منذ متى وفريدة تهتم لأمرك أم نسيت ما فعلته معك سابقا، حين علمت بأمر رسائل الغرام التي كنت تتبادلينها مع أحدهم لم تهدر لحظة واحدة من أجل استغلال الموقف.

- معك حق، دائما ما أشعر كأنها ليست أختي، تتصيد لي الأخطاء دائما وكأنها تتلذذ برويتي أتألم.

- هي تغار منك منذ زمن، ترى بك الأنثى التي طالما تمنيت أن تكون لا يغرنك ثباتها فبداخلها أنثى محطمة، اكسري قلبها قبل أن تكسر قلبك.

قالت لي روعي المعذبة بصوت حاد بثت الخوف بقلبي، فأردفت قائلة وأنا أرتعش.

- لا ليست لتلك الدرجة، هو زوجها بالنهاية، لكن الحب إثم لا يعرف الأعراف.

- حسنا كما يحلو لك، لكن لا تعودني بعد ذلك وتطلبني مني المشورة لأنني وقتها لن أسعفك، والآن ركزي مع ذلك الظل الذي يتتبعك منذ دقائق.

قالت لي، توقفت عن السير ثم نظرت للأسفل بالفعل يوجد ظل يقف بجوار ظلي أطول منه وأشد جسدا، سرت بضع خطوات فسار هو الآخر، توقفت مرة أخرى، وقد قررت أن أعلم ماهية ذلك الشخص السمج الذي يتتبع خطاي لأنفث بوجهه نار غضبي وغيرتي هو الجاني على روحه، استدرت بجسدي للخلف وعلى وجهي أعتى ملامح الغضب أعقد حاجبائي أتوعده بكل ما لذ وطاب من سلاطة اللسان.

- أنت أيها المتلصص السمج، لماذا تتبعني هكذا، ماذا تريد مني أيها المعتوه أنا لن....

قلت له، بينما لم أكمل كلامي، انعقد لساني حين رأيته.

كان شاب في أواخر العشرينات من عمره يرتدي بذلة رياضية سوداء اللون، مفتول العضلات عريض الصدر ممشوق الجسد، بشرته بيضاء تشع وهجا بعيون زرقاء تلمعان على ضوء القمر، خصلات شعره البنية يكبح جماعها على جانب وجهه، ملامحه تدل على وسامة طاغية تجذب الأعين.

- أنا حقا آسف لم أكن أقصد مضايقتك، أنا فقط وجدتك تسيرين وحدك وتحدثين بصوت عال فاعتقدت أن هناك خطب ما.

قال لي بأسف ونظرة خجل تطل من عينيه.

- وما شأنك أنت إن كنت أتحدث بصوت عال أو منخفض أسير وحدي أو مع الشيطان ذاته، ليس لك دخل بذلك.

قلت له بحدة وأنا أشعر ببعض التوتر، فرد:

- عذرا أنا آسف للمرة الثانية، لم أكن أقصد التطفل.

قالها ثم طأطأ رأسه للأسفل بأسى، أدار جسده ثم هم بالرحيل، شعرت أنني قسوت عليه قليلا.

- أنت يا هذا....

قلت له، نظر تجاهي مبتسما وهو يشير بإصبعه نحوه قائلا:

- من أنا؟؟

حانت من بين شفتيّ ابتسامة خفيفة.

- نعم أنت أيها المتلصص، لا تغضب من حدة كلماتي معك أنا فقط أشعر أنني لست بخير لذلك تعصبت عليك لا أكثر.

قلت له بصوت حانٍ، اقترب مني والابتسامة لا تزال على شفتيه.

- لا عليك سيدتي الجميلة، الخطأ مني أنا ليس منك، أعرفك على نفسي، أنا خالد سبع وعشرون عاما تقبل الزيادة أو النقصان، أعمل طبيب أسنان، أقيم هنا بأسوان، أعزب وأبحث عن عروس.

قال لي بطريقة هزلية مضحكة، قهقهت عاليا من كلماته، فضحك هو الآخر تباعا مردفا.

- من الواضح أن جدار الثلج قد بدأ بالذوبان، وزهرة النرجس بدأت في تتفتح، والشعر عثر على ابتسامته.

- اممم يبدو أنك شاعر أيضا، أتحنفي يا ابن شداد.

- ما رأيك أن أرافقك بالمشي، إن لم يكن عندك مانع، أعتقد أنك بحاجة لرفيق يؤنس وحدتك في تلك الليلة القمرية.

أومأت برأسي دلالة على الموافقة.

سرنا سويا نهتدي بالقمر، لا أخفي سرا أنني شعرت بالارتياح وأنا معه، هو شخصية مرحة تدلف إلى القلب مباشرة لديه قدرة عجيبة على امتصاص الطاقة السلبية وبثها مرة أخرى في هيئة طاقة إيجابية، تحدثنا كثيرا وكان كلانا يتشوق لحديث بعد صمت طال لأعوام، أخبرني أنه يعيش وحيدا بعد أن توفي والديه منذ أربعة أعوام، لديه شقيقة تصغره بعامين كانت كل شيء بحياته كان لها الأب وكانت له الأم إلى أن تزوجت منذ عام ثم سافرت مع زوجها إلى الإمارات حيث يعمل طبيب جراحة تجميل، يكره الروتين يميل دوما إلى تجديد نمط حياته حتى لا يشعر بالملل، يعمل طبيب أسنان في مركز طبي بقلب أسوان، يعشق الموسيقى والفن بكافة أنواعه، كما يهوى السفر والتعرف على ثقافات جديدة، حقا يشبهني في الكثير من الصفات.

- كانت فتاة جميلة لكن القدر لم يترك لنا الفرصة لتكتمل سعادتنا، توفت بحادث سير منذ سنوات، تركت بقلبي جرحا صعب أن يندمل.

قال لي بنبره حزن واضحة.

- هذه هي الحياة، دوما ما تأخذ منا من نحبهم وكأنها تصر على أن تصفعنا على وجوهنا بكل قسوة، حتى بعد أن نسترد جزءا من روحنا الضائعة.

قلت له وكأنه فتح داخل روحي طاقة من الذكريات التي ظننت أنها أحييت إلى سلة المحذوفات لكنها لا تتفك إلا أن تطفو على سطح الذاكرة لتعكر علينا صفو اللحظات الهادئة.

- يااه لقد سرقنا الوقت، نحن الآن أمام الفندق الذي أقيم به، حقا لم أشعر بالوقت معك، شكرا لك على هذا الوقت الممتع.

- أنت من تستحقين الشكر على إتاحة الفرصة لي بالتعرف على شخصية جذابة وجميلة مثلك، أتمنى أن يتكرر اللقاء وأن نصبح أصدقاء.

- بالفعل نحن أصدقاء منذ أن تحدثنا، لعلمك يا خالد أنا شخصية من الصعب أن تقبل بدخول أحد لدائرة أصدقائها، فاعلم أنك حقا استطعت أن تأسر قلبي.

رأيت نظرة الخجل الممتزجة بالسعادة داخل عيونه.

- والآن أتركك تصعدين إلى غرفتك، لا بد أنك مرهقة للغاية وبحاجة للنوم.

- معك حق، سعدت جدا بلقائك خالد.

- وأنا أيضا ليلى.

صافحته ثم توجهت نحو الداخل، لم أكد أكمل بضع خطوات حتى تنهى لمسامعي صوته.

- أنسة ليلى إذا سمحت.

أدريت جسدي تجاهه متسائلة.

- نعم خالد هل هناك خطب ما؟؟

قلت له، فاقترّب مني ثم أخرج ظرفاً أزرق اللون من جيب قميصه.

- تلك دعوة لحضور حفل المطربة شيرين بفندق sofitel legend، كنت مختار من الشخص المناسب الذي يستحقها، صراحة لم أجد أفضل منك لذلك كما سأكون في غاية السعادة إن قبلتها.

شعرت بالخجل من إطرائه، تناولت الدعوة منه.

- يسعدني قبول دعوتك فأنا أحب صوتها جداً.

- حسناً الحفلة غداً في تمام الساعة العاشرة مساءً، قبلها بساعة سأكون أمام الفندق أنتظرك ما رأيك؟؟

- حسناً سأكون جاهزة بالموعد.

قلت له، ثم صافحته مرة أخرى، دلفت إلى داخل الفندق وأنا أشعر بسعادة غريبة تملأ روحي.

صعدت إلى الطابق السابع حيث غرفتي، أخرجت المفتاح من جيب بنطالي، ثم أولجته برتاج الباب، أدركته مرة واحدة فقط، ثم وجدت أحدهم يجذب ذراعي بقوة من الخلف، نظرت إلى الخلف كان سليم يقف عيناه تطلق شراراً وجهه كبقعة دماء من كثرة الانفعال.

- ذراعي هل أنت مجنون! اترك ذراعي الآن أنت تؤلمني.

قلت له بحدة.

- مع من كنت منذ قليل؟؟

قال لي بصوته الجهوري الغاضب.

- لم أكن مع أحد، من فضلك اترك ذراعي!

- وماذا عن ذلك الشاب الذي كنت تقفين معه خارج الفندق منذ قليل، وكنت تبترسين له، لقد رأيتمكم بعيني، أنا لست ساذجا يا ليلي!

شعرت بالارتباك لأول وهلة لأبد أنه كان يتلصص عليّ، أجبت قائلة:

- مجرد صديق تعرفت عليه منذ قليل، عرض عليّ أن يرافقني إلى الفندق وأنا وافقت، هذا ما حدث ليس أكثر.

- وماذا عن ذلك الظرف الذي أهداه لك ومعك الآن!

قال لي ثم جذب الدعوة من يدي بعد أن ترك ذراعي.

- إنها دعوة لحضور حفل للفنانة شيرين، ثم ما شأنك أنت بذلك هل أنا زوجتك حتى تستجوبني بتلك الطريقة!

- أنت أكثر من زوجتي يا ليلي، أنت حبيبتي.

- حسنا أعطني الدعوة واطركني أدخل الغرفة واذهب أنت الآخر إلى غرفتك قبل أن تشعر فريدة بشيء.

جذبت الدعوة من قبضته، ثم دلفت إلى داخل الغرفة بينما تركته يتجرع كؤوس الغيرة الحارقة.

أغلقت الباب خلفي، ثم استندت بظهري عليه، لا أعلم لماذا شعرت بالإنارة والسعادة، أغمضت عيني وعلى شفتيّ ترسم ابتسامة واسعة، سليم يغار عليّ، إذن هو يحبني، راقت لي تلك اللعبة الخبيثة.

- لأول مرة تثيرين إعجابي، ما رأيك بتلك اللعبة؟؟

قالت لي روعي المعذبة.

- لا أعلم على الرغم من سعادتي بذلك لكن أشعر ببعض التوتر والقلق، من يلعب بالنار يحرق بها بالنهاية.

- منذ متى وأنت تخشين أحدا، لا تقلقي ثم إن خالد أنسب شخص ليؤدي ذلك الدور، العاشق المزيف.

- حسنا اصمتي الآن واتركيني أنعم بذلك الشعور اللذيذ.

ثم توجهت نحو الفراش كفراشة خفيفة تحلق بالسماء كراقصة بالية أوشكت أن تطفو بالهواء، تركت لجسدي العنان ليرتطم بالفراش برقة، أغمضت جفوني أحتضن الوسادة حتى نثر سلطان النوم غباره الوردي فوق وجهي.

الزمان: الحادي والعشرون من فبراير ٢٠١٤.

استيقظت في اليوم التالي باكرا، لأول مرة منذ أن قدمت إلى مصر أنعم بذلك النوم العميق الخالي من الكوابيس المزعجة التي بدأت تداهمني، نهضت من على الفراش متوجهة نحو الشرفة، فتحتها ثم دلفت إلى داخلها، كان يوما مشرقا، الشمس تتوسط كبد السماء تلقي بأشعتها الذهبية الدافئة على الأرض رفيقتها القديمة، قطع السحب البيضاء تطفو

في السماء مكونة لوحات سريالية مبدعة، فردت ذراعيّ ثم أغضت عيني أستشق ذلك النسيم الندي، دلفت مرة أخرى إلى الداخل، توجهت إلى الحمام أخذت حماما دافئا نفّض عن جسدي كل ذرات النعاس والكسل، رفضت دعوة فريدة لمرافقتهم إلى معبد أبو سمبل لمشاهدة تعامد الشمس على تمثال رمسيس الثاني بقدس الأقداس، جلست داخل غرفتي أرسم بعض التصميمات الخاصة بالعمل، ثم تفتقت داخل ذهني فكرة لماذا لا أكتب مذكراتي، إنها فكرة جيدة، تركت دفتر الرسم والقلم ثم تناولت حاسوبي النقل من على الكومود، فتحت برنامج word ثم شرعت بالكتابة.

(ليلة أمس تعرفت على شاب يدعى خالد، يعمل طبيب أسنان، شخصية مرحة جدا جذابة من هؤلاء الأشخاص الذين لا تمل برفقتهم أبدا، ما أعجبني بشخصيته هو التفتح وحب الحياة، لكن ما أسعدني حقا هو غيرة سليم التي تلمستها أمس بصوته ونظراته، يقولون إن الغيرة ضرب من ضروب الحب، لا يحلو العشق من دونها، وسليم يحبني وأنا أحبه تلك حقيقة لا مفر منها، قد أكون مخطئة وقد أكون بنظر الجميع فاسقة لكني سعيدة وهذا ما أشعر به الآن).

غفوت قليلا على الفراش، استيقظت في تمام الساعة العاشرة والرّبع، قفزت من على الفراش، هرولت تجاه الحمام، غسلت وجهي ثم خرجت، فتحت خزانة الملابس انتقيت من بينها فستانا ضيقا أسود اللون لامعا لا يتعدى الركبة، عاري الصدر بحمالات، ارتديته ثم انتقيت حذاء نفس اللون ذا كعب عال مع شريطة حريرية زهرية اللون تزين المقدمة، جلست أمام المرأة أصف شعري الذي جمعته على هيئة ضفيرة ثم وضعت بعض الحمرة الخفيفة فوق شفّتي ورسمت جفوني بقلم كحل

أسود، ثم نثرت بعضاً من رحيق عطري الخاص فوق عنقي، كانت الساعة الحادية عشرة، نظرت من الشرفة فوجدت خالد يقف بالأسفل، يرتدي بنطالاً قماشياً أسود اللون وتي شيرت قطنياً أبيض اللون، لوحت له بذراعي ثم هرولت مسرعة نحو الأسفل بعد أن ألقيت نظرة خاطفة على مظهري، خرجت من الفندق أمشي على استحياء ونظرات الإعجاب التي رأيتها داخل عيون خالد اللامعة أربكتني، اقتربت منه.

- ما هذا الذي أراه أمامي، فرجينيا جميلة الجميلات أم فروديت إلهة الجمال الإغريقية أم نفرتاري.

قال لي خالد بعد أن أطلق صفيراً خافتاً.

- لا تبالغ، أنا ليلي فقط.

قلت له بصوت خفيض ممتزج بخجل، فرد قائلاً:

- أنت أجمل ليلي رأتها عيني، اسمحي لي أن أقبل يدك يا سيدتي الجميلة.

حركت رأسي علامة على النفي.

- من فضلك لا تكسري بقلب عاشق ولهان.

كلماته جعلتني أبتسم تلقائياً، تناول يدي ثم انحنى عليها يقبلها، سرت في جسدي قشعريرة خاطفة.

- لنذهب فقد تأخر الوقت، وأنا أريد أن أبدأ الحفل من بدايته.

قلت له أحاول إخفاء ارتبائي وخجلي الذي فضحته وجنتاي اللتان تخضبتا بالدماء.

- حسنا هيا يا وجه القمر.

سرت إلى جواره، استقللنا سيارة أجرة إلى مكان الحفل، كانت من أسعد اللحظات التي عشتها وأكثرها إثارة، أول مرة أستمتع إلى تلك الدرجة منذ أن قدمت إلى مصر، خفة ظل خالد وحس الدعابة الذي لديه جعلني أتحرق من كل القيود، يبدو أنني ربحت صديقا جديدا.

تكررت اللقاءات بيني وبين خالد بالأيام التالية، كان أفضل ترجمان لي بتلك البلدة، كما لاحظت غيرة سليم تزداد يوما بعد يوم تفضحه عيناه لكنه لا يستطيع أن يبوح بها، كما لم تسنح له الفرصة لذلك سواء بسبب فريدة التي لا تتركه للحظة واحدة أو بسبب هروبي الدائم منه، ولا أخفي سرا أن تلك اللعبة راققت لي جدا، لم أكن أعلم أنها بداية النهاية.

ذات يوم قررت أن أذهب لشراء بعض الهدايا لأصدقائي ببروكسل، وبالطبع لم أجد أفضل من خالد رفيقا ومرشدا، ذهبنا إلى وسط البلد حيث تنتشر متاجر التحف الفرعونية والمشغولات اليدوية النوبية، دلفنا إلى داخل أحد المحال.

- ما رأيك بتلك التماثيل النحاسية الصغيرة؟؟

قلت له وأنا أمسك بأحد التماثيل الصغيرة.

- جميلة جدا، لم أكن أعلم أن ذوقك جميل إلى تلك الدرجة.

قال لي خالد فأصابني سهم الخجل، تركني أنتقي الهدايا ثم ذهب يلقي نظرة على باقي المشغولات، بعد أن انتهيت من شراء الهدايا، قدم خالد وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة.

- هل من الممكن أن تغمضي عينيك قليلا؟؟

- لماذا؟؟ هل هناك خطب ما؟؟

- لا يوجد شيء، هيا ليلي أغمضي عيناك.

- حسنا ها أنا أغمضت عيوني.

قلت له وأنا أغمض عيوني وبدخلي أشعر بإثارة شديدة، شعرت بأنامل خالد تتلمس خصلات شعري ترفعه عاليا ثم أحسست بشيء ما يلتف حول عنقي.

- هيا افتحي عيناك ليلي.

قال لي خالد، فتحت جفوني وجدت خالدا يقف أمامي بابتسامته المعهودة، اقتربت من إحدى المرايا بالمتجر، رأيت عنقي تزينه قلادة فضية فرعونية تنتهي بمفتاح الحياة الفرعوني.

- لا أجد الكلمات التي تعبر عن سعادتي.. شكرا لك خالد..!

- لا شكر بيننا ليلي، أنت أصبحت شيئا مهما جدا بحياتي وتلك الهدية تعبير بسيط عن مدى حبي لك.

شعرت بالارتباك من كلماته التي لا تحمل سوى معنى واحد أنه يحبني،
يا إلهي من الواضح أن لعبة الغيرة التي أخذ بها خالد بيدقا بدأت تتحول
إلى حقيقة والبيدق يود اتخاذ خانة الملك، ما العمل يا ليلي خالد لا
يستحق مني ذلك!

- ليلي، أين أنت؟؟ من الواضح أنك ذهبت بعيدا.

قال لي خالد لينتشلني من دوامة شرودي.

غادرنا المتجر نحمل أكياس الهدايا، أصر خالد أن نجلس على أحد
المقاهي الشعبية النوبية.

تناولنا القهوة سويا، ثم قمنا بجولة سياحية بعربة الحنطور في شوارع
أسوان الجميلة، كان يوما مميزا.

عدت إلى غرفتي بتلك الليلة، على الرغم من السعادة التي أشعر بها إلا
أن قلبي يحدثني أن القادم أسوأ، حملت حاسوبي النقال ثم جلست بالشرفة
على كرسي خشبي هزاز، كانت ليلة ذات طابع صيفي نسيمات الهواء
تحمل لمسة حرارة دافئة، السماء صافية مزينة بالقناديل المضيئة
يتوسطها القمر ملك متوج على عرشه.

شرعت بالكتابة.

(اليوم شعرت بطاقة حب من خالد، تلك اللعبة التي راققت لي من
الواضح أنها ستتقلب عليّ، لا أنكر إعجابي الشديد به لكن كصديق ليس
أكثر، أنا لم أحب بحياتي أحدا غير سليم، هو من استطاع أن يتربع على
عرش قلبي، أعلم أنه حب آثم ليس له روح، ونهايته ستكون مأساوية،

لكن ليس بيدي لو كان الأمر بيدي لاقتلعت قلبي ودفنته وواريت عليه
(الثرى).

بالأيام التالية حاولت قدر الإمكان أن أتخاشى اللقاء بخالد لكن لم أستطع
بكل مرة كان يستطيع بها التغلب على دفاعاتي بحسه المرح، تعرفت
عليه أكثر حتى إنني زرتة ذات مرة بمحل عمله، ومع كل مرة كان
يصدق حدسي بأنه يكن لي مشاعر حب خفية تفضحها عباراته، نظراته،
ابتساماته، اهتمامه الملحوظ، وعلى الرغم من ذلك تعمدت الصمت،
تعمدت أن أتصنع اللا مبالاة فقلبي لن يتحمل جرحا آخر، وكل مرة
أقرر بها أن أنهي تلك اللعبة للأبد، كانت الغيرة التي أراها بعيون سليم
تدفعني للمضي بها، كما كنت أظن أن تلك اللعبة ستنتهي بمجرد
مغادرتي لأسوان وعودتي إلى القاهرة، إلا أن الواقع كان غير ذلك.

انتهت مدة إقامتنا بأسوان، استيقظت في ذلك اليوم صباحا أخذت حمامي
اليومي ثم أعددت حقيبة ملابسي وملابس وليد بينما ذهب سليم لشراء
بعض الاحتياجات الضرورية التي يحتاجها الطريق، جلست على طرف
فراشي، تناولت الهاتف ثم قمت بالاتصال على خالد لأودعه عازمة
على أن أنهي تلك العلاقة للأبد وأقطع أي خيط أو بارقة أمل لديه.

- صباح الخير خالد، كيف حالك اليوم؟؟

- أنا بخير، أنت كيف حالك؟؟

قال لي خالد بصوت ناعس.

- بأفضل حال، من الواضح أنني أيقظتك من النوم، آسفة لكن أحببت فقط
أن أودعك قبل أن أعود إلى القاهرة.

أحسست أنه انتفض من مكانه قائلاً بصوت يحمل الدهشة:

- ماذا؟؟ هل ستغادرين أسوان اليوم؟؟

- نعم لقد انتهت مدة الإقامة هنا، ولا بد أن أعود إلى عملي وحياتي.

- حسنا ليلي، أود أن أطلب منك طلباً أخيراً إذا سمحت.

- ما هو هذا الطلب خالد؟؟

- أود أن أقابلك بعد قليل على شاطئ النيل قبل أن تسافري من فضلك لا ترفضني.

قال لي خالد بلهجة توسل، وافقت على طلبه، ارتديت شالاً صوفياً فوق كتفي ثم ذهبت لأقابه.

- - - - -

على شاطئ النيل حيث السماء تعانق الأرض والشمس تجود بأشعتها الدافئة عليها، زرقة النيل مع قطع السحب البيضاء تكون لوحة ربانية مبدعة، وقف خالد يرتدي بنطالاً قماشياً أبيض اللون مع قميص بذات اللون ينتعل حذاء رياضياً أسوداً، كل دقيقة ينظر إلى ساعة يده، يقف متوتراً حتى لاحت من بعيد، كحورية البحر كما يراها دوماً، تنهادى في مشيتها تشرق كشمس الأصيل، اقتربت منه، ساد صمت طويل لم يقطعه سوى رنين هاتف ليلي، نظرت إلى الهاتف الكامن في قبضة يدها.

- إنها فريدة أختي، أرسلت رسالة نصية تخبرني ألا أتأخر بالعودة، فلقد أخبرتها عنك من قبل.

قالت ليلي خالد وهي تنتظر داخل عينيه بعيون منكسرة بسبب أشعة الشمس.

- وأنا لا أريد أن أسبب لك إحراجا، لذلك لن أطيل عليك، من بعد وفاة خطيبتي السابقة ظننت أن الدنيا انتهت مع موتها، وأن قلبي أصبح قطعة حديد صدئة لا تصلح لأن تنبض لأحد آخر، لكن عندما رأيته أحسست بخفقان، شعرت أنه بدأ يعمل من جديد، كل المشاعر التي اعتقدت أنها غادرت روحي بلا رجعة عادت من جديد، أصبحت أفكر بك دائما، أصبحت مصدر سعادتي وابتسامتي، شغلت كل تفكيري، أود أن أصبح دائما بالقرب منك.

قالها خالد لليلي بصدق، فردت ليلي قائلة:

- أنا أيضا يا خالد، سعدت كثيرا بمعرفتك، الأوقات التي قضيتها معك كانت من أسعد أوقات حياتي، غيرت نظرتي للحياة بروحك المرحية وطيبة قلبك، حقا لن أجد أفضل منك صديقا.

شعر خالد بالإحباط من جملة ليلي الأخيرة، فهو يتطلع إلى ما هو أكثر من ذلك.

- لكني لا أود أن نصبح أصدقاء يا ليلي.

- ماذا تقصد؟؟

- اسمعي يا ليلي سأقولها لك بلا خجل، أنا أحبك وأود أن أعيش بقية حياتي معك، أود أن أتزوجك.

نزلت كلمات خالد كالصاعقة على رأس ليلي، هذا ما كانت تخشاه حقا،
وها هو أصبح حقيقة، سهم الحب أصاب قلب خالد، لعبة ليلي لإثارة
الغيرة بقلب سليم انقلبت عليها، انعقد لسانها عن الكلام، حادت بنظرها
عنه تنتظر نحو النيل عله يسعفها.

- خالد، أنت شاب ممتاز وسيم وناجح وأي فتاة تتمنى الارتباط بك،
لكني أرى أنك تسرعت في طلبك هذا، نحن لا نعرف بعضنا سوى من
فترة قليلة، أنت لا تعرفني جيدا وكيف هي حياتي، أنا بداخلي ندوب
كثيرة حتى وإن وافقت على طلبك ستصبح كشوك الورد كلما أردت أن
تلمسها ستجرحك وأنا لا أرغب لك ذلك.

قالت له ليلي بصوت حزين وحروف متقطعة، فأسرع خالد قائلا:

- ليلي أرجوك فكري جيدا بطلبي، أنا لا أريد منك جوابا الآن، خذي
وقتك وأنا سأنتظر منك مكالمة تخبريني بها بردك النهائي وبكلتا
الحالتين ستظلين ليلي التي أعادت النور إلى قلبي.

صمتت ليلي، لا تملك أي كلمة ترد بها على خالد، المتيم بعشقها،
النفوس البشرية معقدة جدا دوما ما تبحث عن المتاعب، القلب يبحث
عن من يؤلمه ويترك من يجبر بخاطره، تبا لك يا قلب! تعشق الألم
وتتغذى على الجروح..!

الفصل العاشر كوايسس مقيية

(إذا وقعت في الفخ فعليك أن تخرج منه وحدك وإذا لم تستطع فتقبل مصيرك بشجاعة.. إبراهيم الكوني)

عدت إلى القاهرة، لم أستطع البقاء أكثر من ذلك في منزل فريدة، حملت حقيبتني وعدت مرة أخرى إلى الفندق بينما أعيد تجهيز منزل والدي بالمقطم، مرت أيام كثيرة بين العمل وكتابة مذكراتي، كم كنت أشتاق إلى الجلوس مع ماجد وأن أبوح له بكل ما يعتمل داخل صدري عله يجد لي مخرجاً من ذلك المأزق المشاعري الذي أوقعت نفسي به، قلبي يحدثني بأن سليم وحده بداخله لا شريك له، وعقلي في بعض الأحيان يقول لي إن خالد فرصة جاءت لي على طبق من فضة إنسان يحبك ويخاف عليك فماذا تريدين أكثر من ذلك، أبدأ معه حياة جديدة خالية من الألم والخوف من المستقبل لكن أعود مرة أخرى وأرجح كفة قلبي.

انتهيت من إعداد المنزل، حملت حقيبة السفر واستقلت سيارة أجرة إلى هناك، طوال الطريق أفكر بك ما مررت به منذ أن جنّت إلى هنا، أرى القادم طريقاً مظلماً لا ضوء به، بارد كبرودة خريف المشاعر، ها أنت يا ليلي تعودين إلى المنزل الذي شهد لحظات ضعفك وخوفك، كنت تعتقدين أنك لن تطأ قدمك به منذ آخر مرة بصقك بها والدك خارجه دون رجعة، حينها أقسمت ألا أعود إليه ثانية، لكن أشعر بخوف داخلي وكأنه سيفتح بقلبي بوتقة جاهدت كثيراً أن أغلقها، وصلت أمام المنزل، ساعدني السائق على إخراج الحقيبة، أعطيته الأجرة وغادر، كان المنزل يقع بشارع كبير معظمه منازل هجرها أصحابها حتى أصبحت

اشباحا، جميع المنازل على نفس الطراز موضة الثمانينيات، لفحتني نسمة هواء باردة، أثارت الذعر داخلي وكأني ورقة خريف هشة تتلاعب بها الرياح في يوم عاصف، استجمعت شجاعتي وخطوت داخل المنزل، دفعت البوابة الحديدية بذراعي مصدرة أزيزا خافتا يدل على أنها لم تفتح منذ زمن، استقبلتني الحديقة الصغيرة التي طالما لعبت بها وأنا صغيرة وكأن تلك اللحظات كانت أمس لم يمر عليها سنوات، الأشجار قد جفت والزهور قد ذبلت، سرت حتى أصبحت أمام باب المنزل، وضعت حقيبة السفر جانبا ثم أخرجت من حقيبتني اليدوية مفتاح المنزل الذي أعطتني إياه فريدة، أولجته برتاج الباب ثم أدركته مصدرا تكات متتالية، أمسكت المقبض ثم دفعته للداخل، استقبلتني رائحة طالما كانت محببة لقلبي إنها رائحة أمي لم تغادر المنزل بعد، حملت الحقيبة ودلفت للداخل، كان المنزل مكونا من طابقين، الطابق الأول عبارة عن حجرة معيشة كبيرة بها طاولة لتناول الطعام، يصل بينها وبين الطابق الثاني سلم خشبي على الطراز العثماني، الطابق الثاني به غرف النوم، وقفت أنظر إلى المنزل من الداخل، صور أبي وأمي المعلقة على الحائط، ذكريات كثيرة عالقة بذهني، توجهت إلى الأعلى، صعدت درجات السلم مصدرة أصوات خافتة كأنها تنن من الألم، سرت بالردهة التي تصل الغرف ببعضها، وقفت أمام غرفتي أمسكت المقبض ثم أدركته دافعة الباب للداخل، دلفت إلى داخلها، مازالت كما هي منذ أن تركتها، ها هو سرير الوردي الصغير وها هي مكتبتني الصغيرة التي بها مجلات وقصص أطفال، ألعابي القطنية الصغيرة، أتذكر تلك الدمية باربي لم يكن يغمض لي جفن إلا وهي داخل أحضاني، مكتبي الخشبي الصغير الذي كنت أدرس عليه وأكتب عليه خواطري وأشعاري، وضعت الحقيبة فوق الفراش، أخرجت محتوياتها ثم وضعت الملابس

داخل خزانة الملابس خاصتي، توجهت إلى الحمام أنفض ذرات التعب والإرهاق من على جسدي، ثم نمت كما لم أنم من قبل.

نهضت من على الفراش في منتصف الليل أشعر بعطش شديد، توجهت خارج الغرفة، كانت الإضاءة خافتة تتراقص وتهتز كأنها توشك على الرحيل، وأنا بطريقي إلى الأسفل سمعت أصواتا صادرة من غرفة والداي، دب الرعب داخل قلبي، فمن المفترض أن الغرفة خالية ليس بها أحد بل لا يوجد سواي بالمنزل! تقدمت بخطى مرتعشة قدمي تصطكان ببعضهما البعض، اقتربت من الغرفة، وضعت أذني على الباب وأرهفت السمع.

- ما فعلته كان خطأ كبيراً! أنت بذلك تظلم الفتاة وتظلمني أنا الأخرى، من فضلك تراجع عن قرارك!..

كانت تلك الكلمات صادرة من صوت امرأة.

- الظلم هو أن أجعلها تنال قرشا واحدا من أموالي، تلك نقطة خبيثة أنت من جلبتها إلى المنزل، فلتتحلي عاقبة أفعالك.

كلمات كانت صادرة من صوت أجش بث الرعب داخل قلبي، ردت المرأة قائلة:

- لا تظن أنني جاهلة بما تفعله، وبالفعل كان خطئي، هي تذكرك بها أنفاسها ملامح وجهها حركاتها لكن لم أظن لوهلة أن تسول لك نفسك فعل هذا العمل الخبيث.

- اخرسي وإياك أن تتفوهي بحرف واحد وإلا دفعتك خارج المنزل أيتها العاهرة!

قالها الصوت الأجش ثم ساد صمت طويل ظننت معه أن ما سمعته منذ قليل كان وهما، محض خيال، لكن حين فتح الباب وخرجت منه ذراع مشعرة ذات مخالب طويلة أرادت أن تقتنصني، صرخت بصوت عال وهرولت مسرعة نحو الأسفل، تعثرت قدمي بالسلم فتدحرجت عليه نزولا حتى ارتطمت بالأسفل.

استيقظت من هذا الكابوس المزعج على صوت جرس المنزل وطرق عالٍ بالأسفل، نهضت من على الفراش، تتساقط حبات العرق الباردة من فوق جبينني، وضعت شالا صوفيا فوق كتفي، كانت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، ليلة خريفية ممطرة تتساقط زخات المطر من السحب الرمادية كمخزون ثقيل ناءت بحمله، أصوات الرعد تصم الأذان والبرق يشق السماء كسيف حاد، هرولت مسرعة نحو الأسفل، وقفت خلف الباب.

- من بالباب؟؟

قلت فلم يصلني أدنى رد، كررت السؤال مرة أخرى في تلك المرة سمعت صوت ارتطام أحدهم بالخارج، دب الرعب بقلبي، بيد مرتعشة فتحت الباب، فوجئت بسليم ملقى على الأرض، ملابسه مبللة بالكامل يهذي! دنوت منه.

- سليم ما الذي أتى بك إلى هنا بهذا الوقت!! سليم!

نظر لي بعيون شبه مغلقة يتحسس وجنتي.

- ليلي.. أنت.. أحبك...

قال لي سليم بلسان ثقيل تفوح من بين حروفه رائحة الخمر، ساعدته على النهوض ثم استند على كتفي، دلفت به إلى الداخل، أجلسته على الأريكة ثم هرولت إلى الأعلى، دلفت إلى حجرتي جلبت غطاء قطنيا، ثم أسرعت نحو الأسفل مرة أخرى جلست بجواره، وضعت الغطاء فوق جسده، ثم احتضنته بشدة.

- ليلي، أنا أحبك كثيرا أرجوك لا تبعدي عني مرة أخرى.

قال لي سليم.

- اششش، اصمت أنت ترتعش، يبدو أنك أصبت بنزلة برد شديدة.

قلت له بخوف، فرد قائلا بعد أن سعل مرتين:

- لا يهمني ما يصيبني، الدنيا بأكملها لا تعني لي شيئا بدونك، أنت مرضي ودوائي يا ليلي.

فجأة كل الغضب الذي كنت أكنه داخل صدري تجاهه ذاب كالجليد حين تذييه شمس الربيع، وضعت رأسي فوق صدره، تلمس خصلات شعري المبتل ثم طبع قبلة رقيقة فوق شفتي، نهضنا من على الأريكة متوجهين إلى الأعلى، في تلك الليلة لم أغادر أحضان سليم، توقعت داخل حضنه كجنين داخل رحم أمه.

في صباح اليوم التالي استيقظت على صوت رنين هاتف سليم، فردت ذراعي من تحت الفراش أتحسس مكان الهاتف، حتى عثرت عليه تحت قدم سليم، تناولته ثم نظرت به، كان اسم فريدة يصدح على شاشة

الهاتف باسم farida my love أصابني سهم الغيرة، ستظل فريدة
كالشوكة في ظهري كلما أردت أن أستريح تنغزني.

- مهما حدث ستظل زوجته وأم ابنه ولا تنسي الطفل القادم، من أنت
بالنسبة له أيتها التعيسة.

هكذا حدثتني روعي اللوامة، ثارت ثورتني.

- اصمتي أيتها الثرثرة وغادري رأسي.

قلت لها.

اقتربت من سليم الذي كان مايزال نائما وصوت غطيظه عالٍ، ثم
داعبت شعيرات صدره الخشنة، أتطلع إلى ملامح وجهه التي أعشقها.

- سليم استيقظ، هيا أيها الكسول الساعة قاربت على العاشرة.

قلت له بصوت دافئ، تمطع في الفراش ثم فتح جفونه على وجهي
وابتسامة عذبة ارتسمت على شفتيه.

- صباح السكر يا قطعة السكر، هل أنا بالجنة أم ماذا؟؟

قال لي بصوت ناعس، ضحكت من وقع كلماته داخل قلبي، وكزته
بظهر يدي.

- هيا انهض، لقد حاولت فريدة الاتصال عليك أكثر من عشر مرات،
يبدو أنها قلقة عليك، هيا خذ حماما دافئا وارتي ملابسك لقد جفت، في
حين أعد لك الفطور.

قلت له، ثم نهضت من على الفراش عارية، ارتديت قميصا قطنيا طويلا، ثم هبطت للأسفل أعد الإفطار من أجل سليم.

كانت الساعة التاسعة صباحا حين استيقظت فريدة من نومها، تحسست موضع نوم سليم لكن وجدته خاليا باردا، لم يبيت سليم على فراشه الليلة، تذكرت ليلة أمس حين حدثت سليم عن ذلك الشاب الذي تعرفت عليه ليلي بأسوان، حينها احتد عليها بالحوار ثم غادر المنزل، تشعر فريدة بتغير سليم نحوها في تلك الفترة بل في أحواله جميعها، ليس ذلك سليم الذي أحبه وتزوجته، أصبح دائم السهر بالخارج يدخل السجائر وتلك عادة اكتسبها مؤخرا، شارد الذهن دوما، يتحدث كثيرا عن ليلي حتى إنه أمس حين أيقظته من النوم ناداها باسم ليلي، تعلم فريدة جيدا أنها ليست امرأة جميلة وهذه هي عقدتها الأزلية وسبب صراعاها الدائم مع ليلي الفتاة الجميلة الفاتنة التي يقع بحبها كل الفتيان، أما فريدة فلا، دوما ما تشعر بعقدة النقص الداخلي هذا الذي حاولت تعويضه بتفوقها العلمي والعمل، كما أنه سبب عدم رغبتها بعودة ليلي إلى القاهرة، على الرغم من الوجه الجاد الذي تصدره للجميع إلا أن بداخلها امرأة محطمة هشة ببساطة يمكن كسرها، نهضت فريدة من على الفراش تناولت الهاتف ثم اتصلت على رقم سليم الذي لم يرد عليها، شعرت بالقلق عليه مما أدى إلى انقباضات متتالية برحمها، هرولت مسرعة نحو الحمام، أفرغت ما بمعدتها داخل الحوض شعرت معها أنها أفرغت روحها هي الأخرى، صفعت وجهها ببعض الماء، ثم استندت على الحائط تشعر بأن روحها قد عادت مرة أخرى إلى جسدها، احتضنت رأسها بين راحتي يدها، ثم بكّت حتى انهارت قواها وجلست على الأرضية تتحسس بطنها.

- يا إلهي لا أريد أن أموت، من فضلك خلصني منه أنا لا أريده، أعلم جيداً أن ما فعلته وسأفعله إثماً كبيراً لكني ضعيفة وخائفة، لا أريد أن تكون أولى أنفاسه هي آخر أنفاسي.

ظلت فريدة على تلك الحالة حتى تماكنت نفسها، غادرت الحمام ثم عاودت الاتصال بسليم الذي لم يجب عليها أيضاً، ارتدت ملابس العمل، ثم ذهبت توقظ وليد، أعدت طعام الإفطار، ثم جلست تتناولوه هي وطفلها، في تلك الأثناء دلف سليم إلى داخل المنزل.

- أين كنت سليم منذ أمس! لقد أثرت قلقي عليك كثيراً!!!

قالت فريدة لسليم وهي متجهة نحوه.

- كنت بالشركة أنهى بعض التصميمات الخاصة لأحد العملاء المهمين.

قال سليم لفريدة وهو متجه نحو الأعلى، ردت فريدة قائلة:

- حمداً لله على سلامتك، ألن تتناول الإفطار معنا؟!

- لا لقد تناولت الإفطار مع زملاء لي بالعمل، أنا مرهق جداً وأرغب بالنوم.

صعد سليم إلى الأعلى بينما جلست فريدة على طاولة الطعام شاردة الذهن.

مرت أيام كثيرة لم أر بها سليم وكأنها دخان سيجارة تلاشى بالهواء، حتى إنه لم يفكر مرة واحدة أن يتصل عليّ، اشتعلت نيران غيـرتي ولهيب غضبي مرة أخرى، كنت أعلم أن تلك النيران لن تلتهم سوى

روحي ومع ذلك قررت أن أفعل التالي، بأحد الأيام ذهبت إلى منزل فريدة، كان باب المنزل مفتوحا دلفت إلى الداخل تلقائيا، تلفتُ بالمكان فلم أجد أحدا، ناديت بأعلى صوتي على فريدة، أجابتي من المطبخ، دلفت إلى هناك، كانت فريدة تجلس على طاولة المطبخ الخشبية، تقطع بعضا من ثمرات الطماطم الطازجة، بينما يوجد أمامها طبق من الفاكهة المتنوعة، أما على الموقد إناء يهتز غطاؤه من شدة غليان ما به، علقت حقيبتي يدي على مسند الكرسي الخشبي ثم جلست عليه أمام فريدة.

- كيف حالك فريدة الآن؟؟

قلت لها.

- بأحسن حال، ما الذي أتى بك اليوم؟ أي ريح تلك التي حملتك إلى هنا؟

قالت لي فريدة بلهجة تهكمها المعتادة.. تشعر أنها لا تتفوه كلاما وإنما قذائف، ابتلعت الإهانة ثم رددت قائلة:

- أود أن أحدثك بأمر هام للغاية..

- وما هو هذا الأمر الهام.

قالت لي ثم نهضت من على الكرسي توضع قطع الطماطم بالإناء، تناولت ثمرة تفاح حمراء صرت أعبت بها أحاول أن أسلي نفسي بها.

- هل تتذكرين خالد الشاب الذي حدثتك عنه ونحن بأسوان؟؟

- نعم أتذكر جيدا، ذلك الشاب الذي أعجب بك يعمل طبيب أسنان أليس كذلك؟؟

- نعم هو، يريد أن يتقدم لخطبتي، فماذا أقول له؟؟

تركت فريدة ما بيدها حين سمعت كلماتي ثم اقتربت مني وعلي وجهها تعجب وانبهار.

- صدقا تقولين؟؟ مبارك عليك يا ليلي بالطبع توافقين، لن تجدي أفضل منه زوجا لك.

قالت لي فريدة بسعادة بالغة، تصنعت الفرح قائلة:

- حسنا سأخبره بموافقتي، والجمعة القادمة سيأتي ليتقدم لي رسميا.

اقتربت فريدة مني ثم طبعت قبلة على وجنتي، كانت تلك المرة الأولى التي تقبلني بها فريدة حتى إنني لم أصدق نفسي، جلست فريدة مرة أخرى على الكرسي وقد تبدلت ملامح وجهها إلى العبوس.

- ما بك فريدة هل هناك خطب ما؟؟

قلت لها بلهفة.

- ليلي أود أن أحدثك أنا الأخرى في أمر هام جدا، لكنه سيصبح سرا بيننا.

- ما هو هذا الأمر الهام فريدة؟؟

الفصل الحادي عشر قرار خاطئ

(تلك الغصة التي تشعر بها كلما تذكرت أحدهم هي ذاتها السكين التي تذبح بها نفسك كلما رأيته... محمود مدين)

الزمان: الجمعة ٢٤ مارس عام ٢٠١٤.

المكان: منزل سمير العصفوري بالمقطم.

بحجرة المعيشة جلس كلا من سليم وفريدة على الأريكة التي تتوسط الحجرة، بينما جلس خالد على الكرسي المجاور لهم، ساد صمت طويل لم يقطعه سوى قدوم ليلي تحمل بين يديها أكواب عصير البرتقال الطازج، وضعت الأكواب على الطاولة ثم جلست على الكرسي المقابل لخالد ترتدي فستانا زهري اللون.

- سلمت يداك.

قال خالد لليلي وهو يتناول كوب العصير بابتسامة هادئة ردتها ليلي بنفس الهدوء، بينما يجلس سليم كمن لدغه عقرب يثور ويموج يود لو اقتلع قلب خالد بكلتا يديه، خالد الذي أتى ليختطف حبيبته.

قال خالد بعد أن تناول رشفة من الكوب:

- بالطبع ليلي قد عرفتكم عليّ، فلا داعي لأن أعرفكم مرة أخرى، لقد جئت اليوم لطلب يد الأنسة ليلي، وأرجو ألا تردوا لي طلبا.

- أنت غني عن التعريف دكتور خالد، ونحن لن نجد أفضل منك زوجا لها.

قالت فريدة لخالد، نظر سليم لها بغضب.

- ومن أخبرك بذلك، أقصد قد يكون لليلى رأي آخر غير هذا، بالنهاية تلك حياتها وهي صاحبة القرار.

قالها سليم بصوت متوتر.

- معك حق سليم، إنها حياتي بالفعل وأنا صاحبة القرار النهائي بها لذلك أنا موافقة على الارتباط بخالد.

قالت ليلي موجهة كلماتها لسليم الذي استقبلها على مضض، قالت فريدة:

- بما أن الجميع موافق، ما رأيكم أن نقيم حفل الخطوبة الجمعة القادمة هنا بالمنزل؟

- فكرة جيدة فريدة وأظن أن خالد هو الآخر موافق.

قالت ليلي، أوما خالد برأسه، شملت السعادة الجميع ما عدا اثنين كان كل منهما ينظر للآخر وكأنه طوق النجاة الذي يتشبث به في وجه الطوفان الذي كان من صنع يديه.

الزمان: ٣١ مارس عام ٢٠١٤.

الساعة العاشرة مساء.

المكان: منزل سمير العصفوري بالمقطم.

كان المنزل مزينا من الخارج بعناقيد المصابيح الصغيرة الملونة، جعلته يشع شمسا بقلب الليل، أما بالداخل فكانت جموع الضيوف تعج المكان، أكواب الشرابات تتناقلها الأيادي، تشرف على ذلك فريدة التي ارتدت في تلك المناسبة حلة قطنية سوداء اللون يزينها معطف من الفرو الأبيض، أما خالد فكان جالسا على الكرسي يرتدي بذلة سوداء تزينها رابطة عنق بيضاء، بينما سليم يقف بنهاية المنزل ينفث دخان سيجارته العاشرة، صعدت فريدة إلى الأعلى، طرقت باب غرفة ليلى، ثم دلفت إلى الداخل قبل أن تسمع الرد، كانت ليلى تجلس أمام المرأة ترتدي فستانا مطرزا بخيوط الحرير أبيض اللون مزين بقطع الزمرد عند الصدر مع زهور صغيرة منقوشة بمؤخرته أهداه لها مسيو رفائيل، تنسدل خصلات شعرها العجري على كتفيها، كانت تضع الحمرة فوق شفاهها، اقتربت منها فريدة.

- هيا يا ليلى، الجميع ينتظرك بالأسفل وعلى رأسهم خالد.

- حسنا فريدة ها قد انتهيت ما رأيك؟؟

قالت ليلى، دارت فريدة حول ليلى تنتظر لها بانبهار.

- رائعة، بالتأكيد ستسليبن لب خالد، هل تعلمين أنك تشبهين والدتي كثيرا؟

- نعم أعلم.

قالت ليلى وهي مبتسمة، ردت فريدة قائلة:

- والآن هيا إلى الأسفل قبل أن يمل العريس.

هبطت ليلى درجات السلم تتبعها فريدة، حين أبصرها خالد أسرع نحوها، احتضن يدها داخل راحة يده ثم قبلها، سارا سويا بين تصفيق الجميع وسعادتهم ما عدا واحد فقط كان ينظر لهم بغضب وحرقة، جلست ليلى بجوار خالد، لأول مرة تري ليلى السعادة على وجه فريدة التي اتخذت دور الأم تشرف على الحفل والحضور، اللعبة التي بدأها ليلى تحولت إلى حقيقة، كلما أرادت أن تنتهيها تشعر أن هناك شيئا خفيا يدفعها لأن تستمر بها، بين الحين والآخر تختلس النظرات نحو سليم الذي كانت ملامح الحزن والغضب بادية على وجهه، لا يكاد تنتهي سيجارة حتى تشتعل أخرى، الجميع سعيد وبيارك لهم، لحظات وصدحت أغنية يا دبله الخطوبة، توجهت فريدة نحو العروسان تحمل بين يديها علبة من القطيفة الحمراء، فتحها خالد ثم أخرج منها خاتما ذا فص ألماس لامع، مرره داخل إصبع ليلى كذلك فعلت ليلى المثل حين ألبسته دبله الخطوبة الفضية، صفق الجميع وانطلقت الزغاريد، تناول خالد يد ليلى، ثم نهض رقصا سويا على أنغام أغنية sway، كانت ليلة سعيدة على الجميع ما عدا ليلى التي كانت نظراتها نحو سليم تفضح ما بداخلها كأنه تطلب منه أن يختطفها بعيدا عن هنا، أما سليم التي كانت نظراته تقول إنها حبيبتي أنا لن تكون لغيري.

انتهى الحفل وغادر الجميع، رافقت خالد إلى خارج المنزل حيث إنه كان عائدا إلى أسوان، غادر خالد، عدت مرة أخرى إلى الداخل أشعر بتعب وإرهاق شديدين من تلك الليلة الحافلة.

كانت فريدة تجلس على الأريكة يجلس بجوارها سليم يحمل وليد الذي كان نائما داخل أحضانه، جلست أنا على الكرسي بجوارهم، خلعت حذائي الذي كانت قدمي تئن بداخله تطلب الإفراج عنها.

- هل أنت واثقة من تلك الخطوة التي اتخذتها؟؟

قال لي سليم وهو ينظر لي بغضب.

- نعم واثقة من مشاعري، خالد شاب ممتاز والأهم من ذلك أنه يحبني.

قلت له وكأني أود أن أوجع نيران الغيرة داخل قلبه أكثر من ذلك.

- كانت ليلة رائعة حقا، أنا سعيدة جدا من أجلك ليلي، خالد شاب تتمناه أي فتاة.

قالت لي فريدة، ساد صمت بين الجميع حتى طلبت فريدة من سليم المغادرة، أشرت عليهم بالمكوث إلا أنها رفضت، حمل سليم الطفل تبعته فريدة، غادرا المنزل، أغلقت الباب خلفهم ثم صعدت نحو الأعلى، دلفت إلى غرفتي، جلست أمام المرأة أنظر لانعكاس صورتي.

- هل أنت سعيدة يا ليلي؟ هل راضية عن نفسك؟؟

قالت لي نفسي اللوامة.

- نعم سعيدة، أي فتاة تتمنى أن يحبها رجل ويخاف عليها، وخالد يحبني.

قلت لها بصوت متردد.

- وهل تحبيه أنت أيضا؟؟ وماذا عن سليم؟؟

- أنا مرهقة جدا ولا أرغب بمجادلتك التي لا تنتهي إلا بجرح جديد يشق طريقه نحو قلبي.

قلت لها بصوت داعم، فردت قائلة بسماحتها المعتادة:

- لا تكذبي على نفسك أيتها التعيسة، أنت تحبين سليم وليس بقلبك أحد سواه، أما خالد فما هو إلا أداة لإثارة غيرته.

- نعم أحب سليم ولم أحب غيره، اخرجي من ذهني الآن وإلا قتلت نفسي.

قلت لها بصوت عالٍ ذي نبرة حادة.

توجهت نحو الفراش تذررت بالغطاء ودمعة حارة عانقت وصادتي، أود أن أغمض عيني وأفتحها فأجد كل ذلك كان حلما مزعجا.

بعد يومين من حفل الخطوبة.

كانت الساعة الخامسة مساء حين هاتفنتني فريدة لتذكرني بموعدا، أبدلت ملابسني ثم هبطت نحو الأسفل، خرجت من المنزل أنتظر قدوم فريدة، عشر دقائق مرت حتى قدمت فريدة بسيارتها، صعدت داخل السيارة، ثم انطلقت فريدة بطريقها، لم تنفوه بأدنى كلمة كان يبدو عليها الذعر والخوف الشديد، نظراتها زائغة.

- فريدة أود أن أسألك سؤالا يلح على ذهني بشدة.

قلت لها.

- ليس هناك داع للسؤال فأنا أعلمه جيدا، لماذا قررت أن أخبرك بما أنوي فعله، وأنت بالطبع لم تعتادي ذلك.

قالت لي وكأنها تقرأ أفكارى، أجبت قائلة:

- بالفعل، لذلك شعرت بالغرابة تلك المرة الأولى التي تأتمنينني على سر لك.

- الحقيقة أن السبب هو خوفي، أنا خائفة يا ليلى من أن يحدث لي أي مكروه ولم أجد سواك لتكوني بجواري في تلك اللحظات.

قالت لي فريدة بصوت خائف، جلسنا بعد ذلك صامتتين حتى وصلنا إلى وسط البلد، ركنت فريدة السيارة جانبا، ثم دلفنا إحدى البنايات حديثة العهد، صعدنا نحو الطابق الرابع، سرنا في الردهة حتى وقفنا أمام شقة معلقة عليها لوحة معدنية كتب عليها (عيادة الطبية صفاء السنوسي أستاذة النساء والتوليد وعلاج العقم والحقن المجهرى بكلية طب جامعة عين شمس).

ضغطت فريدة جرس الباب، بعد لحظات فتح الباب قليلا ثم أطلت منه امرأة بدينة الجسد، تمتد بطنها أمامها لأمتار، ترتدي زي التمريض بينما تضع عصا راس بيضاء على رأسها، ملامحها الجامدة العابسة تقبض القلب خاصة تلك الندبة التي تزين خدها الأيسر، ما إن رأت فريدة حتى فتحت الباب على مصراعيه، دلفنا إلى الداخل بخطى مترددة، جلسنا على أريكة جلدية.

- دقيقة أخبر الطبيبة صفاء بحضوركم.

قالت لها تلك المرأة بصوت خشن يشبه نقيق الضفدع، ثم دلفت إلى غرفة جانبية وأغلقت الباب خلفها.

- فريدة هل أنت واثقة من أنك تريدين فعل هذا، صراحة أنا لست مطمئنة، ما زلنا على البر هيا نغادر الآن.

قلت لفريدة بخوف ظاهر بصوتي، نظرت لي فريدة بنفس الخوف.

- ليس هناك وقت للتراجع أو التردد، أنا أفعل ذلك من أجل زوجي وابني.

قالت لي فريدة، لحظات وخرجت الممرضة من الغرفة قائلة:

- الطبيبة بانتظاركما بالداخل تفضلاً.

نهضنا من على الأريكة، أمسكت فريدة بذراعي، كانت يدها ترتعش، دلفنا إلى داخل الغرفة.

غرفة ضيقة ذات حوائط بيضاء، يتوسطها سرير معدني بجواره جهاز إلكتروني كبير، مع ستارة بنهاية الغرفة، كانت الطبيبة تقف بجوار السرير يبدو على ملامحها الهدوء، نحيلة الجسد ببشرة سمراء ترتدي الحجاب يبدو من هيئتها أنها في أوائل الأربعينات من عمرها، كانت ترتدي معطف الأطباء الأبيض ونظارة طبية فوق عيونها.

- أهلا فريدة كيف حالك الآن؟؟

قالت لها الطبيبة بابتسامة سمجة.

- بخير صفاء لكني أشعر ببعض التوتر.

اقتربت الطبية منها قائلة:

- لا تخافي تلك ليست المرة الأولى التي تجهزين بها، سيمر الأمر بسهولة وعلى خير، أطلب منك فقط أن تبدلي ملابسك بالزي الذي هناك.

توجهت مع فريدة إلى نهاية الغرفة، عاونتها على خلع كافة ملابسها ثم ارتدت زيا قماشيا أزرق اللون خاص بغرف العمليات، توجهت فريدة نحو السرير، صعدت فوقه ثم استلقت على ظهرها تعقد ذراعيها على صدرها.

تناولت الطبية قفازات طبية ارتدتها، ثم وقفت عند أقدام فريدة، التي علقت نظرها عليّ، في تلك اللحظة شعرت بخوف شديد عليها تلاشى كل الغضب والخلافات التي بيننا، احتضنت يدها داخل راحة يدي، قامت الطبية بثني ساقيّ فريدة ثم سلطت ضوءا بين فخذيها، قبضت فريدة بشدة على يدي، كانت يدها باردة كبرودة الموتى حتى إني ظننت أنها فارقت الحياة.

بغرفة كبيرة واسعة تطل شرفتها على النيل، يتوسطها مكتب خشبي واسع عليه لوحة معدنية كتب عليها المهندس سليم العرباوي، بجواره طاولة كبيرة عليها بعض التصميمات والمجسمات الهندسية، جلس سليم خلف مكتبه يرتدي بذلة سوداء اللون، أمامه يجلس رجل تخطى الخمسين من عمره بدين الجسد بمعدة مترهلة، أصلع الرأس ذو شارب كث يرتدي بذلة زرقاء اللون.

- لا تقلق سيد محسن، الفيلا ستكون جاهزة بالموعد الذي حددناه إن لم تكن قبل ذلك.

قالها سليم.

- أنا واثق بقدرتك على ذلك، لكنني أود تغيير بعض الديكورات الخاصة بالحديقة.

قالها الرجل البدين، فرد سليم قائلاً:

- هذا الأمر بغاية السهولة، سأرسلك إلى مهندس الديكور الذي نتعامل معه لتعرض عليه كافة التفاصيل التي تود تغييرها.

قالها سليم ثم صدح صوت هاتفه المحمول بنغمة الرسائل، تناول سليم الهاتف، فتحت الرسالة ما إن قرأها حتى احتقن وجهه وعلا صوت أنفاسه، كانت الرسالة من رقم مجهول تحمل التالي:

(زوجتك الآن هي وأختها بطريقها إلى عيادة الطبيبة صفاء السنوسي بشارع... بناية رقم ٥ الطابق الرابع لتجهض طفلها، إما أن تلحقها أو لا).

قرأ سليم الرسالة، قامت ثورة غضبه ولم تقعد، استأذن من عميله ثم أسرع مهرولاً نحو العنوان الذي بالرسالة، استقل سيارته لا يرى أمامه غضبه أعمى بصره، خلال نصف ساعة كان أسفل البناية، صعد الدرج حتى الطابق الرابع، سار بالردهة حتى وصل أمام الشقة، ضغط جرس الباب بعصبية، ثم طرق الباب بعنف، فتحت الممرضة البدينة.

- من أنت وماذا تريد؟؟

قالت له الممرضة، لم ينتظر ليجيب عليها، دفعها إلى الداخل ثم دلف، وقف يتلفت بالمكان.

- أين زوجتي؟؟ أين فريده؟؟

قالها بصوت عالٍ وجهوري، اقتربت الممرضة تمسك بتلابيبه.

- هل أنت مجنون أم ماذا! كيف تدخل إلى هنا بتلك الطريقة!! سأطلب لك الشرطة بالحال.

في أثناء ذلك خرجت الطبيبة صفاء من الغرفة على وقع صوت سليم العالي.

- ما الذي يحدث! من أنت وكيف تقتحم العيادة بتلك الطريقة؟؟ دلال اطلبي الشرطة حالا.

قالت الطبيبة صفاء، بينما أطلت ليلي برأسها من خلف الطبيبة، لم يصدق سليم عينيه، إذن صدقت الرسالة! توجه نحوها.

- ما الذي يحدث يا ليلي، أخبريني حالا؟؟

- لا شيء سليم نحن فقط.....

لم تجد ليلي أي كلمات تسعفها من ذلك الموقف الحرج، دلف سليم إلى داخل الغرفة فوجد فريده تسرع بارتداء ملابسها وهي تنظر إليه بخوف وعيون دامعة، اقترب منها ثم أمسك بذراعها.

- ما الذي تفعله هنا أيتها الأستاذة الجامعية صاحبة المبادئ والأخلاق!

قالها سليم وهو يصرخ بوجه فريدة، ما كان منها إلا أنها شرعت بالبكاء.

عدنا إلى منزل سليم، كانت الأجواء متوترة للغاية، فريدة لا تكف عن النحيب حتى امتقع وجهها، أما سليم فكان يجوب المكان ذهابا وإيابا وعلى وجهه غضب عارم، أما أنا فوقفت بجوار باب المنزل، أعلم أنها القشة التي قصمت ظهر البعير، سليم لن يغفر لي تلك الزلة أبدا لكن ما حدث كان أبعد من توقعاتي.

- كفي عن البكاء وأخبريني، هل كنت تنوين أن تقتلي طفلي القادم، أي أم أنت؟؟ الذي بداخلك قلب أم حجر؟؟

قال سليم بصوت منفعّل، وقفت فريدة كالضحية التي سرقها السكين تلفظ أنفاسها الأخيرة.

- سليم من فضلك اهدأ، أنت لا تعلم شيئا، كل الأمر أن فريدة كانت تخشى أن تفقدك و.

لم أكد أكمل كلامي حتى قاطعني سليم بحدة:

- اصمتي أنت أيتها الأفعى، كل ما حدث بسببك أنت، أنا لا أريدك بحياتنا مرة أخرى، لا أود رؤيتك ثانية.

سقطت كلمات سليم على أذني كالصاعقة التي صعقت روحي وقلبي، سد بها سليم طعنة غادرة بقلبي.

- سليم أنا.....

- ليلى اخرجي الآن من المنزل ولا تعودي له مرة أخرى.

شعرت أن نبضات قلبي توشك على التوقف، ستارة سوداء أسدلت فوق عيني، غمامة طفت فوقها من كثرة البكاء، خرجت من المنزل، أعدو بسرعة، كل ذكرياتي مع سليم مرت من أمام عيني، لماذا تفعل معي الدنيا هكذا! دائما ما تسلب مني كل ما أحبه، بعد أن تداعب وجنتي برفق تصفعني بقوة وبلا رحمة، أي دنيا هذه أنا لا أريدها، أكرهها، لم أشعر بالوقت ولا بالمكان، وجدت نفسي أمام النيل، أطلع إليه بعيون قد جفت دموعها، أريد أن ألقى بنفسي داخل أحضانه عله يصبح أحن عليّ مما سواه، وقفت على صخرة عالية أودع الدنيا والحياة بأكملها.

- ماذا ستفعلين أيتها المجنونة؟؟

قالت لي نفسي المعذبة.

- سأخلص من الحياة بأكملها، لقد سئمت منها لم أجد بها سوى الغدر والألم والحزن، لم تعد تعني لي شيئا.

قلت لها بصوت مختنق.

- لكنني أحبها وأود العيش بها، إذا مت فسأمت أنا الأخرى وأنا لا أرغب بذلك الآن، ثم إن الحياة ما زال بها ما يستحق العيش له.

- أي شيء هذا الذي يستحق العيش لأجله؟ سليم الذي طعنني بخنجر بارد، أم فريدة التي بحياتها ما أحببتي؟

- خالد 'يستحق العيش لأجله، إنه يحبك بشدة، أنت أيضا جربي لمرة أن تحبيه، من يعلم بالغيب فقد يكون بذرة أمل لحياة جديدة.

قالت لي روعي المعذبة بلهجتها الخبيثة.

- فكري جيدا قبل أن تتخذي أي قرار تندمين عليه.

- معك حق إن كانت الدنيا قد أعطتني ظهرها فما الضير من احتضانها من الخلف.

ثم أخرجت هاتفي المحمول من جيب بنطالي، طلبت رقم هاتف خالد، لحظات وصدق صوته من الجانب الآخر، لم أنتظر الكثير.

- خالد هل أنت مستعد أن تتزوجني؟؟

داخل غرفة مكتب ذات جدران عالية مغلقة بورق الحائط لبني اللون، تميزها تلك المكتبة الخشبية الكبيرة التي تحتل إحدى جدرانها تعج بكتب الفقه والتاريخ والمراجع الدينية، كان ذلك مكتب مأذون مصر الجديدة، جلس كل من ليلى ترتدي تنورة سوداء اللون قصيرة على قميص حريري أبيض، بينما جلس أمامها خالد يرتدي بذلة رمادية اللون، جلس المأذون خلف مكتبه الذي يعج بالدفاتر والملفات ووثائق الزواج، نحيل الجسد حليق الشارب يطلق لحيته المهذبة، يرتدي بذلة سوداء اللون مع رابطة عنق حمراء، يقف بجواره رجلان ضخما الجثة.

- البطاقة الشخصية أو أي إثبات شخصية مع صورتين شخصيتين؟؟

قالها المأذون موجهها كلماته إلى خالد وليلى، أخرجت ليلى بطاقةها الشخصية بينما أخرج خالد وثيقة السفر الخاصة به، استلمهما المأذون،

ثم تناول أحد الدفاتر التي أمامه وشرع بكتابة البيانات الشخصية للعريسان، جلست ليلي قلقلة يغزوها العرق، تشعر أنها تسرعت في طلب الزواج من خالد، رفضت ليلي أن تقيم حفل زفاف بل رفضت أن ترتدي ثوب زفاف، كأنها تحاول الهروب من حب سليم أو أن تتناسى الجرح العميق الذي سببه لها، لكن ما ذنب خالد بكل هذا لماذا تخدعه وتجعله يعيش داخل وهم حبها له، اهربى يا ليلي قبل أن تجرحي قلبا كل ذنبه أنه أحبك بصدق، عودي إلى بروكسل إلى حياتك السابقة، حيث لا ألم ولا حزن، ما الذي ربحتيه هنا غير الوجد وحرقه الروح، اهربى يا ليلي اهربى وأنهى ذلك الكابوس المزعج.

- ليلي أين أنت، إلى أين ذهبت بعقلك؟؟

قالها خالد، انتبهت ليلي لسؤال خالد ونظرات التعجب التي على وجه الجميع.

- لا أنا معك، تفضل..

قالت ليلي ثم قال خالد:

- المأذون يسألك، هل تقبلين بي زوجا لك؟؟

شردت ليلي مرة أخرى، يا إلهي أخرجني من ذلك المأزق، سأقول لا، نعم وسأنهي كل شيء وأعود إلى حياتي الهادئة.

- ابنتي هل تقبلين بخالد زوجا لك على سنة الله ورسوله؟؟

قالها المأذون بصوته الهادئ الرخيم، نظرت ليلي نحو خالد تتصنع الالبتسام قائلة:

- نعم أقبل....

قام خالد من على كرسيه، قبل جبهتها، قام الشهود بالإمضاء على وثيقة الزواج، خرجت ليلي وخالد من مكتب المأذون، كانت تشعر أنها مغيبة لا تملك إرادة حرة، كطفل يتيم فقد حزن أمه، تشعر بغربة شديدة كأنها تجهل روحها، لا تعلم أن القادم يخبئ لها ما هو أفظع من ذلك.

الفصل الثاني عشر موتة مع إيقاف التنفيذ

(الآن يستوي القوي مع الجبان... صمويل كولت مخترع المسدس)

المكان: فيلا سليم العرباوي بالمهندسين.

الزمان: الرابع عشر من أبريل عام ٢٠١٤.

دقت الساعة العاشرة مساء بتوقيت القاهرة، كانت فريدة تجلس أمام التلفاز بينما تحيك معطفا صوفيا لطفلها القادم التي فشلت كل محاولاتها بالتخلص منه، لا تريد أن تكرر مأساة والدتها حين أنجبتها، كانت تعاني من نفس المرض الخبيث، تخشى الموت ليس لحبها بالحياة وإنما لا تريد أن تترك زوجها وابنها الذي أنعم عليها القدر بهما، في قرارة نفسها تعلم جيدا أن الحادثة الأخيرة كسرت شيئا بداخل سليم حتى إنه لم يعد ينام بنفس الغرفة، كل ليلة يعود متأخرا يذلف إلى الغرفة التي كانت تقطنها ليلى، تغير كثيرا أصبح دائم الصمت والشرود، بالكاد يتحدث معي، الشيء الذي يمزق نياط روعي، منذ أن قدمت ليلى وقدم معها كل الشر والخراب كانت حياتي هادئة هانئة، لولا رعونتها واستهتارها، هي دوما هكذا تريد أن تمتلك كل شيء وبأي ثمن.

ذلف سليم إلى داخل المنزل، كالعادة لم يتحدث مع فريدة، توجه مباشرة نحو الأعلى.

- ليلى تزوجت أول أمس.

قالتها فريدة لتلقي بقنبلتها الموقوتة على آذان سليم الذي تسمر بمكانه ثم نظر لها بذعر.

- ما الذي تقولينه! ليلى من التي تزوجت وممن؟؟

قالها سليم بصوت متهدج تؤثر عليه الصدمة، قامت فريدة من على الأريكة متوجهة نحوه قائلة:

- ليلى أختي تزوجت أول أمس من خالد، لكنها لم تدع أحدا ولم تقم حفل زفاف وهي الآن تقضي شهر العسل بالإسكندرية.

- بالتأكيد أنت تكذبين، ليلى لا يمكن أن تتزوج من خالد! هي لا تحبه!

تعجبت فريدة من رد سليم.

- وما أدراك بذلك! وإن كانت لا تحبه لماذا تزوجت به وأنت تعلم أن ليلى ليست من النوع الذي يجبر على فعل شيء، كما أنني متعجبة لما كل ذلك الانزعاج!

توتر سليم وبدأ العرق يتساقط من فوق جبينه، يعبث بيده بطريقة عصبية قائلا:

- أنا لست منزعجا كل ما بالأمر أني.. أعتقد أنها على الأقل ستخبرنا بذلك.

- كيف ستخبرنا وأنت بنفسك طردتها خارج المنزل بل وخارج حياتنا بأكملها، كما أنها أرسلت لي تلك الرسالة منذ أمس لكنني لم أكن أراك حتى أخبرك.

ترك سليم فريدة صاعدا للأعلى، دلف إلى الغرفة التي كانت تقطنها ليلى، ثم أغلق الباب بالمفتاح من الداخل، توجه إلى خزانة الملابس، ثم أخرج من بين ملابسها الداخلية، المنديل الذي كانت تضعه ليلى على جبهته حين أصيب بالشجار، جلس على طرف الفراش يلتمسه ثم أدناه من وجهه، يشتم به رائحة ليلى التي ما زالت عالقة به، ثم أقسم:

- بقدر الحب الذي أحببته لك يا ليلى، لن أدعك تهنئي للحظة واحدة بين أحضان خالد، ولأجعلن حياتك معه جحيما!

الزمان: الثاني والعشرون من شهر أبريل عام ٢٠١٤.

المكان: شاطئ البوريفاج بسيدي بشر الإسكندرية.

مر أسبوع كامل على زواجي من خالد، أصر أن نقضي شهر العسل بالإسكندرية، خالد زوج جيد يحبني كثيرا، يتمنى لي الرضا، لا يكل ولا يمل عن تلبية كافة أمنياتي، يبذل كل ما بوسعه وجهده لجعلي سعيدة، الجو هنا ممتع حقا البحر الهادئ بمياهه الزرقاء الخلابة ورماله الذهبية الناعمة الشمس زائر دائم هنا، لكن على الرغم من كل ذلك لا أشعر بأي نوع من السعادة عقلي لا ينفك عن التفكير بسليم، كثيرا ما أحاول ردعه لكنه بالنهاية يتغلب عليّ، أحاول اصطناع السعادة أمام خالد، عقدة الذنب تجاهه لا تفارقني كطوق يلتف حول عنقي يزداد ضيقا يوما بعد يوم، يا إلهي امنحني القدرة على نسيان سليم ومحبة خالد، امنح قلبي السلام، هكذا حدثت نفسي، كنت جالسة على شاطئ البوريفاج ذلك الشاطئ العريق قرأت ذات مرة أن الكثير من الأفلام القديمة تم تصويرها هنا،

كنت أجلس على كرسي خشبي تظللني شمسية كبيرة أرتدي مايوه زهري اللون، أقرأ إحدى روايات الكاتبة أجاثا كريستي (جريمة في قطار الشرق)، حين خرج خالد من البحر جسده يقطر ماء، جلس بجواري يجفف جسده.

- المياه اليوم رائعة، دافئة ومنعشة تدغدغ الجسد برقعة، لا أعلم لماذا رفضت نزول الماء اليوم!

- ليس لي رغبة بذلك، كما أنني أود إنهاء تلك الرواية المشوقة.

قلت له وأنا اقلب صفحات الرواية، رد قائلاً:

- لا أعلم سبب حبك لذلك النوع من الروايات، أنا شخصياً أفضل الروايات الرومانسية.

- اياه تقصد الروايات البوليسية، إنها روايات عبقرية تحفز العقل على العمل وترفع معدل الأدرينالين بالجسد.

لحظات وصدحت رنة هاتف خالد الخاصة بالرسائل، تناول خالد الهاتف من جيب بنطاله ثم نظر بها، لاحظت تغير ملامح وجهه، التي ظهر عليها الذعر، أسرعت قائلة:

- ماذا بك خالد، ما بها تلك الرسالة؟؟

دس خالد الهاتف مرة أخرى بجيب البنطال، ثم نهض واقفاً.

- هيا بنا نعود إلى الفندق فأنا أشعر بإرهاق شديد، وأرغب بالنوم.

قالها خالد بصوت متوتر، غادرنا الشاطئ وقلبي يحدثني أن تلك الرسالة تحمل ما هو أبعد من ذلك، تحمل نهايتي....

عدنا إلى الفندق، طوال اليوم لم يتحدث خالد معي، طيلة الوقت يجلس بالشرفة صامتا، حاولت كثيرا أن أستفسر منه عن السبب، لكن جميع مبرراته كانت واهية بالنسبة لي، إما مرهق، مشاكل بالعمل، لكنني أعلم أن الأمر أخطر من ذلك، تلك الرسالة حملت ما جعله يتبدل هكذا، هو لا يريد أن يشعرني بذلك، جلست أنا أشاهد التلفاز، كانت قناة national geographic تعرض فيلما وثائقيا عن أخطر أنواع الكائنات السامة بالعالم، كان من بينها عنكبوت الأرملة السوداء، تلك الأنثى الصغيرة الهشة الرقيقة التي تقوم بلدغ زوجها الذكر وقتله بعد عملية التزاوج، فعلا المظاهر دائما خداعة فما تحسبه جميلا يحمل بباطنه أقبح مما تتخيل، مرت الساعات وأنا جالسة على الفراش أشاهد التلفاز بينما استلقى خالد بجواري حتى أخذته سنة من النوم، انتظرت حتى تأكدت أن سلطان النوم تمكن من عقله، ثم تسللت من تحت الفراش على أطراف أنامل قدمي نحو الكومود، تناولت هاتفه المحمول، حاولت فتحه لكنه كان مغلقا برمز سري، أجريت بعض التجارب العشوائية التي لم تفلح، كدت أن أياس لكنني تذكرت تاريخ زواجنا، أدخلته فانفتح الهاتف، كنت متوترة جدا وخائفة، دلفت إلى الرسائل، فكانت الطامة الكبرى، أحدهم أرسل له رسالة محتواها.

(زوجتك المصون التي تحبها من كل قلبك وتظن أنها تحبك على علاقة بزواج أختها، وكل ما فعلته كان فقط لإثارة الغيرة بقلبه وإن كنت لا تصدق انتظر مني رسالة قاطعة ستؤكد لك ذلك، ولا تسأل من أنا، أنا فقط فاعل خير).

أصابني الرعب وارتعشت يدي حتى سقط الهاتف منها، أسرعت ووضعت على الكومود، ثم جلست على الكرسي، متفوقة على ذاتي كالجنيين برحم أمه، يا اللهى ترى من بعث بتلك الرسالة إلى خالد، وأي رسالة تلك التى ستؤكد له علاقتنا.

- من غيره يا لىلى؟؟

قالت لى روى اللوامة.

- من تقصدين أنا لا أفهمك؟؟

قلت لها بصوت مرتعش، ردت:

- لا يوجد غيره، سليم بالتأكد علم بخبر زواجك من فريدة فقامت ثورته وقرر أن يهدم المعبد على رأس أصحابه، حين يتحول الحب إلى كراهية فاعلم أن النهاية قادمة.

- معقولة سليم يفعل ذلك! هل جن أم ماذا يريد أن يهدم حياته وحياتي! بالتأكد إنه فقد عقله.

- لىلى، نحن لن ننتظر حتى يهدم المعبد فوق رؤوسنا.

- ماذا أفعل، عقلى يكاد يقف من التفكير لا أصدق ما حدث!

- هل تتذكرين الأرملة السوداء؟؟ افعلى مثلها لكن اجعلى لدغتك تؤلم ولا تقتل، قبل أن يقوم هو بقتلك.

استيقظت في صباح اليوم التالي، أشعر بألم يغزو كل عظام جسدي بسبب نومي على الكرسي ليلة البارحة، نظرت حولي بالغرفة فلم أجد خالداً، توجهت إلى غرفة الحمام، أدت مقبض الماء لتنهمر ساخنة تلهب الجسد، وقفت تحتها شاردة الذهن، أسترجع ذكرياتي منذ أن وطئت قدمي أرض مصر، أشعر أن ما حدث بالأمس كحلم يقظة، تبا لك يا سليم ألم تجد سوى تلك الطريقة لتنتقم مني! ما العمل يا ليلي؟؟ هل أهرب أم أنتظر حتى تتضح الأمور؟؟ عقلي يكاد ينفجر من كثرة التفكير، خرجت من الحمام جسدي يقطر ماء وخصلات شعري المبللة تتضح به، وجدت خالد أمامي يضع حقيبة السفر فوق السرير.

- ما الذي فعله خالد؟؟

قلت له متسائلة، نظر لي وابتسامة تعلو شفثيه:

- سنعود إلى القاهرة اليوم، جهزي نفسك للسفر.

قال لي بصوته الحنون الدافئ كأن شيئاً لم يحدث مما أثار الخوف بقلبي، ما الذي تنوي فعله يا خالد وما الذي يدور بخلدك!!

- لماذا، نحن لم نكمل أسبوعاً بعد! هل حدث أمر طارئ يدعونا للعودة؟؟

- كما تعلمين إن الشقة التي أجرتها للعيادة بمدينة نصر تحتاج للكثير من العمل كما أن صاحب العقار اتصل بي لكتابة العقد.

- حسناً خالد، ساعة وسأكون جاهزة.

- أعدي أنت الحقائب لحين أذهب لإنهاء بعض المعاملات المالية.

غادر خالد الغرفة، أشعر بالخوف الشديد، معنى أنه لم يحدثني بالأمر وعدم تغيير معاملته لي بذلك الشكل، تعني أنه يضمر بقلبه شيئاً سيئاً تجاهي، أو أنه ينتظر الرسالة الأخرى التي تؤكد خيانتني المزعومة له.

الزمان: الأول من مايو عام ٢٠١٤.

المكان: منزل سمير العصفوري بالمقطم.

عدنا إلى منزل أبي منذ أسبوع، الحياة تسير بصورة روتينية بطيئة، حاول خالد إقناعي كثيراً أن نعيش بشقة أخرى لكنني رفضت ذلك وأصررت على أن نظل بالمنزل، كأنه أداة دفاع ضد أي هجمة غادرة منه، جميع أخبار سليم وفريدة انقطعت عني، وكأنهم صفحة قديمة مزقت، كالعادة لم يتغير شيء في معاملة خالد لي، بل إنه فاجأني ذات مرة أنه يرغب بإنجاب طفل منه، ما لا يعلمه أنني أتناول حبوب منع الحمل منذ الليلة الأولى التي تزوجته به، فأنا لا أريد أي شيء يربطني به أي خيط يصل بيننا، الشك والترقب لا يفارقاني، النوم قد خاصم جفوني، كل ليلة أجلس على الفراش بعيون مفتوحة، حتى إذا ما أثقلت جفوني تداهمني الأحلام المزعجة والكوابيس التي أجد نفسي بها مصلوبة على حائط خشبي بوسط الصحراء، عارية الجسد، المسامير تخترق ذراعيّ وساقيّ، شفتاي مشققة جوفي كقطعة الحطب الجافة، أنفاسي خافتة وروحي معلقة بحلقومي، أبحث عن نجدة لكن لا أحد حتى يظهر خالد من السراب، يحمل بيده طفلاً صغيراً بهي الطلعة، ينظر لي وهو يبتسم، أشعر تجاهه بمشاعر غريبة أود أن أحتضنه أن أضمه إلى داخل صدري، يضحك خالد ضحكات مججلة تتم عن أسنان سوداء، ثم

يخرج من جلبابه خنجرا صغير ذو حد قاطع، يمرره على عنق الطفل،
أصرخ بوجهه:

- أرجوك ارحمه اقتلني بدلا منه!!

لكنه لا يستمع لي، يذبحه حتى تتناثر قطرات الدماء على وجهه
وجسدي، يتناول كوبا من النحاس يقطر الدماء داخله، ثم يقربه من
شفتي، يجعلني أتجرعه عنوة مذاقه مر حارق.

يا إلهي، إلى متى سأظل أسيرة ذلك الخوف، لقد سئمت حياتي، ذات ليلة
تسللت من جانب خالد، توجهت نحو بنطاله المعلق، دسست يدي بداخل
جيبه، أخرجت هاتفه المحمول، أدخلت الرمز السري الذي هو تاريخ
زواجنا، لكن الصدمة هو أن الرمز كان خاطئا، حاولت مرارا وتكرارا
ونفس النتيجة، يا إلهي لقد أبدل خالد الرمز السري! إذن هو يعلم أنني
عبثت بهاتفه إذن شكوكي صحيحة وبمحلها، لا لن أنتظر حتى يدق
عنقي تحت حذاء كرامته، ليس هناك حل سوى العودة لبروكسل بأي
طريقة.

الزمان: الحادي عشر من شهر مايو عام ٢٠١٤.

المكان: شارع مصطفى النحاس مدينة نصر.

تحديدا بشارع مصطفى النحاس الذي يعد أطول شوارع مدينة نصر،
بجوار جامعة الأزهر، داخل بناية سكنية مكونة من عشرة طوابق، كان
خالد يجلس بشرفة الشقة الكامنة بالطابق السابع، ينظر إلى السماء حيث
الشمس تعلو بالأفق تداعب أشعتها الدافئة صفحة وجهه، بينما يقوم
عمال الدهان بدهن الشقة التي ستصبح عيادة له، كان شارد الذهن

مشغول البال، منذ تلك الرسالة التي أرسلها مجهول له بشهر العسل والشك بدأ يزحف داخل نفسه، خاصة أنه كثيرا ما لاحظ نظرات سليم المختلفة لليلي في المرات القليلة التي قابله بها، قد تكون لعبة قذرة من أحدهم لهدم حياتي الزوجية السعيدة ولكن من له المصلحة بذلك؟ عقله لا ينفك عن التفكير كل مرة ينظر بها إلى وجه ليلي يتخيلها بين أحضان سليم، كما أن تسللها من جواره كل ليلة للعبث بهاتفه زاد من شكوكه، حتى إنه غير رمز الهاتف السري، لكن اليوم هو اليوم الحاسم، على حد قول فاعل الخير المجهول سيرسل لي تأكيدا لا يقبل الشك لتلك العلاقة الآثمة، بينما يجلس خالد يرتشف من كوب قهوته السادة رن هاتفه المحمول بنغمة الرسائل المميزة، التقط الهاتف من جيب بنطاله، ثم فتح الرسالة، طالعته صورة ليلي وهي بأحضان سليم على فراش واحد، اشتعلت ثورته وثار غضبه، لقد قطع الشك باليقين ويعلم جيدا ما ينوي فعله حتى ينتقم لشرفه، اختار أحد الأسماء من قائمة الهاتف ثم اتصل عليها.

- لابد أن ألتقي بك حالا، الموضوع لا يقبل التأخير، حياة أو موت.

لم أنتظر الكثير حتى أشهد موتي، الإنسان لا يمتلك سوى حياة واحدة لابد أن يحافظ عليها، لذلك ذهبت أمس إلى شركة الطيران، قمت بحجز مقعد لي على أول طائرة ستحلق نحو بلجيكا، ومنها إلى بروكسل، الرحلة تقلع من مطار القاهرة غدا الساعة السادسة مساء، سأحاول قدر الإمكان محو تلك الفترة من حياتي، ليتني لم أغادرها مطلقا ولم أفكر للحظة بالقدوم إلى هنا، كنت بالمنزل أعد طعام العشاء حين عاد خالد من الخارج، كان يبدو عليه الإرهاق والتعب، وضعت الأطباق على المائدة ثم جلسنا نتناول الطعام سويا.

- ما هي آخر أخبار العيادة؟ هل انتهيت من تشطبيها؟؟

- نعم انتهيت من كافة الأعمال المتعلقة بالأثاث، لم يتبق سوى الأجهزة الطبية التي سأعمل عليها، وتلك سأذهب غدا لشرائها من مركز طبي خاص بأسوان يبيعها بسعر مناسب.

قال لي خالد وهو يتناول قطعة جبن، أردفت قائلة وأنا أشعر أن القدر أخيرا قرر أن يمد لي يد العون.

- اه إذن أنت ستسافر غدا إلى أسوان.

- نعم هل تريدني شيئا من هناك؟؟

- لا حبيبي فقط لا تغيب علي كثيرا فأنا أشتاق لك.

- لا تقلقي يومان فقط وسأعود، العمر بأكمله أمامنا.

إن كان علي القلق فأنت معك حق، أما عن العمر الذي سأكمله معك فأعتقد أنك مخطئ، حين تعود لن تجد مني سوى ذكرى قد تمحوها الأيام، بينما نحن هكذا رن هاتفي المحمول، تناولته من على الطاولة، كان رقم مسيو رفائيل.

- مساء الخير مسيو رفائيل، ما به صوتك حزين؟؟

قلت له وأنا أشعر بغصة تعتصر قلبي.

- ماجد يا ليلي ماجد.

قال لي بصوت حزين، رددت قائلة وضربات قلبي كطبول الحرب تكاد تتخلع من بين ضلوعي.

- ماذا به ماجد، أخبرني..؟؟

مات ماجد، بل انتحر، غادر الحياة بأكملها لم يستطع العيش بها أكثر من ذلك، رحل وترك بقلبي هو الآخر جرحا لن يندمل، أخبرني مسيو رفايل أنه وجد بغرفة حمام شقته ملقى على الأرضية، تسيل الدماء من معصمه، بعد أن قام بقطع عضوه الذكري بشفرة حادة، حزنت عليه كثيرا، على الرغم من قصر المدة التي تعرفت عليه بها إلا أنه ذكرني بنفسى، من يرانا من الخارج يظن أن السعادة تسكن قلوبنا ونحن بالحقيقة لا يسكن قلوبنا سوى الألم، ترك ماجد رسالة قبل أن يموت يقول بها.

(قد أكون مخطئا وقد أكون عاصيا، قد أكون آثما وقد أكون فاجرا، لكن بالنهاية إنسان، أراد فقط الحياة، الحياة التي لم تجدْ عليه سوى بالألم والغربة داخل النفس، سأغادر الحياة وأرحل لم أعد بحاجة إليها، أعلم أن البعض سيترحم عليّ والبعض الآخر سيتمنى لي الجحيم، من قال إن من ينتحر يصبح كافرا؟ فقد أكون سئمت الحياة وتعبت العيش بجواره، وصيتي الأخيرة أن أدفن بمقابر عائلتي وإن رفضوا فبمقابر الصدقة واكتبوا فوق قبوري عاش ميتا ومات حيا.... ماجد).

في صباح اليوم التالي استيقظت باكرا، كانت الساعة السابعة صباحا، ما حدث لماجد جعلني أصر على الرحيل بأي طريقة كانت، حتى لا يؤول

مصيري مثله، أعددت حقيبة السفر الخاصة بخالد، ثم توجهت نحوه، وكزته برفق.

- خالد استيقظ، الساعة أصبحت الثامنة صباحا، لقد أعددت لك حقيبة السفر.

استقام في جلسته على الفراش بينما يتثاءب وهو يفرك جفونه.

- صباح الخير ليلى، من فضلك أعدي لي كوب قهوة بينما آخذ حمامي.
قال لي خالد بصوت ناعس.

هبطت إلى الأسفل، أعددت كوب القهوة السادة الخاص بخالد، ثم جلست على طاولة الطعام، دقائق وكان خالد أمامي يحمل حقيبة سفره، جلس بجواري يتناول كوب القهوة.

- ليلي، أود أن أسألك سؤالاً يلح على ذهني.

- نعم خالد تفضل.

قلت له وأنا أشعر بالقلق والترقب..

- لماذا تزوجتني؟ أقصد ما الذي دفعك للارتباط بي؟؟

- سؤالك غريب، لكن سأجيبك، تزوجتك لأنني كنت أبحث عن الأمان والاستقرار الذي افتقدته طوال حياتي، ولأنني تلمست الحب داخل قلبك.

- أنا بالفعل أحببتك ليلى، منذ زمن تزوج شاب من فتاة أحبها كثيرا لدرجة أنه قتلها حتى لا تكون لغيره.

قال لي خالد كأنه يريد أن يوصل لي رسالة خفية مغزاها أنك لن تكوني لغيري حتى لو قتلتك.

ارتشف خالد آخر رشفة من كوب قهوته، ثم نهض مغادرا المنزل، رافقته إلى خارج المنزل، صعد السيارة، ودعته ثم انطلق مغادرا المكان، هرولت مسرعة نحو الداخل، تناولت هاتفى المحمول، قمت بالاتصال بسليم.

- سليم لا بد أن أقابلك الآن، قد تكون تلك المرة الأخيرة التي تراني بها.
قلت له بلهفة.

- ماذا بك ليلى، هل حدث لك مكروه أخبريني؟؟

- من فضلك سليم ليس عندي وقت، أنا مسافرة اليوم لبروكسل ولن أعود مرة أخرى، لا بد أن أراك للمرة الأخيرة، أنا بانتظارك بالمنزل لا تتأخر.

قلت له ثم أغلقت الهاتف حتى لا أترك له المجال للمجادلة، صعدت نحو الأعلى، تناولت حقيبة سفري من فوق خزانة الملابس، وضعتها فوق الفراش، ثم أخرجت جميع ملابسى من الخزانة، وضعتها بداخلها، جمعت كل أشيائى، ثم دلفت إلى الحمام، أخذت حماما دافئا، أبدلت ملابسى ثم جلست أنتظر قدوم سليم.

كانت الساعة العاشرة حين توقف سليم بسيارته أمام منزل ليلى، هبط منها ثم توجه نحو الداخل، رن جرس المنزل، لحظات فتح الباب وطلت من خلفه ليلى، كم كان يشفق لرؤيتها يكحل عينيه بطله وجهها

الملائكي، على الرغم مما حدث فحبها بقلبه لم ينقص درجة واحدة،
ستظل الفتاة التي أعادت النبض لقلبه وجذوة الحياة لروحه.

- تفضل سليم، ادخل.

قالت ليلي له بصوتها الرقيق الذي يقطر اشتياقا.

دلف سليم إلى الداخل يتبعها، جلس على الأريكة بينما وقفت ليلي أمامه
تسأله:

- سكر ك خفيف والقهوة بدون وجه؟؟

أوماً سليم برأسه وعيناه اللامعتان معلقة بها، دلفت ليلي إلى حجرة
المطبخ ثم عادت تحمل كوبين من القهوة الساخن، وضعتهما على
الطاولة ثم جلست بجوار سليم.

- ليلي أنا...

لم يكذ يكمل سليم عبارته حتى قاطعته ليلي:

- من فضلك سليم، اتركني أتحدث أنا أولاً، لقد أحببتك، نعم أحببتك ولم
أحب بحياتي أحدا غيرك، لا أعلم كيف ومتى حدث ذلك، لكنه القلب
عندما يحب لا يعرف شرعا ولا ديناً، حاولت كثيراً أن أبعد عنك أن
أقتلع جذور حبك من داخلي لم أستطع، لم أتزوج خالد لأنني أحبه لا،
تزوجته حتى أستطيع أن أبعد عنك فلم أقدر، أنا مسافرة الليلة إلى
بروكسل وقد لا أعود ثانية أود فقط أن أخبرك أنني لم ولن أحب غيرك
يا سليم.

قالت ليلي لسليم بعيون دامعة وصوت حزين، ارتشف سليم بضع رشفات من كوب القهوة.

- أنا أيضا يا ليلي، كانت حياتي عبارة عن حلقة مفرغة من المسؤوليات والالتزامات لا أكثر، حتى رأيته جعلت حياتي معنى آخر، بعد أن كانت عبارة عن لونين أسود وأبيض فقط، أصبحت تعج بالألوان، لم أشعر بمعنى الحب غير معك، كل ليلة أفكر بك، تمنيت لو تعرفت عليك من قبل، لكنت تغيرت الكثير من الأمور.

- وهل الحب يدفع المرء لإيذاء من يحب؟؟

- لا أفهم ما الذي تقصدينه من وراء سؤالك؟؟

- لماذا بعثت لخالد برسائل تخبره بها أي على علاقة بك؟ وأني أخونه ولا أحبه؟ لماذا تصر على تدمير حياتنا معا؟؟

قالت ليلي، انتفض سليم من مكانه يشعر بألم يجوب أمعاءه.

- أنا لم أرسل أي رسائل لخالد! أي نعم فكرت للحظة أن أنتقم منك لكني لم أستطع فعل ذلك بمن أحب!

انتفضت ليلي هي الأخرى مذعورة.

- إن لم يكن أنت من فعل ذلك فمن يكون؟؟

- إنها أنا يا ليلي، أنا من أرسلت له تلك الرسائل يا أختي العزيزة.

قالتها فريدة التي كانت تقف أمام باب المنزل بجوار خالد، الزوجان المخدوعان، كانت الصدمة قاسية أكبر من أن تتحملها عقولهم، إذن فريدة كانت على علم بتلك العلاقة من قبل، هي الأخرى شاركت في نصب الفخ المحكم للعاشقان.

- فريدة!

قالتها ليلى بتعجب وعيناها منبلجتان على مصراعيهما من شدة الصدمة، تقدمت فريدة إلى الداخل يتبعها خالد.

- نعم فريدة يا أختي الوحيدة، فريدة التي وثقت بك واثمنتك على بيتها وزوجها، مقابل كل ذلك تطعنيها بظهرها بسكين بارد، ماذا فعلت لك لكل ذلك؟! ألم تجدي رجلا آخر غير زوجي! منذ فترة وأنا أشعر بذلك لكنني كنت أكذب نفسي، حتى سمعت الحوار الذي دار بينكم عندما كنا بأسوان، ظننت أنها هفوة وستزول بزواجك لكنها لم تكن كذلك أبداً، الخيانة تسري بعروقك، صدق أبي حين قال عنك أنك نطفة خبيثة، وأنت أيها الزوج المخلص، ما الذي قصرت به لتخونني ومع من أختي! ما هو الشيء الذي لم أمنحه لك؟؟

قالتها فريدة بعصبية ممتزجة بحزن، رد سليم قائلاً:

- هل تريد أن تعلمي ما كان ينقصني؟ حسنا كان ينقصني الحب، الشيء الوحيد الذي لم تستطعي أن تمنحيه لي، عمك هو الأهم، شكلك الاجتماعي هو الأهم، أما أنا فكانت بآخر اهتماماتك، هل سألت نفسك للحظة لماذا بحثت عن الحب خارج المنزل؟ لأنه كان خالياً من الحب،

بارد كبرودة القلب بالخريف، أنا لم أعش معك يا فريدة سوى فصل الخريف.

- برافو، جميعكم تلقون بالتهم إلى بعضكم البعض، ولم تسألوا أنفسكم لمرة ما دخلي أنا بتلك اللعبة القذرة، أخبريني يا ليلي، ماذا فعلت لك؟ هل لأنني أحببتك بصدق؟ لأنني وثقت بك؟؟ لأنني كنت الزوج المخدوع أم ماذا؟؟

قالها خالد وهو يجوب المكان، علامات الغضب تزين صفحة وجهه، اقتربت ليلي خطوتين منه.

- خالد، اسمعني أنا لم أقصد أن أخدعك، كل ما بالأمر أنني أردت أن أحيا معك حياة جديدة.

- اخرجني، ما زلت تكذبين! أمثالك لا يستحقون الحياة الموت أكرم لهم.

قالها خالد ثم أخرج من جيب بنطاله الخلفي مسدسا، أشهر فوهته تجاه قلب ليلي، ذعر الجميع تراجع ليلي للخلف لتقف بجوار سليم.

- خالد اعقل، ما ستفعله جريمة لن تنهي حياتي فقط بل ستنهي حياتك أيضا، من فضلك أنزل ذلك السلاح لا تنهز.

قالت ليلي بصوت خائف وحروف متقطعة.

- هل تخشين الموت ليلي؟ حسنا سأمنحك بعض الوقت للحياة، ما رأيك أن أبدأ بسليم؟ واطمئني لن آخذ دقيقة حبس واحدة، تلك جريمة شرف، الزوج وجد زوجته بأحضان عشيقها فلم يتحمل الصدمة أخرج المسدس وقتلها، انطق الشهادتين أيها العاشق الولهان!

قالها خالد وهو يسدد فوهة المسدس تجاه سليم، كانت لحظة فارقة في حياة ليلي، عليها أن تختار بين حياتها أم حبها، أسرع ليلي مهرولة تجاه خالد، الذي ضغط على الزناد لتنتقل الرصاصة وتستقر بقلب ليلي التي سقطت على الأرض، دمائها تنزف بشدة، تلفظ أنفاسها الأخيرة، عيناها الدامعة معلقة بسليم الذي هرول نحوها يحتضنها.

- ليلي، لا تموتي أرجوك، أنا لا أستطيع العيش بدونك!!

قالها سليم وهو يبكي، ردت ليلي بصوت واهن وعلى شفيتها ابتسامة هادئة تتلمس وجهه.

- سليم.. اعلم أنني لم أحب بحياتي أحد غيرك، تذكر ذلك دائما، هل تعلم بما أشعر الآن؟؟ أنا سعيدة..

قالتها ثم توقفت أنفاسها للأبد، ساد صمت رهيب، فريدة التي تقف مذعورة مما حدث، وقف سليم ويدها مخضبتان بدماء ليلي.

- أيها القاتل المختل..! قتلتها! قتلتي ليلي حبيبتي، لن أتركك تعيش لحظة أخرى على هذه الحياة!

قالها سليم ثم اندفع نحو خالد الذي أشهر مسدسه مرة أخرى ضاعطا على الزناد لتستقر الرصاصة الثانية بكتف سليم، ليرتطم بالأرض بجوار ليلي، في مشهد درامي محزن.

- ماذا فعلت أيها المجنون! لقد قتلتهم! نحن لم نتفق على ذلك، قتلتي زوجي أيها المجرم..!

قالتها فريدة وهي تمسك بتلابيب رقبة خالد، الذي وكزها فوق رأسها بمؤخرة المسدس، لتغيب عن الوعي وينتهي ذلك المشهد الدرامي....

- - - -

ظلام دامس، رائحة رطوبة عطنة، أصوات لأقدام صغيرة تدب على الأرض، برودة غريبة تسري بالجسد، دوار يكتنف الرأس، مع ألم بالمؤخرة، هكذا كانت تشعر فريدة.

حين أفاقت من إغمائها، لا ترى شيئاً بالكاد تستطيع رؤية وقع أقدامها، خصلات شعرها المبعثر تنسدل فوق وجهها، حاولت أن تقوم لكنها لم تستطع، فجسدها مقيد بالحبال كما أن ساقها مقيدتان أيضاً، وذراعاها مقيدتان للخلف، تجلس على كرسي خشبي قديم بمكان لا تعلمه، لحظات ولمع ضوء قادم من الأعلى، أضواء لها المكان علمت أنها بقبو منزل والدها حيث صناديق الكتب الكرتون وبعض الأثاث القديم البالي الذي غطته ذرات التراب الناعمة، انتبهت إلى وقع أقدام تهبط على السلم، نظرت للأعلى فوجدته خالد يهبط السلم بخطوات وثيدة، اقترب منها ثم جلس على كرسي أمامها.

- كيف حالك مدام فريدة، أرجو أن تكوني بخير؟؟

قال لها خالد بصوت هادئ، نظرت له بدهشة.

- من الذي أتى بي إلى هنا ولم أنا مقيدة هكذا! أرجوك فك قيدي.

قالت له فريدة بتوسل، رد خالد:

- حسنا سأفك قيدك لكن بشرط، أن توقعي لي تلك الأوراق فقط الموضوع أبسط ما يكون.

- ما تلك الأوراق التي بيدك ولماذا أوقع لك عليها؟؟

- إنها أوراق نقل ملكية ذلك المنزل منك لي.

نظرت له فريدة بغضب.

- هل أنت مجنون! بالطبع لا لن أعطيك قرشا واحدا من أموالي!

قام خالد من على الكرسي يلوح بالأوراق.

- حسنا لا بأس، بعد قليل ستأتي الشرطة وتجد جثة ليلى وسليم وجوارهما المسدس عليه بصمات أصابعك، وأظن أن عقوبة القتل هنا تتراوح ما بين المؤبد إن كان الحكم مخففا أو الإعدام لا قدر الله وأنت في كلتا الحالتين ستخسرين كل شيء أولهما ابنك وليد المسكين الذي سيكبر ويعرف أن والدته قتلت والده وخالته بسبب الخيانة، حقا أنا آسف له كثيرا.

- أيها السافل المنحط، أنا لم أقتل أحدا! لماذا تفعل معي كل ذلك؟؟

قالتها فريدة وهي تبكي.

- مجرد تعويض بسيط عن الخيانة التي تعرضت لها أعتقد أن المنزل لا يساوي شيئا مقارنة بأموالك.

قالها خالد وهو يتوجه نحو الأعلى، أوقفته فريدة قائلة:

- من فضلك انتظر، سأوقع لك شرط أن تحررني.

نظر لها والابتسامة تعلو شفثيه، اقترب منها ثم فك وثاق ذراعيها، أعطاهم الأوراق وقلم، أمسكت بهم، أشار لها على مكان التوقيه، وقعت فريده عليها، تناولها مرة أخرى بسعادة.

- أنا حقا ممنون لك، أنت سيده راقية بالفعل، شكرا لك.

قالها خالد بينما تركها مغادرا القبو.

- إلى أين أنت ذاهب! انتظر هنا لا تتركني بهذا المكان انتظر!!

قالتها فريده بصوت عال بينما غادر القبو وأغلق الباب خلفه، ليعود الظلام مرة أخرى وصوت صرخاتها يتردد بين الجدران.

الفصل الثالث عشر : كشف النقاب

(المؤامرة الجيدة هي المؤامرة التي لا يمكن إثباتها.... من فيلم
conspiracy theory)

الزمان: الحادي عشر من شهر سبتمبر عام ٢٠٠٥.

المكان: منزل سمير العصفوري بالمقطم.

بغرفة مكتب السيد سمير العصفوري التي تقع بالطابق الأول، تميزها تلك المكتبة الكبيرة التي تأخذ حيزا كبيرا من الجدار، تعج بكتب الهندسة والقانون، يتوسطها مكتب خشبي عليه مجسم صغير للكرة الأرضية ولوح، وبعض الدفاتر والأوراق، جلس المحامي معتز السيوفي خلف المكتب على الكرسي الخاص بالسيد سمير العصفوري، بينما يجلس أمامه كل من فريدة الابنة الكبرى للسيد سمير ترتدي ثوبا أسود اللون يبدو على وجهها الحزن الشديد، على الكرسي الذي بجوارها تجلس السيدة فاتن الغندور بجسدها النحيل ووجهها الشاحب ترتدي ثوبا أسود اللون ترتدي حجابا بنفس لون الثوب، بينما تجلس ليلي على الكرسي المقابل لهم ترتدي بنطالا أسود اللون مع قميص زهري تضع قدما فوق الأخرى تنفث دخان سيجارتها بحقن، جو من التوتر والقلق يغلف المكان.

- قبل أي شيء البقاء لله، السيد سمير رحل وترك بقلوبنا جميعا حزنا شديدا، لقد كان أخا وصديقا عزيزا.

قالها السيد معتز السيوفي، قاطعته ليلي بحقن:

- من فضلك ليس لدي وقت بتلك الخطبة العصماء.

قالت لها ليلي، لينظر الجميع تجاهها بغضب لكنها لا تبالي.

- لقد جئت اليوم لفض وصية السيد سمير العصفوري بناء على طلبه قبل الوفاة.

قالها السيد معتز السيوفي ثم أخرج من حقيبته الجلدية ملفاً أصفر اللون وضعه أمامه على المكتب، ثم قلب صفحاته وشرع بالقراءة بينما العيون كلها والأذان تنصت له باهتمام.

- لقد أوصى السيد سمير العصفوري بكامل تركته وأمواله بما فيهم ذلك المنزل والشركة إلى الأنسة فريدة العصفوري لها مطلق الحرية والتحكم بها، كما أودع بالبنك مبلغاً مالياً قدره ربع مليون جنيه مصري للسيدة فائق الغندور.

انتفضت ليلي من على الكرسي عيناها تشتعل شراراً.

- ما الذي تقوله أيها الرجل المخبول! أي وصية تلك! أين أنا من كل تلك الأموال، بتلك البساطة تذهب كل الأموال إلى فريدة أنا أذهب إلى الجحيم ليس لي شيء! تلك الوصية مزورة لا أساس لها من الصحة!!

قالت لها ليلي وهي تطرق على سطح المكتب وقد ثارت ثورتها.

- من فضلك أنا لا أسمح لك بالتشكيك ولا الإهانة، الوصية أمامك مسجلة بالشهر العقاري وإن كنت لا تصدقين اذهبي إلى هناك أو لأي محامٍ آخر.

- من فضلك ليلي اهدأي، أي أموال تريدينها لن أتأخر عليك بها، قد يكون أبي فعل ذلك لأنه يخاف على أمواله من الضياع.

قالتها فريدة بصوت حزين، نظرت لها ليلي بغل تود لو أن تدق عنقها.

- اصمتي أنت السبب بكل ذلك، لكني لن أسامحك أو أسامحه أبدا يا فريدة مهما مر الزمان، سأنتقم منك وأسترد حقي.

قالتها ليلي ثم غادرت المكان وهي عازمة كل العزم على الانتقام.

تقرير....

بعد مرور يومين من الحادثة، قامت قوات الشرطة باقتحام منزل السيد سمير العصفوري، بناء على إبلاغ من مجهول، تم العثور على جثة المدعو سليم العرباوي غارقة في دمانها على أرضية المنزل، بينما وجد خيطا من الدماء يمتد للطابق الثاني، كما تم العثور على المدعوة فريدة العصفوري بقبو المنزل في حالة من الصدمة والهيستيريا، تم إيداعها بمصحة للأمراض العقلية والعصبية لحين استجوابها بتهمة قتل المدعو سليم العرباوي، حيث عثر على المسدس الذي قتل به وأثبت تقرير الطب الشرعي أن البصمات الموجودة عليه تعود إليها، كما أثبت أن ذلك الخيط من الدماء يعود لحيوان بري غالبا كلب، وأيضا أثبت أن المجني عليه سليم العرباوي لم يتوفى بسبب الطلقة التي استقرت بكتفه بل بسبب تناوله جرعة مكثفة من سم يتواجد فقط بنبتة تدعى الأفعى البيضاء تنمو بأمريكا الشمالية فقط يقال إنها تسببت بوفاة والدة الرئيس

الأمريكي السابق لينكولن، أما عن جثة ليلي فلم يعثر على أثرها بعد وأغلق المحضر على ذلك....

الزمان: الخامس من مارس عام ٢٠١٢.

المكان: ساحة غراند بلاس ببروكسل.

غرفة واسعة يغلب عليها اللون الأبيض المريح للنفس والأعصاب، خالية من الأثاث فقط مكتب صغير لونه أبيض ومكتبة صغيرة بنفس اللون مع أريكة وثيرة بيضاء، المكان كله يعج باللون الأبيض، أشعة الشمس تتسلل من تلك النافذة التي تطل على تمثال مانيكين بيس، جلس الطبيب نوح على كرسي معدني يضع قدما فوق الأخرى بلامحه القوقازية الشمالية بأنفه الدقيق وشفتيه الدقيقتين، العيون البنية ببشرة ثلجية يتناثر النمش عليها، يرتدي قميصا أبيض اللون مع بنطال أسود، بينما يرتدي نظارته الطبية، جلس يمسك بدفتر صغير يدون عليه بعض الملاحظات، كان الطبيب نوح هو الطبيب النفسي المعالج لليلي منذ ثلاث سنوات حيث كانت تعاني من اكتئاب شديد مع نوع من أنواع الفصام، استلقت ليلي على الأريكة تضم ساقها وتضع ذراعيها فوق صدرها عيناها معلقتان بالفراغ.

- ها كيف حالك الآن ليلي؟؟

قالها الطبيب نوح.

- لا أعلم، أصبحت لا أستطيع التفرقة بين إذا ما كنت سعيدة أم حزينة، لكن ما أعلمه أنني مستاءة.. الكوابيس عادت تداهمني مرة أخرى، لا

أنعم بنوم مطلقا كل ليلة أحلم بتلك الليلة كأنها تحدث لي مرارا وتكرارا
فكرت بالانتحار أكثر من مرة.

قالتها ليلي بأسى بالغ.

- وضع طبيعى جدا بالنسبة إلى حالتك، أنت تعانين من درجة من درجات التوهم كما تعانين من متلازمة عصبية نتيجة ما مررت به وأنت طفلة لكن لا تستسلمي لتلك الأفكار يا ليلي، أعلم أن ما مررت به كان صعبا، لكن الاستسلام لتلك الهواجس أمر أصعب.

استقامت ليلي بجلستها، تقضم أظافرها بعصبية وتوتر.

- أي هواجس يا دكتور نوح، طفلة صغيرة لم تتجاوز السابعة بعد الحياة بنظرها عبارة عن زهرة جميلة تستنشق عبيرها كل يوم، وذات ليلة حين كانت نائمة تحتضن دميته، تشعر بتلك اليد الباردة الخالية من أي روح تعبث بجسدها، خفت انكشفت على نفسي كالجنين، يد كتمت أنفاسي والأخرى لم تتوقف عن العبث، لازلت أتذكر رائحة أنفاسه الكريهة، صوت لهائه كذئب مسعور انتهى من تناول فريسته، هل تعلم من كان ذلك الذئب؟ إنه أبي.

قالتها ليلي، ثم بكت بحرقة مردفة.

- لن أرتاح للحظة واحدة حتى أنتقم لنفسي ولتلك الطفلة المحطمة بداخلي.

- وممن تنتقمين يا ليلي؟ والدك أصبح سرابا يعلوه الثرى.

- فريدة، نعم هي فتاة أبيها المدللة التي كتب لها كل أملاكه وأمواله، لم أشعر للحظة واحدة أنها أختي، لن يهدأ لي بال حتى أنتقم منها ومن كل شخص دمر حياتي.

قالتها ليلي ثم توجهت نحو النافذة، وبعينها نظرة غريبة تحمل الكثير من المعاني السيئة.

الزمان: الرابع والعشرون من نوفمبر عام ٢٠١٣.

المكان: ساحة غراند بالاس ببروكسل.

بعيادة الطبيب نوح.

جلست فريدة على الكرسي أمام مكتب الدكتور نوح الذي كان جالسا خلفه لكنها تلك المرة لم تأت كمريضة بل كعميلة.

- ما رأيك بالأشعة والتقارير التي أرسلتها لك أول أمس على الواتساب.
قالتها ليلي بتحفز واضح.

- لقد عرضتها على صديق لي يعمل طبيب مخ وأعصاب بمشفى Chu saint peirre أكد لي أن الورم منحصر بأسفل منطقة الذاكرة.

- حسنا، ماذا فعلت بالأمر الذي تحدثنا عنه أيضا؟

فتح الطبيب نوح درج مكتبه ثم أخرج منه علبة بلاستيكية بيضاء اللون وضعها في قبضته، عدل من وضع نظارته الطبية ثم قال:

- تلك العلبة بداخلها حبة واحدة، قادرة على زيادة معدل انتشار الورم بالمخ بالشكل الذي لن ينفع معه أي تدخل جراحي أو دوائي.

نظرت له ليلي بشغف عيناها ترقص من الفرحة.

- جيد جدا هذا ما كنت أبحث عنه، أعطني إياها.

قالت لها ليلي وهي تمد ذراعها لتأخذ اللعبة.

- لا ليس بتلك السهولة، أنت لا تعلمين كم عانيت حتى حصلت عليها من طبيب يعمل بـ dark web وكم دفعت لأجلها.

- ماذا تعني بكلامك هذا؟؟

- مئة ألف يورو، أنا لست طماعا يا ليلي وذلك العرض لك فقط لأنك مريضتي العزيزة، وأظن أن ذلك المبلغ لن يساوي شيئا بثروة أبيك الطائلة.

- حسنا أنا موافقة.

قالت لها ليلي ثم كتبت شيكا على بياض بالمبلغ الذي طلبه الطبيب نوح، تناولت اللعبة من قبضته، وهي تنتظر لها بعيون لامعه وابتسامة أفعوانية ترتسم فوق ثغرها الوردي وعقلها يحدثها أنها بداية الطريق ليس أكثر.

الفصل الرابع عشر : انشئ العقرب

(يقال إن لدغة أنثى العقرب غير مؤلمة لكنها قاتلة... محمود مدين)

الزمان: بعد مرور ثمانية أشهر من الحادثة.

المكان: مشفى تابع لسجن القناطر.

داخل غرفة بيضاء اللون باردة، تغلب عليها رائحة العقاقير والمعقمات، وقف الطبيب يرتدي زيه الطبي مع قفازات طبية ملطخة بالدماء وكمامة بيضاء، صوت صرخات متتالية تصدح في أرجاء غرفة العمليات، كانت فريدة مستلقية على سرير معدني أصبحت نحيلة الجسد عظامها تبرز من أسفل جلدها الذي أصبح شاحبا، عظام وجنتيها كالنتوءات البارزة وجهها أصبح رمادي اللون لا حياة به عيناها عبارة عن تجويف بارز تحيط بهما هالات سوداء خصلات شعرها تساقطت حتى أصبحت رأسها كالصحراء الجرداء، الانقباضات تغزو بطنها المنتفخ، تصرخ بشدة وألم يعتصر جسدها، تشعر أن عضلات جسدها تنخلع من مكانها.

- لا أريده، لا أريده، أبعدوه عني.

قالتها فريدة بصوت مبجوح متحشرج تشعر أن روحها تتسلل من بين أوردتها تمزق أنسجتها مغادرة جسدها، ظلت تردها كثيرا كالمجذوبة.

- من فضلك اهدأي، حتى تمر الولادة على خير.

قالتها الممرضة وهي بداخلها لا تشعر بخير قسمات وجهها المشدودة تخبر فريدة بغير ذلك.

- الولادة متعسرة للغاية، لابد أن نختار بين الأم أو الجنين.

قالها الطبيب، ردت فريدة قائلة:

- لا أريد أن أموت من فضلك، خلصني منه كنت أعلم أن موتي سيكون بمولده، أرجوك ساعدني!!

لحظات بين خوف وترقب وصرخات تشق السماء، جبين الطبيب ينضج عرقا عيناه تطل منها نظرة قلق، نظراته تنتقل بين فريدة تارة وبين جهاز التنفس تارة أخرى، بينما صدرها يعلو ويهبط حتى بدأت أنفاسها تخبو تدريجيا حتى انقطعت وأسلمت الروح لتصدح صرخات أخرى قادمة من بين ساقيها.

كانت الشمس تعلو كبد السماء مشرقة سخية توزع أشعتها الدافئة بلا حساب على الأرض، السماء كصفحة مياه زرقاء صافية، الخضرة تسطو على الأرض أشجار النخيل تتراقص على وقع انغام الطبيعة، مياه المحيط الهندي مزيج بين اللونين الأزرق والأخضر، تتخللها تموجات بدیعة، تلك هي جزر المالديف بسحرها الخلاب.

جلست ليلي على كرسي خشبي ترتدي مايوه فيروزي اللون تعتمر قبعة جلدية فوق رأسها مع نظارة شمس من أغلى الماركات، ترتشف من كوب مشروبها الاستوائي المميز الذي تزيينه قطع الليمون والأناناس، بينما يجلس بجوارها خالد يقلب في هاتفه المحمول.

- ليلي أود أن أسألك سؤالا يلح على ذهني من فترة.

- ما هو يا زوجي العزيز؟ أتحنفي فأسئلتك تلك الأيام أصبحت كثيرة.

- ألم تشعرني بالندم للحظة على ما فعلتني بفريدة وزوجها؟؟

نظرت له ليلي من تحت نظارتها ترفع حاجبها.

- أولاً صيغة السؤال خاطئة، تقصد ما فعلناه سوياً، لا أنكر أنني أشعر به في بعض الأحيان، لكن كلما أتذكر الأموال التي أصبحت بين يدي يزول ذلك الشعور.

- صراحة لم أتخيل للحظة أن أكون شريكاً في لعبة مثل تلك، طوال الوقت كنت خائفاً جداً.

- أنا لا، منذ اللحظة الأولى التي رأيتك بها بمقهى mento علمت أنك ستكون أنسب شخص للعب ذلك الدور خاصة أنك تتقن اللكنة المصرية جيداً.

- ذلك بفضل شاب مصري كان يسكن معي عند مدام مونيكا، لكن أتدري أكثر وقت كنت خائف به حقاً هو وقت أطلقت الرصاص عليك وعلى سليم.

- أنا أيضاً تخيلت لوهلة أن تكون الرصاصة الزائفة هي الرصاصة الثانية، وتصيبي الرصاصة الأولى، لكن ألم تجد سوى دماء الكلاب التي أضعها تحت ملابسني.

- هذا ما كان متاحاً لي، لكنك تعجلت بكتابة كلمة النهاية لتلك اللعبة.

- أيها الغبي نسيت أن إقامتك بالقاهرة كانت توشك على الانتهاء، كان لابد من إرسال الصور التي تجمعني بسليم إلى فريدة حتى تشك بنا وتحاول الانتقام، تلك الحبة التي أعطاني إياها دكتور نوح لم تقض عليها كما كان من المفترض، لم يكن أمامي سوى الخطة البديلة.

- سؤال أخير ليلي، هل أحببت سليم حقاً؟؟

- أجابت ليلي وهي تشير تجاه قلبها:

- الذي هنا لم يعد قلبا ينبض بالحب، هنا قلب لا يعرف سوى الانتقام، ما رأيك أن نعود إلى الفندق لدي عشبة جلبتها خصيصا من شمال أمريكا تجعل لكوب الشاي مذاقا آخر، سأعده بيدي لأجلك فقط.

قالتها ليلي وعلى شفثيها ابتسامة خبيثة تخفي بداخلها أقبح مما تظهر، بينما وشم العقرب الذي يزين كتفها يلمع بضوء النهار.

الزمان: قبل أربع وعشرين عاما مضت.

المكان: مؤسسة البراعم الصغيرة لرعاية الأيتام.

داخل حجرة واسعة يغلب عليها اللون الأزرق الجيري الذي تساقطت أجزاء من طلائه، حجرة صماء ليست بها نوافذ، تتراص الأسرة الصغيرة بها بشكل منتظم، كل سرير يحمل بداخله طفلا صغيرا لم يتجاوز عمره العام بعد، وقفت السيدة فاتن الغندور بداخلها تدور بعينيها بالمكان، مشتتة لم تتخذ قرارا بعد بينما يقف السيد سمير العصفوري بجوارها ينفث دخان حنقه وعصبيته.

- ما رأيك يا سمير بذلك الطفل الصغير الذي هناك؟ إنه وسيم حقا.

قالتها فاتن وهي تشير بإصبعها نحو طفل نائم بداخل سريره.

- بالطبع لا، تريدان أن يحمل ولد ابن شوارع اسمي فيما بعد! صراحة أنا لا أعلم ما الفائدة من كل ذلك، عندك فريدة اهتمي بها وكفى.

قالها سمير بغضب يحاول أن يخفيه، ردت فاتن بصوت حزين:

- أنت تعلم أنني أعامل فريدة كابنة لي، لكنك أيضا تعلم أنني لن أستطيع الإنجاب فلا تحرمني من تبني طفل أصبح أما له.

- حسنا لكن من فضلك إلا الأولاد لن أسمح بذلك أبدا.

أخذت فاتن جولة داخل الحجرة حتى توقفت أمام سرير تقبع بداخله طفلة صغيرة لم تتجاوز الخمس أشهر عيناها زرقاوتان، بشرتها بيضاء حلبيية يغزوها النمش.

- سمير من فضلك تعال إلى هنا بسرعة!

قالتها وهي لم ترفع عيناها عن الطفلة، تقدم سمير نحوها ثم وقف بجوارها يتطلع هو الآخر للطفلة.

- أليست جميلة بحق! إنها تشبه فريدة أختي رحمها الله وقت كانت بمثل عمرها.

- معك حق يا فاتن نفس العيون والوجه.

نظرت الطفلة نحو سمير بعيون تشع براءة ثم ابتسمت له.

- يا إلهي لقد اخترقت قلبي وتربعت بداخله، سأتبناها يا سمير لن أتركها لحظة واحدة ما رأيك؟؟

قالتها فاتن بشغف حقيقي، رد سمير وهو يرد لها الابتسام:

- موافق يا فاتن، لقد أحببتها أنا أيضا، ترى ماذا نسميها؟؟

سكتت فاتن قليلا وهي تنظر إلى الفراغ ثم ابتسمت ابتسامة واسعة قائلة:

- ليلي.. سأسميها ليلي...

تمت



جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعادته إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال أو تدواله الكترونيا نسخا
أو تخزينا دون إذن خطي من الدار